

المدائح النبوية

الدكتور زكي مبارك



دار المحجة البيضاء

المدائح النبوية

فى الأدب العربى

تأليف



دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب

اللغات الشرقية فى باريس

دار المحجة البيضاء

كتب جديدة للمؤلف تحت الطبع

١ — كتاب الأسمار والأحاديث

٢ — أكواب الشهد والعلقم

٣ — سرائر الروح الحزين

فهرس

صحيفة

(تم)

مقدمة

تتعطر أحياء القاهرة منذ مئات السنين بمدائح شعرية تلقى مدحاً للنبي الكريم ﷺ ولاهل بيته عليهم السلام ففي المولد النبوي من كل عام تتوهج المشاعر أزاء هذه الارومة الكريمة في مدن مصر كالقاهرة وغيرها من المدن الأخرى بما يلقيه الشعراء والمنشدون من قصائد واناشيد وينقلها الرواة وعامة الناس وتنشدها القلوب قبل الحناجر، وتتكرر هذه الممارسة العاطفية المعبّرة عن ولاء عرفه المصريون قديماً في شهر رمضان وعيدي الفطر والاضحى ورأس السنة الهجرية وتقام هذه الطقوس قرب المساجد مثل مسجد الحسين عليه السلام وجامع الازهر ومسجد السيدة زينب عليها السلام والسيدة نفيسه وجامع الإمام الشافعي.

ولم يتقص الكثير من الباحثين تاريخ هذه المدائح وتطورها مثلما تقصاها المفكر والناقد الراحل د. زكي مبارك في كتابه (المدائح النبوية في الادب العربي) واقفاً بمهارة عند اعلامها في قصائدهم الخالدة، جاعلاً إياها باباً من أبواب الأدب الرفيع، لأنها صادرة عن صدق وإخلاص عميق، وقد لاحظ الدكتور مبارك ان ما يقال عن الرجل بعد موته يسمى رثاء الا ما كان في حق رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم فانه يُسمى مديحاً وكأنهم لاحظوا انهم موصولو الحياة ويخاطبون كما تخاطب الاحياء، وبمثل هذه الالتفاتات الذكية تعقبها مبارك بالرصد والتحليل والشرح وغرر النصوص النقدية من قصيدة كعب (بانت سعاد) حتى قصيدة أحمد شوقي (ولد الهدى) وأخواتها مثل (ريم على القاع) و(سلوا قلبي) وقصيدة الشاعر محمد التهامي.

لقد قدّم د. زكي مبارك تحليلاً ممتازاً للسمة الابداعية لهذه المدائح، وأوصل خيوطها النورانية بماضي الادب العربي، وحدد خصائص هذا اللون الادبي وما ينفرد به تحديداً ينم عن موهبة نقدية رفيعة، ولعل من المستحسن قبل عرض التحليل الادبي ان نتعرف على ترجمة هذا الناقد البارع.

انه محمد زكي عبد السلام مبارك ولد في مصر عام ١٨٩٢ واصبح قامة أدبية ونقدية معروفة ومن كبار الكتّاب الذين امتازوا بأسلوب جذاب.

لقد ولد هذا الناقد في قرية سنتريس بالمنوفية (بمصر) وتعلم بالازهر التعليم الاساسي وحصل على شهادة دبلوم الدراسات العليا في الادب من مدرسة اللغات الشرقية عام ١٩٣١ ثم نال من الجامعة المصرية درجة الدكتوراه بأطروحته (الاخلاق عند الغزالي) وكان قد نقده بشدة فاتهم بالكفر والزندقة، وحينما أجيزت الرسالة قالت اللجنة انها غير مسؤولة عما فيها من آراء، وحصل على دكتوراه ثانية كانت حول (النثر الفني في القرن الرابع الهجري) وكان قد قدمها بالفرنسية للسوربون عام ١٩٣٧ وبعد حصوله على الدكتوراه من السوربون عاد إلى مصر، واختلف مع د. طه حسين فعمل مفتشاً في وزارة المعارف المصرية، ثم استاذاً بالجامعة لفترة وجيزة وعمل بالصحافة حتى انه قال لقد كتبت قرابة الف مقال في جريدة البلاغ في موضوعات متنوعة تحت عنوان (شؤون وشجون) فلما توقفت قال (غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي) ثم انتدب عام ١٩٣٧بعد حصوله على الدكتوراه من السوربون للعمل بالعراق مدرّساً في دار المعلمين العالية (بغداد).

وقد عرف عن مبارك انه كان يصرّح مراراً ان المجتمع العراقي شعب يتميز بالكرم والسخاء وإكرام الضيف وقد جاء ذلك في كتابه (ملامح عن المجتمع العراقي) الذي نشر عام ١٩٤٢.

وكانت له حلقات واحاديث تبث من إذاعة بغداد استمرت عدة شهور، نال فيها شغف أهالي بغداد آنذاك وكان معجباً بليالي بغداد فقد قال عن هدوء ليل بغداد (الان عرفت كيف استطاع علماء العراق ان يملأوا الدنيا علماً وادباً) وان (ليل بغداد هو الذي سيخلق زكي مبارك من جديد)، ومن المعلوم أن المدن العراقية قد احتفت به وأقامت له حفلات تكريم كالنجف الاشرف والبصرة والموصل، وقد جمع ما القيَ فيها من قصائد وكلمات الاستاذ عبد الرزاق الهلالي في كتاب اسماه (زكي مبارك في العراق) وبسبب هذا الانفتاح

على ادباء العراق فقد توطدت له علاقات مع رموز ادبية عراقية بارزة فقد كان من اصدقائه الشيخ محمد رضا الشبيبي، وعباس العزاوي وابراهيم الزهاوي ومحمد القبانجي صاحب المقام العراقي المشهور.

ويقال ان زكي مبارك زار الفلوجة ليلتقي بالرصافي ويسجل عنه اخر ما قال من الشعر:

قد كان لي وطن بالأمس اندبه والـيـوم لا وطن عندي ولا سكن
ولم أجد من بلاد كنت اخدمها الا حثالة قوم قاءها الزمن

لقد اثرى زكي مبارك المكتبة الادبية بأكثر من (٤٥) كتاباً اثنان منها بالفرنسية، ومن كتبه النثر الفني في القرن الرابع، وعبقرية الشريف الرضي، والاسماء والاحاديث، والتصوف الإسلامي في الادب والاخلاق، وكتاب الاخلاق عند الغزالي، والموازنة بين الشعراء، ووحي بغداد، وكثير من العنوانات الأخرى واخيراً اصدر مذكراته بعنوان (الحديث ذو شجون) ومازالت كتبه يتداولها الادباء والنقاد حتى اليوم ومن كتبه النادرة (المدائح النبوية في الادب العربي) هذا الكتاب الذي سنعرض لفصوله.

وفي مساء يوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩٥٢ وكان زكي مبارك يسير في شارع عماد الدين بالقاهرة فأصابه إغماء سقط بسببه على الأرض فجرح رأسه ثم نقل إلى المستشفى وتوفى فيها وعمره ستون عاماً.

وكان قد قال رحمه الله (اخشى ان لا اظفر بكلمة رثاء يوم يشيعني الناس إلى قبري فذاكرة بني آدم ضعيفة جداً فهم لا يذكرون الا من يؤذيهم اما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير».

كتابه المدائح النبوية في الادب العربي:

خرج هذا الكتاب إلى النور عام ١٩٣٥ وقد أهداه لإستاذه الشيخ

مصطفى عبد الرزاق وهو أحد أبرز علماء الأزهر مطلع القرن الماضي وهو في الأصل جزء من كتاب كبير عن أثر التصوف في الأدب وقد أشار عليه الشيخ عبد الرزاق ان يفرد هذا الجزء مستقلاً بكتاب فامتثل لأستاذه فحقق سبقاً في انه من اوائل من يرسم خصائص المدائح النبوية في الأدب العربي كغرض من أبرز أغراض الشعر العربي.

لقد عرض بالفصل الاول إلى دالية الاعشى، ولا مية كعب، وقصائد حسان وتكلم عن خطب الإمام امير المؤمنين عليه السلام والمدائح التي اثنى فيها على النبي الاكرم صلى الله عليه وآله في خطب نهج البلاغة وحللها بلاغياً وفكرياً فابدع في تحليلها متخطياً شرّاح نهج البلاغة.

ثم بيّن ظروف نشأة مديح اهل البيت عليهم السلام وخصّ الكميت بن زيد الاسدي بدراسة وافية، وأتبعه بفصل عن دعبل الذي ترك لنا تائية عظيمة قلَّ نظيرها في أداب الأمم.

ومضى إلى شعر الشريف الرضي لاسيما الذي في واقعة الطف، ثم تناول قصائد مهيار الديلمي في اهل البيت عليهم السلام وتوقف عند بردة البوصيري وقفه ناقدة ماهر، وعند شعر ابن نباته، وختم كتابه بقصة المولد النبوي ونشأته وتطوره والموقف منه.

ومن خلال قراءة الكتاب تظهر لك أن هذا الكتاب ينطوي على ميزات خاصة فإن من ميزات الكتاب انه يتضمن نقداً موضوعياً لقصيدة الاعشى وكعب وفي نقده ايضاحات مسهبة لألفاظ الشعر واسماء الاماكن بحيث يزود الباحثين في التاريخ معرفة بالأماكن فهو يقول:

«تقع لامية كعب في ثمانية وخمسين بيتاً من الشعر المحكم وان خلت من الروح، ويقصد نبض المشاعر الجياشة والدفق» ويقول انها قصيدة على موازين القصيدة الجاهلية في الخصائص الفنية وتغلب عليها قوة السبك لكنها تخلو من الروح، وبالرغم من ذلك فلم يقل بها أحد ما قال مبارك فيها بل إهتموا بها فشطرّوها وخمّسوها وترجموها ولم يتناولوها بالنقد العلمي.

اما نثر الإمام على عليه السلام الذي يستشهد به زكي مبارك وهي أول بادرة

تدخل النثر بالمدائح النبوية، فانه يقول فيه رغم أن بعض خطب نهج البلاغة من المشكوك في صحتها إلاّ أن زكي مبارك يورد عدة أمور في وصف مدائح النهج فيرى:

١ - إنه نص يعكس صورة الأدب في تلك الايام.

٢ - ويرجح مبارك صحة ما نسب له في التحميدات والعظات في خطب النهج ويرى أن ما طعن في خطبه ليس الا غمطاً لحقه وانتصاراً لمعاوية، وهذا تعليل جميل تدان به ذممنا.

٣ - ان مدائح علي عليه السلام النثرية لايظهر فيها تكلف فهو في مطلع كل خطبة يحمد الله ويثني على رسول الله صلى الله عليه وآله بأحسن الثناء استرسالاً وسياقاً ولكن في نوع التحميد والمدح للنبي تجد معجزة نهج البلاغة.

٤ - ان علياً عليه السلام ينتقل من مدح الرسول إلى مدح ال البيت الكرام بوصفهم يحملون ذات الصفات.

ثم ينقل المازني حادثة قصيدة الفرزدق في موسم الحج وفي الكعبة الشريفة امام أحد ملوك بني امية والتي مطالعها (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته) ويصفها مبارك أنها نفحة من نفحات التصوف لما فيها من مدح الله ومدح اوليائه وهو عين التصوف، وقد أشاد مبارك بما أسماها الشجاعة الصوفية عند الفرزدق، ويتابع د. مبارك أزمنة المدائح النبوية عبر قرون الحضارة والأدب فيقول وقد بلغ هذا الفن من الشعر اشده في القرن الرابع (قرى ذروة الحضارة الاسلامية) كما يحدده ادم متز في كتابه الشهير (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع).

وفي الفصل الثاني: تتوهج عبارات زكي مبارك فتثير في النفس الكثير من الاعجاب ومن تلك الأمور الآتية:

١ - يقول مبارك لقد ولد التعاطف مع اهل البيت منذ اليوم الذي خُذل فيه الإمام علي عليه السلام حينما كان يرى نفسه صاحب الحق، ويبلغ العطف اشده يوم قتل في مسجد الكوفة، وتأصلت جذور هذا العطف في افئدة المسلمين بعد مقتل الحسين عليه السلام وما تلاه من احزان على اهل البيت.

٢ ـ ان مقتل الحسين عليه السلام من الحوادث التي شغلت خواطر المسلمين اجيالاً طوال، ولو كان التصوير من الفنون التي شجعها الإسلام لملأت صورة الحسين أقطار الأرض، كالذي وقع لصورة المسيح التي تزدان بها كنائس العالم اجمع ومتاحفه وساحاته، وصالونات اللوحات التاريخية النادرة والنفيسة.

وينقل مبارك من اساطير اليونان ان آلهة الجمال كان لها ابن قتله خنزير فدفن في أرض خالية فنبتت من دمه شقائق النعمان فاحيا اليونان ذكراه في كل ربيع وصار لهم تقليداً سنوياً ومنذ الاف السنين ثم يقول (وكذلك يفعل المسلمون في ذكرى الحسين) في عاشوراء من كل عام.

٣ ـ ان الامويين قاوموا تلك العواطف لكنهم لم يفلحوا، على الرغم من ان دسائسهم ضد الحسن عليه السلام قد ظفرت بعض النجاح لانهم حاربوه بلباقة سياسية منقطعة النظير لكنها لم تنجح مع الحسين عليه السلام ومن العجب ان الهاشمين لم يقاوموا هذه الدسائس بل عدّوها من مفاخر الإمام الحسن عليه السلام ويؤكد ان الامويين لم ينجحوا في تشويه سمعة الحسين عليه السلام وبذلك يكشف واحدة مما اغفله التاريخ واغفله العقل الشيعي.

٤ ـ يشيد زكي مبارك بالمواقف الشجاعة لأتباع آل البيت أمام معاوية ويفسرها على ثلاثة افتراضات:

أ ـ ان تكون الروايات صحيحة وهي شاهد تاريخي على شجاعة التصوف في حب علي وآله عليهم السلام.

ب ـ ان تكون تلك الروايات من وضع العلويين لتقوية روح الانتماء (وهي صورة متخيلة من المحبة الصوفيه).

ت ـ ان تكون من وضع الامويين حتى يوصفوا برجاحة العقل عندما يتسامحون مع أتباع علي عليه السلام.

٥ ـ يؤكد مبارك انباء حديثة عن الكميت ان المستشرقين أحبوا شعره وطبعوا هاشمياته في ليدن ١٩٠٤، وكتب لها احدهم مقدمة وتصحيح

باللغة الالمانية. رغم أن الكميت، كان يصرّح ان الامويين - ملوك عصره قد انتهبوا الخلافة بغير حق وهي ميراث الرسول إلى آله ﷺ وليست الخلافة ولاية للحكم انما هي ميزان العدل، وخزان العلم، ورحبة السداد، وميراث النبوة، وأحد الثقلين.

٦ - ينتقد المازني من يرى ان بائية الكميت من أفضل قصائده وهو القول الراجح عند القدماء اما عنده فانه يرى ان اللامية أضخم وأفحل ويدلل على رأيه بعرض نقدي رائع في الصفحات ٩٣ وما بعدها من الكتاب.

٧ - لقد دافع زكي مبارك عن دعبل دفاعاً باسلاً، وتناول (اشهر قصائده واجدرها بالخلود وهي التائية ذات المطلع المفجع) فقد قال فلطالما كان اهل البيت يطربون لها ويرون فيها العزاء عما اصابهم، فلقد حدّث دعبل الناس ان اخبارها طارت إلى الجن.

٨ - وعن البردة للبوصيري المتوفي (٦٩٦ هـ) يقول زكي مبارك ان المزامنة بين مولد النبي ﷺ وانصداع ايوان كسرى، وانخماد نار المجوس وانحسار بحيرة ساوه التي غاضت والشهب التي انقضت فوق الاصنام (لم يعرف لها من التاريخ سند صحيح) ويعقّب بانه لا يعرف متى نشات هذه الاخبار، ويرى انها من وضع القصاصين ويورد مبارك انه لم تلق قصيدة تقبل عوام الناس والحفظ بقدر ما لقيت البردة للبويصري حتى لقد اضحت ورداً من الاوراد، نالت من اهتمام الناس وشروح الشراح ما فاق الوصف ووضعت لها الحواشي وخمسّت وشطّرت وسجعّت وعورضت كما حصل عند شوقي في (نهج البردة) وغيرها ممن جاراها.

ويتعرض زكي مبارك لبقية المدائح المتأخرة عن القرن الثامن الهجري بالعرض والنقد والتحليل ليصل إلى اخر فصول الكتاب المعنون قصة المولد النبوي الذي يقول فيه:

١ ـ أغلب الظن ان الاحتفال بالمولد نشأ في بلاد فارس فقد جاء في نفح الطيب عن ابن دحيه انه مر باربل سنة ٦٠٤ هـ وراى احتفال الناس بالمولد النبوي احتفالاً عاماً وبهياً وتلقى فيه المدائح.

٢ ـ ان وضع القصص الخيالية عن المولد من عمل الصوفية وأقدم من عرفهُ من أهل الذكر وقد ذكر زكي مبارك أن ممن الف في الموالد ابن الجوزي (٥٩٧).

٣ ـ «لابد من الاشارة إلى أن روح التشيع سرت إلى بعض من يقرأون قصة المولد النبوي بدون ان ينتبهوا إلى ذلك، فقد سمعت منهم قصائد في التفجع على الحسين» ويعقب بالقول «أن التصوف والتشيع يرجعان عند المسلين إلى اصل واحد».

واخيراً اقول ان قراءة هذا الكتّاب ليست فقط فرصة ممتعة غاية الامتاع، بل هي كاشفة عن الجذر العقائدي للكتّاب المصريين الذين ما نزع عن قلوبهم حب عترة النبي ﷺ رغم تقادم الأيام على انتهاء حكم الفاطميين وان ما فيه من إشارات ونقود وآراء وحفريات تاريخية فهي تثرى ثقافة المطلّع عليه اضافة إلى انه يصقل الذوق الادبي ويعمّق الذائقة الشعرية الهادفة والمسؤولة.

اسأل الله ان يجعل إعادة طباعة هذا الكتاب في سجل حسنات صاحب هذا المشروع الجميل، وان تتوفر الفرصة لعشاق الثقافة وطالبي المعرفة للتعرف على الامتاع والمؤانسة والتثقيف والمثاقفة لسيدنا: صاحب اعادة نشر الكتاب كل الدعوات الصالحات، ولذوقه الرفيع وعمق فكره الخلّاق اعجاب ابنائه وتلاميذه ورواده وعشاقه اطال الله عمره بصحة وعافيه، لكي يختار لنا كتاباً اخر لأعادة تشكيل العقل الإسلامي الحر المتنور الذي ينطلق من حب التراث مع الاصرار على أن نقده للتراث ليس الا تجسيداً لذلك الحب.

الاهـــــداء

إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ
مصطفى عبد الرازق

أهدى هذا الكتاب ، تحيةً لمودَّةٍ غاليةٍ دامتْ عشرين عامًا ، فلم يَزِدْها تقادُمُ العهدِ إلاّ قُوَّةً إلى قُوَّةٍ وصفاءً إلى صفاء ؟

المخلص

زكى مبارك

مصر الجديدة فى { ٢٧ رجب سنة ١٣٥٤ هـ
٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٥ م

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً .

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

باسمك اللهم أفتتح هذا الكتاب ، ومنك وحدك أنتظر حسن الجزاء .

أما بعد : فهذا كتاب لم يكن ظهوره فى الحسبان ، فهو فى الأصل باب من كتاب قدّمته إلى الجامعة المصرية عن «أثر التصوف فى الأدب والأخلاق» وألفتْ لدرسه لجنة مكونة من الدكتور منصور فهمى ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، ورأت هذه اللجنة أن الباب الخاص بالمدائح النبوية خليق بأن يظهر مستقلا عن الأصل بعض الاستقلال ، وكان هذا الاقتراح فرصة تلقفتها فى نشوة الجذلان ، لأنى كنت أشعر أن المدائح النبوية فى الأدب العربى تستأهل الظهور فى كتاب خاص .

ومن الخير أن أصارح القارئ بأن هذه الفصول نسخت نسخاً من الكتاب الأصيل ، فلم يحذف منها شئ ، ولم يضف إليها شئ ، لأنى قدمتها إلى المطبعة فى أيام كانت كلها شواغل ، ولأنى آثرت أن تظهر كما فاض بها القلب ، فلا يفسدها تأنق ، ولا يزوّرها تنميق .

والحق أنى لا أستطيع أبداً أن أكتب البحث الواحد مرتين ، لأنى أنتزع أدبى من ثورة العقل والقلب ، وقد درست نفسى مرات كثيرة : فرأيت السهم الأول أنفذ فى جميع الأحيان ، ورأيت معاودة الصقل والتهذيب ضربا من الزخرف لا تسيغه طبيعة فطرت على الثورة والاقتحام .

وإنى لأعترف بأنى مأخوذ بنشوة النصر وأنا أقدم هـذا الكتاب إلى القراء ، فما كنت أحسب أن الزمان سينصفنى هذا الانصاف : فأكون أوّل من يرسم خصائص المدائح النبوية فى الأدب العربى ، وهو موضوع كان يجب أن تعيَّن رسومه وحدوده منذ أزمان .

وقد تلقيت جزائى سلفاً على تحبير هذه الفصول ، فلن أنسى ما حييت تلك التحيات الطيبات التى تلقيتها من الدكتور منصور فهمى ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، ومن قبل هذا أنست بموضوع البحث ، فكان ذلك الأنس أفضل جزاء .

وأىّ أنس أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية التى بثها نَبىُّ الاسلام فى أرجاء الوجود ؟

إن ذلك الروح القهار ، روح الرجل الذى اتهمه معاصروه بالشعر والسحر والجنون ، إن ذلك الروح هو شعلة أبدية ستظل ما بقيت الأرض والسماء فتنة للعقول والقلوب ، وسيأتى زمان يرتاب فيه الناس فى مكانة محمد بن عبد الله من التاريخ ، وسيقول قوم إن شمائل ذلك الرجل أقوى وأخطر من أن يسمح بمثلها الوجود ، وسيقولون إنه لم يكن إلا رمزا تمثل به الناس كيف تكون مكارم الأخلاق .

إى والله ، سيقولون ذلك ، فلنسبقهم نحن بهذا القول مع الاعتراف بأنه عرف هذه الدنيا وشهد هذا الوجود ، وأىّ غرابة فى أن يخلق الله رجالا يمثلون العظمة الروحانية ، ويظلون على الدهر مضرب الأمثال ؟

وقد كان حظ النبي محمد أوفى الحظوظ بين الرسل والأنبياء ، فكل نبي قامت من حوله الأساطير ، وصُوِّرت شمائله بألوان صيغ أكثرها من الخيال ، أما النبي محمد فحجته الباقية هى القرآن ، وهو كتاب لم يضف إليه سطر واحد بعد موت ذلك الرسول ، فهو من الوثائق التاريخية التى يندر أن يكون لها مثيل .

وإلى من نوجّه هذا القول ؟

أتروننا ندافع عن ذلك الكتاب المجيد ؟

ومن عسى أن يكون أعداء ذلك الكتاب ؟

وهل كان الملحدون إلا ناسا سخفاء طاشت حلومهم ، وظنوا الزيغ من البراقع التي تستر الغباوة والجهل ؟

ومن العجب أن نرى بين أعداء القرآن من يُعجَب بشعر أبى نواس ، ويراه صالحا لأن يوضع فى الميزان مع أكبر شعراء اليونان .

فأين شعر أبى نواس كله من آية واحدة ستظل أعجوبة البيان ، فى جميع الأزمان ؟

وما أدرى والله كيف يعقل من يهذى بمثل هذا القول ، إلا أن يكون السخف صار من علائم التفوّق فى هذا الزمن الرقيع !

إن أعداء القرآن لايعادونه عن عقل ، وكيف يعقل من يعادى البدر المشرق ، والجبل الركين ؟ إنها نزوات تطوف برؤوس المرورين الجبناء الذين توهموا أنه لم يبق للاسلام أوس ولا خزرج ، وأن الوادى خلا من الأسد الغضاب ، ألا ساء مايتوهمون .

ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهبين ، وإن بقيت لهم ذكرى فستكون صورة من صور إبليس ، فان تعللوا بأن الشهرة مغنم عظيم فليتذكروا أن إبليس سيظل أشهر منهم ، وإن قضوا طوال الأعمار فى خدمة الإفك والضلال .

سيقول السفهاء من الناس : وما دخل هذا الكلام فى مقدمة كتاب المدائح النبوية ؟

ونجيب بأننا نصوّر حالة من أحوال هذا الزمان ، فنحن لم نخلق أعداء نحاربهم ، وإنما نحارب أعداء نراهم رأى العين ، وهم ـ والله ـ أحقر من أن نعرض لهم بنقد أو ملام ، ولكن حقارتهم لاتمنع المؤمن من وخز صدورهم بلواذع الهجاء ، فقديما كان الشيطان الرجيم ملعونا بألسنة المؤمنين .

وما الذى يمنع من حرب الزور والبهتان ؟

إن التورع عن لحوم الآثمين ليس إلا ضربا من الجبن ، وبفضله استنسر البغاث ، وصار للآثمين أشياع وأحزاب .

ومن العجب فى مصر بلد العجائب : أن تحيا الغيرة على الأطلال ، وتموت الغيرة على الحقائق ، فلو انتهب حجر من

أحجار الكرنك لكان انتهابه نكبة وطنية ، وكان الصراخ لضياعه عملا يثاب عليه من يحسن البكاء والعويل .

أما زعزعة الإيمان فى هذا البلد ، فهى أقلّ خطراً من سقوط حجر أثرىّ تحرسه وزارة الأشغال ، لأن رعاية الآثار بدعة عصرية يعرفها الأوربيون ، والامريكان ، أما رعاية العقائد فسنة قديمة سحب عليها الدهر ذيل النسيان .

وما أقول هذا تعصبا للدين ـ وهو تعصب شريف ـ وإنما أقوله تعصبا لحقيقة أدبية تغار عليها الأذواق ، فليست الثقافة أن نعرف أوهام المشرق والمغرب ، وإنما الثقافة أن نعرف مايجب أن يعرف ، وقد آن أن يفهم الغافلون أن الأمة التى يحفظ أطفالها القرآن : هى أهدى من أمثال الأمة التى يحفظ أطفالها أقاصيص لافونتين .

وما أقول هذه الحقيقة وحدى ، وإنما يعرفها خلق كثير لايصدهم عن الجهر بها إلا الخوف من الاتهام بالتعصب والرجعية ، وهو اتهام لا أقيم له أىّ وزن ، لأن حزب الشيطان أضعف من أن يحسب له حساب

وقرائى من غير المسلمين لا يسيئهم هذا القول ، فليس القرآن ملكا للمسلمين ، وإنما هو ملك للانسانية جمعاء ، وكذلك كانت التوراة وكان الانجيل ، وهل كانت الشرائع إلا موارد يفزع إليها الظماء فى عالمَ العقول ، والقلوب ، والأذواق ؟

ونعود إلى موضوع الكتاب ، فنقول :

كانت المدائح النبوية أول الأمر نوعاً من المدائح التى تجرى على الطرائق الجاهلية ، وقد فصلنا ذلك فى الفصل الأوّل من الكتاب ، فعرضنا لدالية الأعشى ، ولامية كعب ، وقصائد حسان ، ثم تكلمنا عما وقع فى خطب على بن أبى طالب من المدائح ، وبيّنا كيف نشأ مدح أهل البيت ؛ وكيف ترعرع هذا الفن فى البيئات الاسلامية ، ثم خصصنا الكميت بدراسة وافية ، وهو شاعر فحل شرع للشيعة مذاهب القول ، وعلمهم أساليب الجدل والحجاج ، وأتبعنا ذلك بفصل عن دعبل ، وهو شاعر خبيث اللسان ، ولكنه ترك لنا تائية قليلة النظائر والأمثال ، ومضينا إلى قصائد الشريف الرضى فى صريع كربلاء ، وقصائد مهيار فى أهل البيت ، فأعطينا القارئ فرصة يتعرف

فيها إلى طوائف من النوازع الروحية ، قلّ من اهتم بها من الباحثين .

فلما وصلنا إلى البوصيرى ، وقفنا على آثاره وقفة طويلة ، وحدثنا القارئ عما عنده من ضروب السحر والفتون ، ثم تكلمنا عن أثر البردة فى اللغة العربية ، وأرينا القارئ كيف انتهى فن المدائح النبوية إلى فن أدبى رفيع ، هو فن البديعيات ، الذى أذاع فى الناس ألواناً من الثقافة الأدبية ، وساقنا ذلك إلى التحدث عن رجل شهير بين أصحاب البديعيات : هو ابن حِجة الحموى الذى أذاع أدب مصر والشام فى القرن الثامن .

ثم تكلمنا عن المدائح النبوية : فى شعر ابن نباتة المصرى ، وختمنا الكتاب بالكلام عن قصة المولد النبوى .

ذلك موضوع الكتاب الذى نقدمه إلى القراء فرحين مغتبطين ، وليس فيه بحمد الله مانعتذر عنه إلا الايجاز ، وهو عذر يقبله القارئ حين يتذكر أنه كان فى الأصل باباً من كتاب .

ولنسارع فنحدث القارئ بأننا لم نرد الاستقصاء ، وإنما

اكتفينا بالكلام عن آثار الشعراء الفحول ، ولو أردنا التحدث عن هذا الفن من جميع نواحيه لساقنا البحث إلى الكلام عن ناس لم يكن لهم من الذوق الأدبي خلاق .

والله نسأل أن يتقبل هذا البحث الذى لم نرد به حين أنشأناه غير وجهه الكريم ؟

محمد زكى عبد السلام مبارك

الفصل الأول

نشأة المدائح النبوية

الفرق بين المدح والرثاء — دالية الأعشى — لامية كعب ابن زهير — مدائح حسان — مدائح علي بن أبي طالب — ميمية الفرزدق — مدح أهل البيت — النسيب في صدور المدائح النبوية .

١ — المدائح النبوية من فنون الشعر التى أذاعها التصوف ، فهى لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع : لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والاخلاص .

وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول . وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء ، ولكنه فى الرسول يسمى مدحاً ، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة ، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء . وقد يمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاء إلا إذا قيل فى أعقاب الموت ، ولذلك نراهم يقولون : (قال حسان يرثى النبي صلى الله عليه وسلم) ليفرقوا بين حالين من الثناء : ما كان فى حياة الرسول ، وما كان بعد موت الرسول ، بخلاف مايقع من شاعر ولد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فان ثناءه عليه مديح لا رثاء ، لأنه لا موجب للتفرقة بين حال وحال ، ولأن الرثاء يُقصَد به إعلان التحزن والتفجع ، على حين لا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب الى الله بنشر محاسن الدين ، والثناء على شمائل الرسول .

٢ — ولم يُمنَ أحد من القدماء أو المحدثين بتأريخ هـذا الفن فى اللغة العربية ، لأن الذين أجادوه لم يكونوا فى الأغلب من فحول الشعراء ، ولأنه لم يطَّرد فى التاريخ ، ولم يكن فنا ظاهراً بين الفنون الشعرية ، كالرثاء ، والوصف ، والنسيب ، وإنما هو فنٌّ نشأ فى البيئات الصوفية ، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل ، غير أنه مع ذلك جدير بالدرس ، لأن فيه بدائع من القصائد والمقطوعات ، ولأن له شمائل غير شمائل المديح ، ولأن لأصحابه غايات دينية وأدبية خليقة بأن تدرس ، وبأن يرفع عنها إصر الخمول .

وسنحاول فى هذا الكتاب تأريخ هذا الفن من بدء ظهوره إلى اليوم ، والاشادة بالشخصيات القوية التى نشرت أعلامه فى تاريخ اللغة العربية ، وتحليل القصائد التى أثرت فى البيئات الشعبية ، والكشف عما فى آثار هذا الفن من الألفاظ والتعابير والمصطلحات . ولسنا نزعم أننا سنستقصى كل ما يتصل بهذا الفن ، فذلك يحتاج إلى مجلدات . وإنما نرجو أن نشعر القارئ بأنا كشفنا النقاب عن فن مجهول كان خليقاً بأن يشغل الباحثين فى تاريخ الأدب ، ولكنهم انصرفوا عنه ، كما انصرفوا عن درس البلاغة الدينية ، مع أنه فى جملته أجود من بعض ما شُغلوا به كتشبيهات ابن المعتز ومدائح البحترى وخمريات أبى نواس .

٣ — من أقدم ما مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة الأعشى التى يقول فى مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا (١)

وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا (٢)

---

(١) السليم : هو الملدوغ ، وإنما سمى بذلك تفاؤلا له بالسلامة كما سميت الصحراء مفازة .

(٢) مهدد : من أسماء النساء ، والخلة بالضم : المودة والحب .

وَلٰكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَائِنٌ ... إِذَا أَصْلَحَتْ كَفَّاهُ عَادَ فَأَفْسَدَا
كُهُولاً وَشُبَّانًا فَقَدْتُ وَثَرْوَةً ... فَلِلّٰهِ هٰذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا
وَمَا زِلْتُ أَبْغِي المَالَ مُذْ أَنَا يَافِعٌ ... وَلِيدًا وَكَهْلاً حِينَ شِبْتُ وَأَمْرَدَا

وفيها يقول لناقته :

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ... وَلاَ مِنْ حَفًى حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدَا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلاَدِ وَأَنْجَدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تغِبُّ وَنَائِلٌ ... وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعَهُ غَدَا
مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ ... تُرَاحِي وَتَلْقَيْ مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَى

ولكن هـذا ليس من المدائح النبوية : أى ليس من الفن الذى ندرسه فى هذا الكتاب ، لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية فى مدح الرسول ، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الاسلام ، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفتـه قريش ، ولو كان صادقاً ما تحول : فقد حدثوا أن قريشاً رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد ؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم ، فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر ، فقال : لقد تركنى الزنا وما تركته ، وأبدى زهادته فى القمار ، رجاء أن يصيب من النبي عوضاً منه ، وقال عن الربا : ما دنت ولا ادَّنت .

وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال : أوَّه ! أرجع إلى صُبابة قد بقيت لى فى المِهراس فأشربها .

فقال له أبو سفيان : هل لك فى خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن الآن فى هدنة فتأخذ مائة من الابل وترجع إلى بلدك سنتك هذه ، وتنظر

ما يصير إليه أمرنا ، فان ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً ، وإن ظهر علينا أتيته ، فقال : ما أكره ذلك !

وجمع له أبو سفيان من قريش مائة ناقة ، فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع منفوخة [١] رمى به بعيره فقتله [٢] .

وهذه القصة تدل على أن مدحه للرسول لم يكن إلا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يتكسبون بالمديح ، وليست قصيدته أثراً لعاطفة دينية قوية حتى تلحق بالمدائح النبوية .

٤ — وكذلك الحال فى قصيدة (بانت سعاد) التى قالها كعب بن زهير فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانها لم تنظم إلا فى سبيل النجاة من القتل . وحديث ذلك أن كعباً خرج هو وأخوه بجير إلى رسول الله حتى بلغا أبرق العزّاف [٣] ، فقال كعب لبجير : الحق الرجل ، وأنا مقيم ههنا ، فانظر ما يقول لك ؟ فقدم بجير على رسول الله فسمع منه وأسلم ، وبلغ ذلك كعباً فقال :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى بُجَيْرًا رِسَالَةً ... فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَا
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَّةً ... فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَا [٤]
وَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتَّبَعْتَهُ ... عَلَى أَىِّ شَىْءٍ وَيْبَ غَيْرِكَ دَلَّكَا [٥]

(١) قرية باليمامة . (٢) راجع مهذب الأغانى ج ١ ص ١٦٣ .

(٣) أبرق العزاف : ماء لبنى أسد بن خزيمة ، وهو فى طريق القاصد إلى المدينة من البصرة . قالوا : وإنما سمى العزاف لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن .

(٤) المأمون هو النبي . والشاعر يتهكم ، والنهل بالتحريك : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى

(٥) ويب كويل . تقول : ويبك وويب لك ، وويب لزيد ، وويباً له ، وويب غيره . ومعنى الكل : ألزمه الله ويلا (القاموس المحيط) .

عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمًّا وَلاَ أَبًا عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخًا لَكَا
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِآسِفٍ وَلاَ قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَعاً لَكَا[1]

وبعث بها إلى بجير، فكره أن يكتمها رسول الله، فأنشده إياها، ثم قال بُجَيْرٌ لكعب:

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْباً فَهَلْ لَكَ فِى الَّتِى تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلاً وَهِىَ أَحْزَمُ
إِلَى اللّهِ لاَ الْعُزَّى وَلاَاللاَّتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاةُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لاَ يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدِينُ زُهَيْرٍ وَهْوَ لاَ شَىْءَ دِينُهُ وَدِينُ أَبِى سُلْمَى عَلَىَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعباً الكتابُ ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوّه، فقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شىء بدّا قال قصيدته التى يمدح فيها الرسول، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة، فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح، فصلى معه، ثم أشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا رسول الله، قم إليه فاستأمنه. فقام حتى جلس إليه فوضع يده فى يده، وكان رسول الله لا يعرفه، فقال: يا رسول الله! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله: نعم! فقال: أنا، يا رسول الله، كعب بن زهير! ثم أنشده القصيدة[2].

---

(١) لعاً لك: دعاء بالانتعاش، قال الأعشى:

بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أدنى لها من أن أقول لعاً

(٢) انظر مهذب الأغانى ج ١ ص ١٦٤.

وهذه الظروف ترينا أن كعب بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بعاطفة دينية قوية ، تسمو به إلى روح التصوف ، إنما هى قصيدة من قصائد المديح ، يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف ، وليست من المدائح النبوية فى شىء .

٥ — تقع لامية كعب فى ثمانية وخمسين بيتاً ، وهى من الشعر المحكم الرصين — وإن خلت من قوة الروح — وتجرى على التقاليد الأدبية لشعراء الجاهلية ، فيبدؤها الشاعر بهذا النسيب :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... لَا يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْهَا وَلَا طُولُ
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ (١)
أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ ... مَوْعُودَهَا أَوْ لَوَ انَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
لَٰكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا ... فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ (٢)
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا ... كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
وَلَا تَمَسَّكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمَتْ ... إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ
فَلَا يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ ... إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا ... وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ

---

(١) الظلم كأنه ظلمة تركب متون الأسنان من شدة الصفاء ، والنهل بالتحريك : الشرب الأوّل والعلل الشرب الثانى .

(٢) سيط : مزج .

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لاَ يُبَلِّغُهَا ⠀⠀ إِلاَّ الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ (١)

وهنا ينتقل فيصف الناقة وصفاً مفصلا يذكّر بدالية طرفة بن العبد ، وهو فى ذلك يتابع ما كان معروفاً لذلك العهد من التقاليد الشعرية ، إلى أن يقول فى مدح الرسول :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ ⠀⠀ لاَ أُلْهِيَنَّكَ إِنِّى عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِى لاَ أَبَا لَكُمُ ⠀⠀ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَٰنُ مَفْعُولُ (٢)
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ ⠀⠀ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِى ⠀⠀ وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِى أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ ⠀⠀ ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لاَ تَأْخُذَنِّى بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ⠀⠀ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِىَّ الْأَقَاوِيلُ

ويقول بعد أبيات :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ⠀⠀ وَصَارِمٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِى عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ⠀⠀ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلاَ كُشُفٌ ⠀⠀ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيلُ (٣)
شُمُّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ⠀⠀ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ (٤)

---

(١) العتاق : النوق النجيبة ، والمراسيل جمع مرسال ، وهى الناقة السهلة السير .
(٢) لا أبا لك ، ولا أبا نغيرك ، ولا أبا لشانئك ، يقولونه فى الحث ، حتى أمر بعضهم لجفائه بقوله :
* أمطر علينا الغيث لا أبا لكا * ويقال : لعمر أبيك ، ولعمر أبى سواك (راجع أساس البلاغة)
(٣) الميل : جمع أميل ، وهو من يميل على السرج والجبان ، والمعازيل جمع معزال ، وهو من لارمح معه .
(٤) العرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف .

لاَ يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمُ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ (١)
لاَ يَقَعُ الطَّعْنُ إِلاَّ فِي نُحُورِهِمُ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وقد نظرت طويلا فى هذه القصيدة فلم أر غير ما قررت ، فهى قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك ، ولـكنها تكاد تخلو من روح الدين ، ولا غرابة فى ذلك ، فان كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت ، ومن كان فى مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء

٦ — والذى نقول به فى هـذه القصيدة لم يقل به أحـد من المتقدمين ، فقد اهتموا بها اهتماماً عظيما ، وعدوها من أجلّ ما قيـل فى مدح الرسول ، وعُنِىَ بها الشعراء فشطّروها وخمسوها وعارضوها ، وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال :

فمن الذين شطّروها عبد القادر سعيد الرافعى ، وأول تشطيره :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ وَالنَّوْمُ وَالسُّهْدُ مَقْطُوعٌ وَمَوْصُولُ
وَالْجِسْمُ بَعْدَ سُعَادٍ مُدْنَفٌ وَصِبٌ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ومن الذين خمسوها شعبان بن محمد بن داود المصرى المتوفى سنة ٨٢٨ وله ثلاثة تخاميس ، مطلع التخميس الثانى :

---

(١) التعريد : الهرب . قال الزمخشرى فى الأساس (وسمعت فى طريق مكة صبيا من العرب يقول وقد انتحى عليه بعير : ضربته فعرد عنى ، وعرد النجم : غار ، قال حاتم .
وعاذلة هبت بليـل تلومنى وقد غاب عيوق السماء وعردا
وعرد الماء : قلص . قال رؤبة : * ومنهل معرّد الجمام *

قل للعواذل مهما شئتمو قولوا فليس لى بعد من أهواه معقول
ناديت يوم النوى والدمع مسبول
بانت سعاد . . .

وأحمد بن محمد الجرجاوى . ومطلع تخميسه :

قَلْبِي عَلَى حُبِّ مَنْ أَهْوَاهُ مَجْبُولُ وَنَقْلُ شَوْقِي لَدَى الْمُشَّاقِ مَقْبُولُ (١)

ومن الذين شرحوها مسعود بن حسن بكرى القنائى ، واسم شرحه (الاسعاد ، لحل نظم بانت سعاد) ومحمد صالح السباعى، واسم شرحه (بلوغ المراد ، على بانت سعاد) وأحمد بن محمد اليمنى، واسم شرحه (الجوهر الوقاد ، فى شرح بانت سعاد) وابن هشام الأنصارى ، وقد رأينا شرحه يدرس فى الأزهر غير مرة ، فقد صيّر (بانت سعاد) مادة صالحة للفوائد اللغوية والنحوية . واعتمد الناصرى على هذا الشرح . وشرحها عطاء الله بن أحمد مرتين ، اسم الشرح الأول (حسن السير ، بقصيدة كعب بن زهير) واسم الثانى (طريق الرشاد ، إلى تحقيق بانت سعاد) وعلى بن سلطان الهروى ، واسم شرحه (فتح باب الاسعاد ، فى شرح بانت سعاد) ومحمد حسن المرصفى واسم شرحه (القول المراد ، من بانت سعاد) وجمال الدين السيوطى، واسم شرحه (كنه المراد ، فى شرح بانت سعاد)

ومن الذين عارضوها ابن نباتة المصرى ، ومطلع قصيدته :

مَا الطَّرْفُ بَعْدَكُمُ بِالنَّوْمِ مَكْحُولُ هٰذَا وَكَمْ بَيْنَنَا مِنْ رَبْعِكُمْ مِيلُ

وابن سيد الناس اليعمرى ، واسم قصيدته (عُدة المعاد ، فى عروض بانت سعاد) والمطلع :

(١) وفى دار الكتب المصرية : تخميس مشروح لم يعرف مؤلفه (رقم ١٥٦٥ أدب) .

قَلْبِي بِكُمْ يَا أُهَيْلَ الحَيِّ مَأْهُولُ   وَحَبْلُهُ بِأَمَانِي الْوَصْلِ مَوْصُولُ

وعارضها أبو حيان الأندلسى بقصيدة سماها (المورد العذب ، فى معارضة قصيدة كعب) والمطلع :

لاَ تَعْذُلاَهُ فَمَا ذُو الحُبِّ مَعْذُولُ   الْعَقْلُ مُخْتَبَلٌ وَالْقَلْبُ مَتْبُولُ

وعارضها أيضاً القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، ثم قال :

لَقَدْ قَالَ كَعْبٌ فِى النَّبِيِّ قَصِيدَةً   وَقُلْنَا عَسَى فِى مَدْحِهِ نَتَشَارَكُ

فَإِنْ شَمِلَتْنَا بِالْجَوَائِزِ رَحْمَــةٌ   كَرَحْمَةِ كَعْبٍ فَهْوَ كَعْبٌ مُبَارَكُ

وتوارث المسلمون احترام قصيدة كعب ، حتى قال أبو جعفر الألبرى « حدثنى بعض أشياخنا بالاسكندرية باسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب ، فقيل له فى ذلك ، فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : يا رسول الله قصيدة كعب انشدها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها وأحب من أحبها . قال : فعاهدت الله أننى لا أخلو من قراءتها كل يوم » .

قال أبو جعفر : « ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها، ويقتدون بأقوالها، تبركا بمن أنشدت بين يديه، ونسب مدحها إليه(١) » .

واهتم بها المستشرقون ، فترجمها رنيه باسيه إلى الفرنسية ، واهتم الدكتور ر . و بترجمة حاشية الباجورى إلى الفرنسية . وكذلك شغلت الشراح والناسخين والطابعين فى الشرق والغرب .

ويمكن الحكم بأن شهرتها فى البيئات الأدبية والدينية نقشت اسمها فى ذهن كل من شدا فى الأدب والدين .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٩٣٢ طبع ليدن

ومن الواضح أن تلك الرؤيا النبوية لا تدل على شيء أكثر من اهتمام المتصوفين بتلك القصيدة ، وإيمانهم بأنها ظفرت من الرسول بأحسن القبول .

وجملة ما كتب فى شرح قصيدة كعب ، وما قيل فى تشطيرها وتخميسها ، يبين أثرها فى اللغة والأدب ، ولولا ما فى ألفاظها من الوعورة لشاعت فى البيئات الصوفية ، وأصبحت من جملة الأوراد ، وكان لها ما صار للبردة من السيرورة بين العوام والخواص .

ومن أسباب وقوفها عند الدوائر الأدبية واللغوية ما جاء فيها من الوصف المطول للناقة ، فانه من المعانى « المحلية » التى لا يتذوقها غير الأعراب .

٧ — ويأتى بعد شعر الأعشى وشعر كعب شعرُ حسان بن ثابت ، وهذا الرجل كان أكبر شعراء الرسول ، ويمتاز بالصدق والاخلاص ، ولكن شعره على قوة روحه لا يكاد يضاف إلى المدائح النبوية التى ندرسها فى هذا الكتاب، فقد كان يمدح الرسول ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية ، وكان الرسول أوصاه أن يتعلم الأنساب من أبى بكر ليكون شعره أوجع فى الهجاء ، وكذلك استطاع بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاء موجعاً كان النبى يراه أشد عليهم من وقع النَّبل .

وأقوى قصيدة فى مدائح حسان هى العينية ، والظرف الذى قيلت فيه يعيّن مذهب الشاعر : فهو يقارع الخصوم ويلاحيهم ، ويتخذ مدح الرسول ومدح أهله سناداً لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة . ومن حديث هذه العينية أن وفد تميم لما قدموا على النبى قالوا: جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، وقام خطيب الرسول ثابت بن قيس فأجاب ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نَحْنُ الْـكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا يُقْسَمُ الرُّبُعُ(١)
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ(٢)
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مَطْعَمَنَا ... مِنَ الشِّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنِسِ الْقَزَعُ(٣)
ثُمَّ تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتُهُمُ ... مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ نَصْطَنِعُ
فَنَنْحَرُ الْـكُومَ عَبْطاً فِى أَرُومَتِنَا ... لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبِعُوا(٤)
فَلاَ تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نُفَاخِرُهُمْ ... إِلاَّ اسْتَقَادُوا وَكَانَ الرَّأْسُ يُقْتَطَعُ(٥)
إِنَّا أَبَيْنَا وَلاَ يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ ... إِنَّا كَذَٰلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ
فَمَنْ يُقَادِرُنَا فِى ذَاكَ يَعْرِفُنَا ... فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ

فقام حسان فقال :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الْإِلٰهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِى شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِى أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إِنَّ الْخَلاَئِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ
لاَ يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلاَ يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ كَانَ فِى النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
وَلاَ يَضِنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمُ ... وَلاَ يُصِيبُهُمُ فِى مَطْمَعٍ طَبَعُ

---

(١) الربع : ويقال أيضاً المرباع . يراد به ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس دون أصحابه ممن يكسبون الحرب.
(٢) قسرنا : قهرنا ، والنهاب جمع نهب ، وهو الغنيمة .
(٣) القزع : الغيم .
(٤) الـكوم: جمع كوماء ، وهى الناقة الضخمة السنام ، والنحر عبطا هو النحر من غير علة ، والأرومة: الأصل .
(٥) استقادوا : أعطوا مقادتهم وخضعوا .

لاَ يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ ... فى فَضْلِ أَحْلاَمِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فى الْوَحْىِ عِفَّتُهُمْ ... لاَ يَطْبَعُونَ وَلاَ يُرْدِيهِمُ الطَّمَعُ(١)
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ ... وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا(٢)
أَعْطَوْا نَبِىَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُمْ ... فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجَدُّوا السَّيْرَ جُهْدَهُمُ ... أَوْ قَالَ عُوجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا(٣)
مَا زَالَ سَيْرُهُمُ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهُمْ ... أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ الْبِيَعُ
خُذْ مِنْهُمُ ما أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا ... وَلاَ يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِى مَنَعُوا
فَإِنَّ فى حَرْبِهِمْ ـ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ ـ ... شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلَعُ(٤)
نَسْمُو إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا ... إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا
لاَ فَخْرَ إِنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمُ ... وَإِنْ أُصِيبُوا فَلاَ خُورٌ وَلاَ جُزُعُ
كَأَنَّهُمْ فى الْوَغَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبِيشَةَ فى أَرْسَاغِهَا فَدَعُ(٥)
إِذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لاَ نَدِبُّ لَهُمْ ... كَمَا يَدِبُّ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الذَّرَعُ(٦)
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شِيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدَحِى قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فِيمَا يُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا(٧)

وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول ، والشاعر مدفوع اليها بقوة العصبية ، وليس فيها من روح الدين إلا إشارته إلى وحى القلب ، إذ يقول :

---

(١) لايطبعون : من الطبع بالتحريك . وهو دنس الأخلاق . (٢) من الجدع : وهو القطع .
(٣) ربعوا : أقاموا . (٤) الصاب والسلع من الأشجار المرة المذاق .
(٥) مكتنع : قريب ، والفدع بالتحريك : الميل .
(٦) الذرع : ولد البقرة الوحشية . (٧) شمعوا : مزحوا .

أَهْدَى لَهُمْ مِدَحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ   فِيمَا يُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

٨ — ومن جيّد شعر حسان قصيدته الهمزية فى مدح الرسول وهجاء أبى سفيان ، وهى كذلك تجرى على الطرائق الجاهلية ، يبدؤها الشاعر بذكرى الديار الخالية ، فيقول :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ   إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ (١)

دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ   تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ (٢)

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ   خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

وينتقل إلى الحديث عن طيف محبوبته ، فيقول :

فَدَعْ هٰذَا وَلٰكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ   يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ

لِشَعْثَاءَ الَّتِي قَدْ تَيَّمَتْهُ   فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ (٣)

عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمَ غَضٍّ   مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ

إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا   فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ

نُوَلِّيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا   إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ (٤)

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا   وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ (٥)

---

(١) ذات الأصابع ، والجواء : وعذراء ، أسماء مواضع بالشام .

(٢) الروامس : الرياح التى تثير التراب فتطمس به الآثار .

(٣) السبيئة : الخمر ، وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

(٤) ألام الرجل : فعل مايلام عليه ، والمغث : القتال ، واللحاء : السباب .

(٥) نهنهه اللقاء : أخافه ، والنهنهة فى الأصل : الزجر .

وهذا الاستطراد من النسيب إلى الخمريات كان معروفاً فى الجاهلية ، وقد وقع مثله فى لامية كعب التى مدح بها الرسول ، ولنا أن نلاحظ أن هذين الشاعرين لم يغيرا شيئاً من المذاهب الشعرية حين خاطبا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتورعا عن ذكر الخمر والنساء ، والتحسر على ملاعب الشباب .

وليس هذا بغريب ، فان المذاهب الأدبية لا تتغير فى عام أو عامين ، ومن الاسراف أن ننتظر ذلك ، فسنرى حين يمتد بنا البحث أن الكلام عن الخمر والنساء سيصير من المألوف فى المدائح النبوية ، غير أنه كان عند هذين الشاعرين من الحقائق ، وسيصير عند المتأخرين من الرمزيات ، فشعثاء وسعاد فى همزية حسان ولامية كعب حسناوان كان لهما وجود ، والخمر كانت مما عرف هذان الشاعران ، ولو فى الجاهلية ، أما عند المتأخرين من شعراء الصوفية فليلى أو شعثاء أو سعاد ، والصهباء أو الشمول ، كل أولئك من الأسماء الرمزية ، وأثر الحقيقة هنا ليس أقوى من أثر الخيال هناك .

وانتقل حسان إلى تهديد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كُدَاء[1]

يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاء[2]

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاء[3]

فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاء

وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاء[4]

---

(١) كداء : الثنية العليا بمكة . (٢) الأسل : الرماح .

(٣) متمطرات : مسرعات . الخمر : جمع خمار . (٤) الجلاد : القتال .

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ ... فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ(١)
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ(٢)
أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ(٣)
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ(٤)
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وهنا تظهر بوادر التصوف ، فالشاعر كان ينتظر الجزاء من الله حين أجاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعل أباه وجدّه وعرضه وقاء لعرض النبي من خصومه الألداء ، وكذلك يمكن عدُّ هذه القصيدة من بذور المدائح النبوية .

(١) عرضتها اللقاء : أي همتها وغايتها مقاتلة الأعداء .
(٢) نحكم : من الإحكام ، وهو المنع ، قال جرير :
أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكمو أن أغضبا
(٣) المغلغلة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد ، وبرح الخفاء : أي ظهر الأمر وانكشف .
(٤) عبد الدار : بطن من قريش .

٩ — وفى ديوان حسان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ، ومولى أبى بكر عامر بن فُهيرة ، ودليلهم الليثى عبد الله بن الأريقط مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة بَرْزة [١] تحتبى بفِناء قبتها ، ثم تسق وتطعم فسألوها تمراً ولحماً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مرملين مسنتين [٢] فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى كسر الخيمة فقال : ماهذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت شاة خلفها الجَهد عن الغنم . قال : هل لها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك . قال : أتأذنين لى أن أحلِبها ؟ قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ، ودعا لها فى شأنها فتفاجّت [٣] عليه ، ودرت واجترت ، ودعا باناء يُربض الرهط فحلب فيه حتى علاه البهاء [٤] ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، ثم أراضوا [٥] ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى امتلأ الاناء ثم غادره عندها ، وارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً ، تَساوك [٦] هزالا ، مِخاخهن قليل ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب ! وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد ، والشاء عازب حيال [٧] ، ولا حلوب

(١) البرزة : المرأة الكهلة التى تبرز للناس ولا تحتجب احتجاب الشوابّ .

(٢) المرمل : الفقير الذى نفد زاده ، والمسنت : الذى أصابته السنة : أى القحط والجدب ، ومنه قول ابن الزبعرى :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

(٣) تفاجت : أفرجت مابين رجليها وسكنت . (٤) البهاء : بريق الرغوة .

(٥) أراضوا : كرروا الشرب حتى رووا . (٦) تساوك : تمشى مشياً ضعيفاً .

(٧) الحيال جمع حائل ، وهى التى لم تحمل ، والعازب : البعيدة المرعى .

فى البيت ؟ قالت : لا والله ، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا قال : صفيه لى يا أم معبد . قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجلة [1]، ولم تزر به صعلة [2] ، وسيماً قسيماً ، فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف [3] ، وفى عنقه سَطَع [4] ، وفى صوته صحل [5] وفى لحيته كثاثة ، أزجّ ، أقرن [6] إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأملحهم من قريب ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هزر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة : لا بأْن من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مُفْنِد [7] .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذُكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت بأن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا . فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ، ولا يدرون من صاحبه ، وهو يقول :

جَزَى ٱللّٰهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ قالاَ خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاَهَا بِٱلْهُدَى وَٱهْتَدَتْ بِهِ ... فَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالَقُصَىٍّ مَا زَوَى ٱللّٰهُ عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فَخَارٍ لاَ يُبَارَى وَسُؤْدَدِ
لِيَهْنِ بَنِى كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

---

(١) الثجلة : عظم البطن واسترخاؤه . (٢) الصعلة : صغر الرأس .
(٣) الوطف : طول أشفار العين . (٤) السطع : الطول .
(٥) الصحل : رقة الصوت . (٦) الزجج دقة شعر الحاجبين ، والقرن وصل مابينهما .
(٧) المفند : الذى تقلّ الفائدة فى كلامه .

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمُ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ ... لَهُ بِصَرِيحٍ دَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[1]
فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ ... يُرَدِّدُهَا فِى مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

فلما سمع بذلك حسان قال يجاوب الهاتف :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِى إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِى
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ ... وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعِ الْحَقَّ يَرْشَدِ
وَهَلْ يَسْتَوِى ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا ... عَمًى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ ... رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدِ
نَبِىٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ... وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِى كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنْ قَالَ فِى يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ ... فَتَصْدِيقُهَا فِى الْيَوْمِ أَوْ فِى ضُحَى الْغَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ ... بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ

وقد نقلنا قصة أم معبد، وشعر حسان، وشعر الهاتف : لأن لهذه القطع الثلاث أثراً فى تلوين المدائح النبوية ، وحديث أم معبد معروف ، وقد أشار إليه القاضى عياض فى الشفاء[2] ، وهو ـ إن صحت نسبته إلى ذلك العهد ـ أساس لأكثر ماجاء فى المدائح النبوية من الأوصاف الحسية ، فسنرى فى « الموالد » كيف يوصف الرسول بأنه أبلج الوجه ، أدعج العينين ، أزج الحاجبين ،

---

(١) الحائل : هى التى لم تحمل . (٢) الشفاء ص ٥٠ .

إلى آخر ما قيل فيه من شائق الصفات . وحسان بن ثابت نفسه يصفه بالحسن والجمال فيقول :

وَأَحْسَن مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَأَجْمَل مِنْكَ لَمْ تَلِد النِّسَاء

والاشادة بجمال النبي وحسنه ليست من الفضول ، كما يتوهم بعض الناس ، فان فن المديح يوجب هذا اللون من الوصف ، وقد عرض الصفَدى فى شرح لامية العجم إلى هذه المسألة فقال : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح ، وذلك مشهور لايحتاج إلى شاهد يؤيده »(١) .

يضاف إلى ذلك أن أصحاب رسول الله درجوا على وصف ملامحه الجسمية ، ولذلك مواطن فى كتب الحديث ، وهو نفسه كان جميلا ، والأنبياء فى الغالب كانوا من أهل الجمال ، لأن الدعوة إلى الحق تحتاج إلى شفيع من الوجه المقبول .

وما نحب أن يغلب علينا التزمُّت فيفوتنا النص على أثر الصنعة فى حديث أم معبد ، فالقصة تبدو لنا كالمصنوعة ، وهى على كل حال شاهد على ما كان يحب القدماء أن يوصف به الرسول ، وشعر الهاتف كذلك مصنوع ، وهو مع أبيات حسان من طلائع المدائح النبوية .

١٠ — ويظهر الروح الدينى فى مدائح حسان لمن يقرأ مراثيه للرسول ، وهى مراثٍ مصبوغة بالصبغة الدينية ، يتكلم فيها الشاعر عن المنبر والمصلَّى والمسجد والوحى ، ويذكر بكاء الأرض والسموات ، ويتشوق إلى لقاء النبي

---

(١) الغيث المنسجم ج ١ ص ١٢٨ .

صلى الله عليه وسلم فى الفردوس ، ويشير إلى ماورث عنه المسلمون من الرشد والهدى . وله فى ذلك قصائد ثلاث دالية تفيض بالمعانى الرقيقة السمحة ، وتنم عن روح دينى مصقول ، وهى قصائد لينة من حيث النسج ، بحيث نخشى أن تكون من الشعر المنحول : فانها لو أضيفت إلى رجل كالبوصيرى لقبلت ، لما يغلب عليها من الرقة واللين ، ويكفى أن نقدم أولى هذه القصائد :

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ ... مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ (١)
وَلاَتَنْمَحِى الآيَاتُ مِنْ دارِ حُرْمَةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِى الَّذِى كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آياتٍ وَباقِى مَعَالِمٍ ... وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهِ حُجُرَاتٌ كَانَ يَنزِلُ وَسْطَهَا ... مِنَ اللّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ (٢)
مَعَالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا ... أَتَاهَا الْبِلَى فَالآىُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعهْدَهُ ... وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِى التُّرْبِ مُلْحِدُ
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِى الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ ... عُيُونٌ وَمِثْلاَهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ (٣)
تُذَكِّرُ آلاَءَ الرَّسُولِ ـ وَمَا أَرَى ... لَهَا مُحْصِيًا ـ نَفْسِى فَنَفْسِى تَبَلَّدُ (٤)
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أَحْمَدٍ ... فظَلَّتْ لِآلاَءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ (٥)
أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا ... عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِى فِيهِ أَحْمَدُ
فبُورِكْتَ يَاقَبْرَالرَّسُولِ وَبُورِكَتْ ... بِلاَدٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ (٦)

---

(١) تهمد : تبلى وتبيد . (٢) الحجرات مساكن الرسول ، مفردها حجرة .

(٣) أسعدت العيون : أعانت على البكاء . (٤) التبلد : الحيرة .

(٥) شفها : أضعفها . (٦) المسدد : الموفق .

وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّبًا ... عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ (١)
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ ... عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذٰلِكَ أَسْعُدُ (٢)
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً ... عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لاَ يُوَسَّدُ
وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السَّمٰوَاتُ يَوْمَهُ ... وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ (٣)
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ ... رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ ؟
تَقَطَّعَ فِيهِ مُنْزَلُ الْوَحْيِ عَنْهُمُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ (٤)
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ ... وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِداً ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفُوٌّ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ ... وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
فَبَيْنَاهُمُ فِي نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ ... دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى ... حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لاَ يُثَنِّي جَنَاحَهُ ... إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ (٥)
فَبَيْنَاهُمُ فِي ذٰلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا ... إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ (٦)
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللهِ رَاجِعًا ... يُبَكِّيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلاَتِ وَيَحْمَدُ (٧)

---

(١) الصفيح الحجر الرقيق العريض ، والمنضد الذى رصف بعضه فوق بعض .
(٢) الأسعد جمع سعد وهى النجوم . (٣) أكمد : من الكمد وهو الحزن .
(٤) يغور : يبلغ الغور ، وهو المنخفض من الأرض وضده النجد .
(٥) يمهد : يهيئ المكان الوثير ، والمهد المرقد اللين .
(٦) مقصد : مصيب ، يقال رماه فأقصده . (٧) المرسلات هى هنا : الملائكة .

إلى أن يقول :

فَبَكِّي رَسُولَ اللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً ... وَلاَ أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ (١)
وَمَالَكِ لاَ تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي ... عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ (٢)
وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلاَ مِثْلُهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُفْقَدُ
أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً لاَ يُنَكَّدُ
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ ... إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلِدُ (٣)
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى ... وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ (٤)
رَبَاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامُهُ ... عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ ... فَلاَ الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلاَ الرَّأْيُ يُفْنَدُ
أَقُولُ وَلاَ يُلْفَى لِقَوْلِيَ عَائِبٌ ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ (٥)
وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ ... لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ ... وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

وهذه القصيدة ضعيفة من الوجهة الشعرية ، ولكنها من خير الشواهد لما نحن بسبيله من تأريخ المدائح النبوية ، والقارئ يلاحظ أن هذه المرثية لم تقل عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما قيلت بعد موته بزمان ، بدليل قوله :

معالمُ لم تطمس على العهد آيُها ... أتاها البلى فالآيُ منها تجدد

---

(١) جمد الدمع سكن . (٢) يتغمد : يغطى ويستر .
(٣) التالد المال القديم ومثله التليد ، والطريف : هو المال المكتسب .
(٤) الأبطحيّ نسبة إلى الأبطح بمكة . (٥) العقل العازب : هو الذاهب .

عرفت بها رسم الرسول وعهدَه وقبراً به واراه فى الترْب ملحد

ورثاء النبي بعد موته بمدة فيه نزعة صوفية ، ويؤيد هذا ماجاء فى ختام القصيدة من رغبة الشاعر فى أن يثيبه الله على مدحه بالخلد فى جنة الخلد ، ورجائه أن يكون من جيران المصطفى فى الدار الباقية وهو يعلن أنه فى نيل ذلك اليوم يسعى ويجهد ، فبكاء الرسول فى هذه المرثية ليس إلا ثناء عليه ، وعلى دينه القويم ، وليس من الرثاء المألوف الذى يقع من الشاعر حين يفجع فى رئيس أو صديق .

ومن الألفاظ التى تجب الاشارة إليها بين ألفاظ هذه القصيدة كلمة : « طيبة» وسيكثر ذكرها فى المدائح النبوية ، وكذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه « الهـادى » أما كلمة « الطريقة » فى قوله :

فبيناهمُ فى نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

فستصير كلمة اصطلاحية عند الصوفية ، وسنراهم يقولون : « كل شيخ له طريقة » وسيقولون : « الطريقة الشاذلية » و « الطريقة الخلوتية » إلى آخر ما ابتدعوا من الطرائق .

وفى قصيدة أخرى يقول :

يا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ بِكْرُهَا وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعُدُ

ووصف الرسول بأنه ابن آمنة من كلمات التمجيد التى أذاعها حسان ، وستكثر فى المدائح النبوية ، وقوله فى ختام إحدى القصائد :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

سيصير من التعابير المألوفة فى كلام من يمدحون الرسول .

وعبارة « صلى الإلٰهُ » جملة دعائية ، كان حسان يقولها فى الرسول ، وفى أصحابه ، كقوله يرثى أصحاب الرجيع :

صَلَّى الإلٰهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا   يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأُكْرِمُوا وَأُثِيبُوا

ونجدُ مويلك المزموم يرثى امرأته فيقول :

صَلَّى عَليْكِ اللّٰهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ   إِذْ لاَ يُلاَئِمُكِ المَكانُ البَلْقَعُ

ونرى آخر يقول :

صلى الإلٰه على صفىٍّ مُدركٍ   يوم الحساب وجمع الأشهادِ

ولكن هذه العبارة ستقصر فيما بعد على الرسول ، وستحل محلها فى الرثاء عبارة « يرحمه الله » كقول أحد الشعراء :

يرحمك الله من أخى ثقة   لم يك فى صفو ودهِ كدرُ

١١ — وبعد مدائح حسان ومراثيه تجىء الفقرات المنسوبة إلى على بن أبى طالب ، ونثر علىّ من المشكوك فى صحته ولكنا نستشهد به لأمرين :
الأول : تصويره لما كان يفهم القدماء من حال علىّ الروحية ، فهو على فرض وضعه صورة للأدب الذى كانوا يتمثلون ذيوعه فى تلك الأيام فى خطب أصحاب الرسول .

الثانى : أننا نرجح صحة ما نسب إلى على فى التحميدات والعظات ، فانّ الذين طعنوا فى صحة نثره وقفوا عند المصاولات التى وقعت بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان .

يضاف إلى هذين الأمرين : أن المدائح النبوية التي وقعت في خطب عليّ لا يظهر فيها تكلف ، فهي فقرات افتتحت بها بعض الخطب ، وليس فيها قصد إلى مدح الرسول .

ولهذا المنهج أهمية ، فسنرى الثناء على النبي يطّرد في أكثر الخطب المنبرية ، ونكاد نجزم بأن حمد الله والثناء على نبيه صحب الخطب منذ ازدهر هذا الفن على المنابر الاسلامية ، بدليل أنهم دهشوا لخلوّ خطبة زياد من الحمد فسموها البتراء .

والمدائح النبوية في كلام عليّ ذات أفانين ، فتارة يثني على النبي ، وعلى كتابه ، ويبين ما كان عليه الناس قبل البعثة ، فيقول :

« أرسله بالدين المشهور ، والعِلم المأثور ، والكتاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والأمر الصادع ، إزاحة للشبهات ، واحتجاجاً بالبينات ، وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثلات [١] ، والناس في فتن انجذم [٢] فيها حبل الدين ، وتزعزعت سوارى [٣] اليقين ، واختلف النجر [٤] ، وتشتت الأمر ، وضاق المخرج ، وعمى المصدر ، فالهدى خامل ، والعمى شامل ، إذ عُصِيَ الرحمن ، ونُصِرَ الشيطان ، وَخُذل الايمان . . . الخ [٥] » .

وفى هذا المعنى يقول في خطبة ثانية :

« أرسله على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعترام [٦] من الفتن ، وانتشار [٧] من الأمور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور

---

(١) المثلات بفتح فضم : العقوبات . (٢) انجذم : انقطع .
(٣) السوارى جمع سارية ، وهى العمود والدعامة .
(٤) النجر : الأصل : والمراد به المرجع . (٥) نهج البلاغة ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .
(٦) اعترام : شدّة . (٧) الانتشار : التفرّق .

ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإياس من ثمرها ، واغورار من مائها ، قد درست منار الهدى ، وظهرت أعلام الردى ، فهى متجهمة [١] لأهلها عابسة فى وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف [٢] » .

وفى هذه القطعة يصف علىّ كيف كانت الحياة قبل بعثة الرسول، ويغلب عليه الفن ، فيلوّن كلامه بفنون من الخيال ، ويذكر أن الدنيا كانت كاسفة النور ، وأنها كانت مصفرة الورق ، وأن ثمرها كان ميئوساً منه ، وأنها كانت غائرة الماء ، ثم يمضى فيذكر تجهمها وعبوسها ، ويجعل من ثمرها الفتنة ، ومن طعامها الجيفة ، ويقضى بأن شعارها الخوف ، ودثارها السيف .

والافتنان فى وصف ما كانت عليه الجاهلية من الظلمات سيصير أساساً لأكثر ما يكتب فى بيان فضل الرسول ، وهذه معان لم يخلقها على بن أبى طالب ، وإنما وضعت أصولها الأولى فى القرآن .

وفى مكان آخر يذكر أن النبوة قديمة ، تنقلت من صلب إلى صلب حتى وصلت إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى وصف الأنبياء :

« استودعهم فى أفضل مستودَع ، وأقرّهم فى خير مستقَر ، تَناسخهم كرائم الأصلاب ، إلى مطهّرات الأرحام ، كلما مضى منهم سلف ، قام منهم بدين الله خلف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد صلى الله عليه وآله ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعز الأُرومات [٣] مغرسا : من الشجرة

(١) التجهم : الاستقبال بوجه كريه . (٢) نهج البلاغة ص ١٧١ ج ١ .
(٣) الأرومات : الأصول .

التى صدع منها أنبياءه ، وانتخب منها أمناءه ، عِترتُه خير العتر ، وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبتت فى حرم ، وبسقت فى كرم ، لها فروع طوال ، وثمرات لاتنال ، فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى ، سراج لمع ضوءه ، وشهاب سطع نوره ، وزندٌ برق لمعه ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحكمه العدل [1] » .

وهذا المعنى سيعتمد عليه مؤلفو « الموالد » وسيذكرون أن نور النبوة تنقل من صلب إلى صلب حتى وصل إلى نبىّ الاسلام . والاهتمام بطهارة نسب الرسول يرجع إلى العقلية العربية التى تعوّل كثيراً على طهارة الأنساب ، وفى بعض الآثار تنزيهٌ لنسب الرسول عن سفاح الجاهلية ، ولهذا معناه فى تقدير شرف الأصل .

وعلى بن أبى طالب قد يفتن ببعض المعانى فيعود إليها من خطبة إلى خطبة ، ومن حديث إلى حديث ، ولننظر كيف يعود فيصف ما كان عليه الجاهليون :

« بعثه والناس ضُلَّالٌ فى حيرة ، وخابطون فى فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى فى زلزال من الأمر وبلاء من الجهل ، فبالغ صلى الله عليه وآله فى النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا إلى الحكمة ، والموعظة الحسنة [2] » .

وكلمة « الطريقة » مرت بنا فى شعر حسان ، وعادت إلينا فى كلام علىّ ، وقد أشرنا إلى أنها ستصير كلمة اصطلاحية عند الصوفية .

---

(١) ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ج ١ نهج البلاغة . (٢) ص ٢٠٢ ج ١ منه أيضاً .

ولننظر أيضاً كيف يعود فيتحدث عن أُرومة الرسول :

« مستقره خير مستقر ، ومنبته أشرف منبت ، في معادن الكرامة ، ومماهد السلامة ، قد صُرفتْ نحوه أفئدة الأبرار ، وثُنيتْ إليه أزمّة الأبصار (١) » .

ويصور هذا المعنى بصورة أخرى فيقول :

« اختاره من شجرة الأنبياء ، ومشكاة الضياء ، وذؤابة العلياء ، وسرة البطحاء ، ومصابيح الظلمة ، وينابيع الحكمة (٢) » .

ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم بالزهد فيقول :

« قد حقر الدنيا وصغّرها ، وأهونها وهوّنها ، وعلم أن الله زواها عنه اختيارا ، وبسطها لغيره احتقارا ، فأعرض عنها بقلبه ، وأمات ذكرها عن نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها رياشاً ، أو يرجو فيها مقاما (٣) » .

وهذه النزعة ستكون كذلك أصلا لكثير من المدائح النبوية .

ومما تجب الاشارة إليه الجمع بين الثناء على الرسول والدعاء له ولدينه في قول عليّ :

« أورى قبساً لقابس ، وأنار علماً لحابس ، فهو أمينك المأمون ، وشهيدك يوم الدين ، وبعيثك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم اقسم له مقسما من عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك ! اللهم أعل على بناء البانين بناءه ، وأكرم لديك نُزُله ، وشرف لديك منزلته ، وآته الوسيلة ، وأعطه السناء والفضيلة ! واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا نادمين ، ولا ناكثين ولا ضالين ولا مضلين ! (٤) » .

وكلمة « الوسيلة » سيكثر ورودها في كلام الصوفية ، وهذه القطعة ستكون نمطا لكثير من الأدعية والصلوات .

---

(١) ص ٢٠٣ . (٢) ص ٢٢٣ . (٣) ٢٣٢ ج ١ . (٤) ص ٢٢١ ج ١

ولو مضينا نستقرى ما فى كلام علىّ من أمثال هذه الفقرات لطال بنا القول ، فلنكتف بما أسلفنا من كلامه ، فما نريد الاستقصاء ، وإنما الغرض أن ندل على مافى خطبه من أصول المدائح النبوية .

١٢ — والذى يتأمل كلام علىّ يجده ينتقل من مدح النبي صلى الله عليه وسلم إلى مدح آل البيت ، وكذلك يفعل الكميت بن زيد الأسدى فى قصائده الهاشميات ، وسنعود إليها بدرس خاص وندرس معها تائية دعبل ، ونشير الآن إلى أن الفرزدق اتفق له أن يقف موقفاً يمدح فيه الرسول وعترته فقد حدثوا أنه حج بعد ما كبر وقدأتت له سبعون سنة وكان هشام بن عبدالملك قد حج فى ذلك العام فرأى على بن الحسين رضى الله عنهما فى غمار الناس فى الطواف فقال : من هذا الشاب الذى تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحىّ وجوهها ؟ فقالوا : هذا على بن الحسين (١) .

فقال الفرزدق :

هٰذَا ٱلَّذِى تَعْرِفُ ٱلْبَطْحَاءِ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَٱلْحِلُّ وَالحَرَمُ
هٰذَا ٱبْنُ خَيْرِ عِبَادِ ٱللّٰهِ كُلِّهِمِ ... هٰذَا التَّقِىُّ النَّقِىُّ الطَّاهِرُ ٱلْعَلَمُ
هٰذَا ٱبْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ ٱللّٰهِ قَدْ خُتِمُوا

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ١٤٩ . وفى وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٢ أنه لما حجّ هشام فى أيام أبيه طاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام فنصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان الشام . فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين على بن الحسين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجاً ، فطاف بالبيت . فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم . فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكونه ، وكان الفرزدق حاضرا ، فقال : أنا أعرفه ، فقال : من هو يا أبا فراس ؟ فقال قصيدته .

وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هٰذَا بِضَائِرِهِ   الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا   إِلَى مَكَارِمِ هٰذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

بِكَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهَا عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ   رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

أَللّٰهُ شَرَّفَهُ قِدْمًا وَعَظَّمَهُ   جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ

أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمُ   لِأَوَّلِيَّةِ هٰــــــذَا أَوْ لَهُ نِعَمُ

مَنْ يَشْكُرِ اللّٰهَ يَشْكُرْ أَوَّلِيَّةَ ذَا   فَالدِّينُ مِنْ بَيْتِ هٰذَا نَالَهُ الْأُمَمُ

كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا   تُسْتَوْكَفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا عُدُمُ

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ   يَزِينُهُ اثْنَانِ حُسْنُ الْخُلْقِ وَالشِّيَمُ

حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا فُدِحُوا   حُلْوُ الشَّمَائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ

مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ   لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَأْمُونٌ نَقِيبَتُهُ   رَحْبُ الْفِنَاءِ أَرِيبٌ حِينَ يَعْتَزِمُ

عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ   عَنْهَا الْغَيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعُدُمُ

يُنْمَى إِلَى ذِرْوَةِ الدِّينِ الَّتِي قَصُرَتْ   عَنْهَا الْأَكُفُّ وَعَنْ إِدْرَاكِهَا الْقَدَمُ

مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ   وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ

مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللّٰهِ نَبْعَتُهُ   طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالْخِيمُ وَالشِّيَمُ

يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ   كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُهُمُ   كُفْرٌ وَقُرْبُهُمُ مَنْجًى وَمُعْتَصَمُ

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ ذِكْرُهُمُ ... فى كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ ... أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ هُمُ
لاَ يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بعْد جُودهمُ ... وَلاَ يُدَانِيهِمُ قَوْمٌ وَإِن كَرُمُوا
يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وَالْبَلْوَى بِحُبِّهِمُ ... وَيُسْتَرَبُّ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ
لاَيَنْقُصُ الْعُسْرُ بَسْطاً مِنْ أَكُفِّهِمِ ... سِيَّانَ ذَلِكَ إِنْ أَثْرَوْا وَإِنْ عدِمُوا
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ ... خِيمٌ كَرِيمٌ وَأَيْدٍ بِالنَّدَى دِيمُ

وفى هذه القصيدة الجيدة نفحات من التصوف ، فالشاعر يقرن شكر الله بشكر آل الرسول ويرى أن حبهم دين و بغضهم كفر ، وتلك أقصى غايات الصدق فى الحب . ويؤيد هذا ماوقع للشاعر بعد إنشاد هذه القصيدة : فقد غضب هشام وحبسه ، وأنفذ له زين العابدين وهو فى الحبس اثنى عشر ألف درهم فردها وقال : « مدحته لله تعالى لا للعطاء » .

والمدح لله هو عين التصوف ، ولا يغض من هذا قبوله العطية بعد ذلك فقد تلطف زين العابدين وقال « إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده[1] » .

وكذلك يكون قبول هذه العطية باباً من الأدب فى رعاية أسباط الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد يمكن القول بأن مدح الفرزدق للنبي وأهله هو بداية الصدق فى المدائح النبوية ، ذلك بأن مدائح حسان وقعت فى أيام كان مدح النبى فيها ينفع الشاعر ولا يضره . أما مدح النبى وأهله فى أيام الفرزدق فكان باباً من الشر

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٣ .

يفتح للمادحين: لأن تلك المدائح ما كانت تروق خلفاء بنى أمية، وكيف تروقهم وهى تزكية لخصوم أولئك الخلفاء؟ إن أقوى حجة عند خصوم بنى أمية كانت قرابتهم من الرسول ، فلا بدع أن يكون مدح الرسول تنويهاً بشأن أولئك المعارضين ، ألم تر كيف غضب هشام وسجن الفرزدق ؟

ومعنى هذا أن السياسة كانت بدأت تستقل عن الدين بعض الاستقلال فمدح الرسول وأبنائه فى نظر خلفاء بنى أميـــة كان ضربا من التمرد والشغب والخروج على الدولة . وتعليل ذلك سهل : فموقف على بن الحسين من بنى أمية شبيه بموقف خلفه الشريف الرضى من بنى العباس ، والشريف هو الذى يقول :

ردوا تراث محمـــد ردوا   ليس القضيب لكم ولا البُردُ

وتراث محمد كان أهم ما فيه ولاية أمر المسلمين ، وقد انتُزعتْ من آل البيت انتزعها بنو أمية ثم بنو العباس .

نقول هذا لنبين أثر الشجاعة الصوفية عند الفرزدق حين مدح على بن الحسين فى حضرة هشام بن عبد الملك وقوله حين رفض العطية : « مدحته لله تعالى لا للعطاء » يذكِّر بالكميت . وقد دخل عليه جعفر بن محمد بعطاء وكسوة فقال « والله ما أحببتكم للدنيا . ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله » .

فان لم يكن مثل هـذا الحب تصوفا وروحانية ، فما منزلته بين نوازع الود والوفاء ؟

١٣ — رأينا كيف نشأت المدائح النبوية وكيف تطورت : رأينا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يُمدح كما يمدح الرؤساء المسيطرون ، فى شعر الأعشى وكعب بن زهير ، وكيف مُدح بشيء من روح العطف والحنان فى شعر حسان ، وكيف مدح تديناً فى خطب على بن أبى طالب ، وكيف درج الشعراء بعد ذلك على الجمع بين مدحه ومدح آل البيت . فلنذكر الآن أن هذا الفن بلغ أشُده فى القرن الرابع ، وسندرس ماوقع منه فى شعر الكميت ودعبل والشريف الرضى ومهيار الديلمى، ونسارع فنقرر أن من أهم الشواهد على نضج هذا الفن فى ذلك العصر أن الثعالبي جمع منه شذرات فى كتابه (سحر البلاغة) وهو كتاب يمثل النزعات الفنية فى عصر المؤلف ، ومادة ذلك الكتاب لم تؤخذ عن كاتب واحد ، ولا شاعر واحد ، وإنما هى فقرات أخرجها من ألفاظ عدد كبير من الكتاب والشعراء .

وإلى القارىء طائفة من تلك التعابير :

— سليل أكرم نبعة ، وقريع أشرف بقعة — جاء بأمته من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحرور — محمد نبى الله وصفوته ، وخيرته من بريته — خيرة الله من خلقه ، وحجته فى أرضه ، والهادى إلى حقه ، والمنبه على حكمه ، والداعى إلى رشده — مبارك مولده ، سعيد مورده — ساطع صباحه ، متوقد مصباحه — مظفرة حروبه ، ميسرة خطوبه — آخر الأنبياء

فى الدنيا عصراً ، وأولهم يوم الدين ذكراً ، وأرجحهم عند الله ميزانا ، وأوضحهم حجة وبرهانا .

وإليك طائفة أخرى فى الصلوات :

صلى الله على محمد خير من افتتحت بذكره الدعوات ، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات — صلى الله على محمد خير نبى مبعوث ، وأفضل وارث وموروث — صلى الله على كاشف الغمة عن الأمة ، الناطق فيهم بالحكمة الصادع بالحق ، الداعى إلى الصدق — صلى الله على بشير الرحمة والثواب ، ونذير السطوة والعقاب : محمد الذى أدى الأمانة مخلصاً ، وصدع بالرسالة مبلِّغا مُمَحِّصا — صلى الله على أتمّ بريته خيراً وفضلا ، وأطيبهم فرعا وأصلا ، وأكرمهم عوداً ونجراً ، وأعلاهم منصباً وفخراً .

وبعد هذين اللونين من مدح الرسول والصلاة عليه نقل الثعالبى فقرات فى الثناء على آل البيت ، وهذا دليل آخر على الجمع بين مدح النبى ومدح عترته ، وأغلب الظن أن هذه الطريقة كانت مما سنّ الشيعة فى مختلف الأمصار الاسلامية . وسنرى كيف يعود المادحون فيفردون النبى صلى الله عليه وسلم بالثناء حين يسامون من النزعات الحزبية ، والتشيع تحزب ، وإن غلب على كثير من أهله صدق اليقين .

١٤ — هذا وقد رأى القارئ أن أقدم قصيدة قيلت فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بدئت بالنسيب ، وسيرى ذلك سنة فى أكثر المدائح النبوية فلنقيد هنا أنهم نصوا على « أن الغزل الذى يُصدَّر به المديح النبوى يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ، ويتشبب مطرباً بذكر سلع ورامة

وسفح العقيق والعُذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل فى ثقل الردف، ودقة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخد وخضرة العذار، وما أشبه ذلك[1] » .

وهذا الأدب يُلحظ أيضًا فى مدح أهل البيت ، وقد عاب ابن حجة على السَّرى الرفاء أن يتغزل فى صدر قصيدة مدح بها الفاطميين ، وجدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا التشبيب :

نَطْوِى اللَّيَالِىَ عِلْمًا أَنْ سَتَطْوِينَا ... فَشَعْشِعِيهَا بِمَاءِ الْمُزْنِ وَاسْقِينَا[2]
وَتَوِّجِى بِكُؤُوسِ الرَّاحِ رَاحَتَنَا ... فَإِنَّمَا خُلِقَتْ لِلرَّاحِ أَيْدِينَا
قامَتْ تَهُزُّ قَوَامًا نَاعِمًا سَرَقَتْ ... شَمَائِلُ الْبَانِ مِنْ أَعْطَافِهِ اللِّينَا
تُدِيرُ خَمْرًا تَلَقَّاهَا الْمِزَاجُ كَمَا ... أَلْقَيْتَ فَوْقَ جَنِىِّ الْوَرْدِ نَسْرِينَا
فَلَسْتُ أَدْرِى أَتَسْقِينَا وَقَدْ نَفَحَتْ ... رَوَائِحُ الْمِسْكِ مِنْهَا أَمْ تُحَيِّينَا

والمواطن التى أشار إليها ابن حجة مواطن عربية متصلة من قُرب أو من بُعد بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . والقول بالوقوف عندها فى التغزل فيه تعسف ، فمن حق الشاعر إن تغزل أن يصدُق ، وقد حنّ البوصيرى مثلا إلى أحبابه بذى سلم وكان أولى لو تشوق إلى أحبابه فى بلبيس أو فاقوس . وعذر ابن حجة أن مثل ذلك النسيب هو فى الأغلب تمهيد للمديح ، والكلام عن تلك المواطن بالذات يقع فى المدائح النبوية وكأنه براعة استهلال .

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ١٤ . (٢) المزن : السحاب .

الفصل الثانى

مدح أهل البيت

نشأة العطف على أهل البيت — مقتل الحسين — النوح فى يوم عاشوراء — الصلاة على الحسن والحسين فى بعض الخطب المنبرية — مصرع ابن السكيت — دسائس الأمويين ضد الحسن ابن علىّ — المبالغة فى بكاء الحسين — أشياع علىّ فى حضرة معاوية وغيره من الخلفاء — مدح شعراء الفاطميين لأهل البيت ليس من التصوف .

١ — ولد العطف على أهل البيت منذ اليوم الذى خُذِل فيه علىّ وكان يرى نفسه صاحب الحق فى الخلافة الاسلامية، وبلغ العطف أشُده يوم قتل ، وأتيحت بقتله الفرصة لقيام الخلافة الأموية ، ثم تأصلت جذور ذلك العطف فى أفئدة المسلمين بعد قتل الحسين رضى الله عنه وما تلاه من أحزان أهل البيت .

والواقع أن دماء أهل البيت كانت هزت قلوب المسلمين ، ويكفى أن نتصور ما حدّث به الفيروزابادى فى مادة (سور) من القاموس المحيط إذ قال :

« وسورين : نهر بالرى وأهلها يتطيرون منه لأن السيف الذى قتل به يحيى بن زيد بن على بن الحسين غسل فيه » .

والتطير من نهر غسل فيه سيف قتل به رجل من أهل البيت يمثل أقصى معانى التصوف فى حب أسباط الرسول .

٢ — ومقتل الحسين خاصة من الحوادث التى شغلت خواطر المسلمين أجيالا طوالا . ولو كان التصوير من الفنون التى شجعها الاسلام لملأت صورة

الحسين أقطار الأرض . كالذى وقع فى صورة المسيح التى تزدان بها الكنائس الصغيرة والكبيرة والمنازل فى مختلف البقاع النصرانية .

ولكن الحماسة التى عدمت مكانها فى مجال التصوير انتقلت إلى الخطب والرسائل والقصائد . ومن ملاحظات المسيو بلانشو Blanchot فى كتاب

Les Etapes de la Peinture

أن الحسين عند المسلمين يذكر بأدونيس عند اليونان . وتتلخص هذه القصة فى أن أفروديت إلهة الجمال كان لها ابن وسيم الطلعة نضير الشباب اسمه أدونيس ، فخرج يوما يتصيد فهاجمه خنزير برى فقتله . ونبتت من دمه شقائق النعمان . ثم مضى اليونان يحيون ذكراه فى كل ربيع : فيبكون ويندبون ، وأمامهم تابوت يمثل نعش أدونيس(١) .

وكذلك فعل المسلمون فى ذكرى الحسين : فكانوا يحيون ذكراه يوم عاشوراء حتى لنجد صاحب كتاب النجوم الزاهرة يقول فى أخبار سنة ثمان وتسعين وثلثمائة :

« فى يوم عاشوراء عمل أهل الكرخ ماجرت به العادة من النوح وغيره واتفق يوم عاشوراء يوم المهرجان فأخره عميد الجيوش إلى اليوم الثانى مراعاة للرافضة . هذا ما كان ببغداد ، فأما مصر فانه كان يفعل بها فى يوم عاشوراء من النوح والبكاء والصراخ وتعليق المسوح أضعاف ذلك » .

---

(١) ليس معنى هذا أن المسلمين نقلوا عن اليونان فكرة المآتم الموسمية . ولكن هذه المشابهة بين ذكرى أدونيس وذكرى الحسين تدل على أن الناس يتفقون فى كثير من الأخيلة الفطرية وإن تباعدت بهم الديار ، وفرّقت بينهم المذاهب ، ومن العجيب أن هناك نفحة روحية فى الفكرتين : فأدونيس تقدّس ذكراه لأنه ابن أفروديت وهى إلهة الجمال، والحسين يمجد ذكره لأنه ابن فاطمة، وهى بنت الرّسول .

وقد كانت عادة النوح على الحسين فى يوم عاشوراء تجرى فى القاهرة إلى زمن قريب . وكنت أسمع بأخبار ذلك وأنا طالب فى الأزهر فلا أصدق لأنى كنت أقضى يوم عاشوراء بين أهلى فى الريف فبقيت فى القاهرة عمداً فى أحد الأعوام ، ورأيت الموكب بعينى ، وكان الشيعة يطوفون حول مسجد الحسين رضى الله عنه ، وأجسامهم مخضبة بالدماء . وقد اختفى هذا المنظر منذ غلبت المدنية الحديثة ولكنى شهدت منذ أعوام قلائل حفلة فى حى الحمزاوى : فرأيت الناس يبكون ويصرخون وهم يسمعون سيرة الحسين فى ليلة عاشوراء .

٣ — وقد أضيفت الصلاة على علىّ وابنيه الحسن والحسين إلى الصلاة على رسول الله فى طائفة من الخطب المنبرية : فقد خطب أبو المنيع قرواش بن المقلّد خطبة الجمعة بالقاهرة رابع المحرم سنة إحدى وأربعمائة بحضرة الحاكم فقال :

« وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . اصطفاه واختاره لهداية الخلق ، وإقامة الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وهدى من الضلالة . . . صلى الله عليه وعلى أول مستجيب له علىٍّ أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين » .

وقال فى الخطبة الثانية بعد حمد الله والثناء على نبيه :

« اللهم وصلِّ على وليك الأزهر ، وصفيّك الأكبر ، على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين . اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين » .

وحدثنى السيد فوزان السابق وكيل حكومة الحجاز بالقاهرة أنه وجد فى أحد مساجد المغرب وثيقة زواج ذكرت فيها الصلاة على الحسن والحسين ،

وأنه رشا خازن تلك الوثيقة وأخذها منه. جرى هذا الحديث منذ ثلاثة عشر عاما بمنزله فى عين شمس وبحضرة المرحوم الشيخ عبد الباقى سرور نعيم، وقد مازحته يومئذ فقلت : أترى الوهابيين يجيزون الرشوة ؟ .

٤ — ولو مضينا إلى المكاتب المبثوثة فى حى الأزهر واشترينا طائفة من الخطب المنبرية لرأينا فى أكثرها خطبة ثابتة ليوم عاشوراء ، ورأينا مؤلفى تلك الخطب يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بأن يوسّع الرجل على أطفاله فى يوم عاشوراء ، وأكاد أجزم بأن أهل الريف فى مصر يحتفلون بذلك اليوم احتفالهم بعيد الأضحى من حيث التوسع فى المطاعم . وفى مصر نوع من الحلوى اسمه « عاشوراء » يؤكل فى ذلك اليوم . ويتخيره ناس للفطور فى رمضان حتى الأرمن واليونان يقدمونه لزبائنهم فى القهوات !

٥ — وسنرى كيف يكون مدح أهل البيت مما يتبارى فيه الكتاب والشعراء ، وسنرى كيف يحرص الشريف الرضى على إحياء يوم عاشوراء من كل عام بقصيدة يبكى فيها الحسين [1] .

وسنرى طوائف من المآسى تقع لبعض العلماء بسبب التعصب للحسن والحسين ، فقد حدثنا ياقوت [2] أن ابن السكّيت كان خرج إلى سُرَّ مَن رأى فصيّره عبد الله بن يحيي بن خاقان إلى المتوكل ، فضم إليه وُلْده يؤدبهم ، وأسنى له الرزق ، ثم دعاه إلى منادمته ، فنهاه عبد الله بن عبد العزيز عن ذلك ، فظن أنه حسده ، وأجاب إلى ما دعى إليه . فبينما هو مع المتوكل يوما جاء المعتز والمؤيد ، فقال له المتوكل :

---

(١) كان يوم عاشوراء ملحوظا فى أذهان الناس حتى صح لهم أن يقولوا: ولد فلان يوم عاشوراء . انظر تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣٤ . (٢) فى معجم الأدباء ج ٧ ص ٣٠١

يايعقوب : أيما أحب إليك : ابناى هذان أم الحسن والحسين ؟ فذكر الحسن والحسين رضى الله عنهما بما هما أهله ، وسكت عن ابنيه ، وقيل إنه قال له : إن قنبر خادم علىّ أحب إلىّ من ابنيك . فأمر المتوكل الأتراك فسلّوا لسانه ، وداسوا بطنه ، وحمل إلى بيته ، فعاش يوما وبعض آخر ومات ، ووجه المتوكل من الغد عشرة آلاف درهم ديته إلى أهله ، ولما بلغ عبدَ الله ابن عبد العزيز الذى نهاه عن المنادمة خبرُ قتله أنشد :

نَهَيْتُكَ يَا يَعْقُوبُ عَنْ قُرْبِ شَادِنٍ إِذَا مَا سَطَا أَرْبَى عَلَى كُلِّ ضَيْغَمِ
فَذُقْ وَاحْسُ إِنِّى لاَ أَقُولُ الْغَدَاةَ إِذْ عَثَرْتَ لَمَا بَلْ لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

ولهذا الخبر دلالة على ما كان تمكن فى صدور الناس من حب أهل البيت والتصوف فى ذلك الحب : فابن السكيت كان يخفى التشيع إخفاء شديداً ، بحيث خُدع فيه المتوكل ، وعهد إليه بتأديب ولديه ، ولكن الشراب ينضح المكتوم من أخبار السرائر والنفوس ، فلما أخذت منه الكأس أعلن ما كتم وصرح بأن قنبر خادم علىّ أحب إليه من ابنى المتوكل ، فاستهدف للقتل .

٦ — ولا ينبغى أن ننسى أن الشعراء والخطباء والقُصّاص لوّنوا قتل الحسين رضى الله عنه بألوان شعرية . ألم يقل قائلهم: إن الدم كان يجرى من ذلك الفم الذى طالما قبّله الرسول ؟

إن هذه اللمحة هى وحدها صورة شعرية تهيج ما غفا من المشاعر والأحاسيس .

٧ — ولنتذكر أن بنى أمية قاوموا هذه الصور الشعرية ، ولكنهم لم

يفلحوا ، فقد ظل الناس يحبون الحسين . أما دسائس الأمويين ضد الحسن فقد ظفرت ببعض النجاح ، ألم يستطيعوا أن يشيعوا فى المشرق والمغرب أن الحسن لم يكن صالحاً للملك ، وأنه كان رجلا مفتوناً بحب النساء ؟

ومن العجيب أن بنى أمية حاربوا الحسن بلباقة سياسية منقطعة النظير ، فقد كانوا يودون اتهامه بضعف الأخلاق ، وحب الاثم والفسوق ، فلما عز عليهم ذلك قالوا : إنه لم يكن يتمتع بالنساء إلا عن طريق الحلال ، فكان يتزوج المرأة ليلهو بها يوماً أو بعض يوم ، ثم يطلقها ليبحث عن امرأة أفتن وجهاً ، وأنضر شباباً .

ومن العجيب أيضاً أن الهاشميين لم يقاوموا هذه الدسيسة ، وأعجب من ذلك أن يعدّوها من مفاخر ذلك السيد المزواج !

ومن طريف الفكاهات أنى كنت نشرت كلمة فى جريدة البلاغ عن شواطئ الاسكندرية قلت فيها : « إن أجسام الملاح فى تلك الشواطئ تغرس الشوق إلى الاعتزاز بالقومية المصرية » فعاتبنى الشيخ محمد الحكيم المصحح بجريدة البلاغ ، وقال : هذه دعوة إلى المجون .

وكنت أعرف أن العمامة الخضراء التى تزين رأسه ستغنينى فى إقناعه ، فالتفتّ إليه وقلت : حتى أنت ياسليل الحسن بن علىّ ، تنكر الدعوة إلى تقديس الجمال ؟ ! فابتسم ، وطابت نفسه ، وانشرح صدره ، وترحم على جده ، وانطلق يحدّث عن نوادره مع النساء .

وقليل من التنبه كاف لتعريفنا بخطر هذه الدسيسة فى عالم السياسة ، فان الرجل الذى يشغل نفسه بسياسة المرأة يعسر عليه أن يتفرغ لسياسة الدولة .

وهذا المغمز لايزال معروفاً فى ميادين النضال السياسى ، ولو شئنا لضربنا لذلك الأمثال (١) .

٨ — نجح الأمويون فى تشويه سمعة الحسن من الوجهة السياسية ، ولكنهم لم ينجحوا فى تشويه سمعة الحسين ، ولذلك رأينا الشعراء يبدئون ويعيدون فى الثناء على هذا الشهيد ، ورأينا منهم من يتمثل مصرعه فى الأحلام روى الثعالبي عن أحد معاصريه قال : أخبرنى على بن بشر أنه كان له جَدٌّ لأم يُعرف بكولان ، وكان هو من أهل الأدب والكتابة ، وحسن الشعر والخطابة قال لى : حججت سنة من السنين ، وجاورت بمكة حرسها الله ، فاعتللت علة تطاولت بى ، وضاق معها خُلق ، ثم صلحت منها بعض الصلاح ، ففكرت فى أنى عملت فى أهل البيت تسعاً وأربعين قصيدة مدحاً ، فقلت : أكملها خمسين، ثم ابتدأت فقلت :

☆ بنى أحمد يا بنى أحمد ☆

ثم أُرتج علىّ فلم أقدر على زيادة ، فعظم ذلك علىّ ، واجتهدت فى أن أكمل البيت فلم أقدر ، فحدث لى من الغم بهذه الحالة ما زاد على غمى باضاقتى وعلتى ، فنمت اهتماماً بالحال ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فجئت إليه ، فشكوت ما أنا

---

(١) صنع الأمويون مع علىّ بن أبى طالب أشنع مما صنعوا مع ابنه الحسن : فقد اتهموه بالبطنة وضعف الرأى ، وأكثروا من وصف معاوية بالسياسة والدهاء ، ومضى الناس على هذه الآراء، ويقابل هذا ما وقع من العلويين فى حقّ يزيد بن معاوية ، فقد رموه بالسفه والطيش ، ومضى الناس أيضاً على هذا الرأى ، فعلىّ فى الهاشميين رجل ساذج ، ويزيد فى الأمويين إنسان أحمق ، وكذلك أفسد الحزبان آراء الناس فلم يصح لأحد فى علمهم أديم .

وأغلب الظنّ أن ساسة العصر الحاضر سيكون حظهم فى التاريخ كحظ الساسة فى العصور الماضية : فان صور النضال السياسى تتشابه فى أكثر الأجيال ، وكذلك تتشابه حظوظ السياسيين فى التاريخ .

فيه من الاضاقة ، وما أجده من العلة ، وأخرى من القلة ، فقال لى : تصدَّق يوسع الله عليك ، وصُمْ يصح جسمك ، فقلت له : يا رسول الله ، وأعظم مما شكوته إليك أنى رجل شاعر أتشيع ، وأخص بالمحبة ولدك الحسين ، وتداخلنى له رحمة لما جرى عليه من القتل ، وكنت قد عملت فى أهل بيتك تسعاً وأربعين قصيدة ، فلما خلوت بنفسى فى هذا الموضع حاولت أن أكملها خمسين فبدأت قصيدة قلت فيها مصراعاً وأرتج علىّ إجازته ، ونفر عنى كل ما كنت أعرفه ، فما أقدر على قول حرف . قال : فقال لى قولا نحا فيه إلى أنه ليس هذا إلىّ ، لقول الله تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغى له . ثم قال لى : اذهب إلى صاحبك ، وأومأ بيده الشريفة إلى ناحية من نواحى المسجد ، وأمر رسولا أن يمضى بى إلى حيث أومأ ، فمضى بى الرسول إلى ناس معهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال له الرسول : أخوك وجّه إليك بهذا الرجل فاسمع ما يقوله قال : فسلمت عليه ، وقصصت عليه قصتى كما قصصت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : فما المصراع ؟ فقلت : «بنى أحمد يابنى أحمد» فقال للوقت قل :

* بكت لكمو عمد المسجد *

بِيَثْرِبَ وَاهْــتَزَّ قَبْرُ النَّبِيِّ ... أَبِى الْقَاسِمِ السَّيِّدِ الْأَصْيَدِ

وَأَظْلَمَتِ الْأُفْقُ أُفْقُ الْبِلَادِ ... وَذُرَّ عَلَى الْأَرْضِ كَالْإِثْمِدِ

وَمَكَّةُ مَادَتْ بِبَطْحَائِهَا ... لِإِعْظَامِ فِعْلِ بَنِى الْأَعْبُدِ

وَمَالَ الْحَطِيمُ بِأَرْكَانِهِ ... وَمَا بِالْبَنِيَّةِ مِنْ جَلْمَدِ

وَكَانَ وَلِيُّكُمُ خَاذِلاً ... وَلَوْ شَاءَ كَانَ طَوِيلَ الْيَدِ

قال : و رددها علىّ ثلاث مرات ، فانتبهت وقد حفظتها [١] .

٩ — ومن أقوى مظاهر التصوف فى حب أهل البيت ما كان يقع من أنصارهم فى حضرة معاوية . ومن شواهده ما وقع من أبى الطفيل ، وكان معاوية يتشهى أن يراه فلم يزل يكاتبه ويلطف له حتى قدم عليه ، فجعل يسائله عن أمر الجاهلية ، ودخل عليه عمرو بن العاص ونفرٌ معه ، فقال لهم معاوية : أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبى الحسن ! ثم قال : يا أبا الطفيل ، ما بلغ من حبك لعلى ؟ قال : حب أمّ موسى موسى ، قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال : بكاء العجوز الثكلى والشيخ الرَّقُوب ، وإلى الله أشكو التقصير !

قال معاوية : إن أصحابى هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ماقالوا فىّ ما قلت فى صاحبك !

قالوا : إذن والله لا نقول الباطل .

فقال لهم معاوية : لا والله ، ولا الحق تقولون ! [٢]

وحدثوا أن معاوية كان يسمر مع جماعة من بنى أمية ، فذكر اسم الزرقاء ابنة عدى بن قيس الهمدانية ، وكانت شهدت مع قومها بصفين ، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : أشيروا علىّ فى أمرها ، فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها . قال : بئس الرأى أشرتم به علىّ . أيحسن بمثلى أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعد ماظفر بها ؟ وكتب إلى عامله بالكوفة ، فأوفدها إليه ، ثم قال لها بعد الترحيب : أتدرين فيم بعثت إليك ؟ قالت : أنَّى لى بعلم ما لم أعلم ! قال : ألست الراكبة الجمل الأحمر ،

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ . (٢) مهذب الأغانى ج ٦ ص ٣٦ .

والواقفة بين الصفين تحضين على القتال ، وتوقدين الحرب ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ! مات الرأس ، وبُتِرَ الذنب ، ولم يعد ماذهب ، والدهر ذو غِيَر ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أُنسيته . قال : لكني أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس ! ارعووا وارجعوا . إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، ألا من استرشد أرشدناه ومن سألنا أخبرناه » .

« أيها الناس ! إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ودمغ الحق الباطل ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنّى ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا اليوم ما بعده » .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت عليًّا فى كل دم سفكه .

فقالت : أحسن الله شارتك ، وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسرّ جليسه

قال : أوَ يسرك ذلك ؟

فقالت : نعم والله لقد سررت بالخبر ، فأنى لك بتصديق الفعل .

فضحك معاوية وقال : والله لَوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى

حياته ! اذكرى حاجتك . فقالت : يا أمير المؤمنين ! آليت على نفسى أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً (١) .

وحدثوا أيضاً أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون ، يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فاخبر بسلامتها فبعث إليها فجىء بها ، فقال : ماجاء بك يا ابنة حام ؟ فقالت لست لحام ، ان عبتنى ، أنا امرأة من بنى كنانة قال : صدقت . أتدرين لم بعثت اليك ؟ قالت : لايعلم الغيب الا الله . قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟ قالت · أوتعفينى ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما اذ أبيت فانى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى ، قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربتْ عجيزتك ! قالت : يا هذا بهند والله كان يضرب المثل فى ذلك ، لا بى ! قال معاوية : ياهذه اربعى فانا لم نقل إلا خيراً : إنه إذا انتفخ بطن المرأة تمّ خلق ولدها ، واذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، واذا عظمت عجيزتها رزُن مجلسها . فرجعت وسكنت . ثم قال: ياهذه : هل رأيت عليا ؟ قالت : إى والله ! قال : فكيف رأيته؟ قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك! قال : فهل سمعت كلامه؟ قالت : نعم ، والله ! فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت صدأ الطست

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

قال : صدقت . فهل لك من حاجة ؟ قالت : أوَ تفعل اذا سألتك ؟ قال : نعم . قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قال : فان أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ علىّ بن أبى طالب ؟ قالت : سبحان الله ! أو دونه ! فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحلم منى عليكمُ ... فمن ذا الذى بعدى يُؤَمَّل للحلمِ

خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجدٍ ... جزاك على حرب العداوة بالسِّلْمِ

ثم قال : أما والله لو كان علىّ حيًّا ما أعطاك منها شيئاً !

قالت : لا والله ، ولا وَبَرة واحدة من مال المسلمين ! (١) .

١٠ — ولهذه المواقف الثلاثة نظائر كثيرة فى الأدب العربى ، وهى تحتمل ثلاثة فروض :

الفرض الأول : أن تكون صحيحة ، وهى عندئذ شاهد صحيح على التصوف فى حبّ علىّ . والوفاء للميت بمثل هذه الصورة لا يكون إلا من قلوب عامرة بالاخلاص ، ولا سيما إذا تذكرنا أن ذلك الميت انهزم فى ميدان السياسة وانهزم ناصروه ، وتمتْ لعدوّه الغلبة فاستأثر بالحول والطول .

والفرض الثانى : أن تكون من وضع العلويين ، وهى عندئذ صورة من أهوائهم فى حبّ أهل البيت .

والفرض الثالث : أن تكون من وضع الأمويين ، ويكون الغرض من وضعها تزكية آل حرب ووصفهم برجاحة الأحلام ، فهى أيضاً صورة لما كان

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٣٢ .

مفروضا من وفاء بعض الناس لأهل البيت . والفرض الأخير لايمكن قبوله فى جميع الحالات : فنى بعض المواقف قذفٌ لآل حرب ، ورميٌ بالبغى والفسوق ، وتذكيرٌ بمخازيهم فى الجاهلية والاسلام ، وفى هذه الحال لايقبل غير الفرض الثانى : لأن معاوية مهما حلم فعنده هيبة الملك ، وهى كفيلة بأن تقف سفه الخطاب عند الحد المعقول .

١١ — ويشبه هذه المواقف ما أنطق به الرواةُ الخليفةَ المأمون فى مدح علىّ بن أبى طالب ، وأغلب الظن عندنا أن ذلك مصنوع بأيدٍ هاشمية ، وهذا الصنع له دلالته على أىّ حال ، فحماسة الشيعة كانت فى البداية حماسة سياسية ، ثم انقلبت إلى حماسة روحية ، فهم يبدئون ويعيدون فى مدح أهل البيت بقلوب غمرَها التصوف العميق .

١٢ — على أن هذه المواقف ليست كلّ شىء ، فهناك شعراء قضوا أعمارهم فى الدفاع عن أهل البيت ، ولقوا فى ذلك من المحن والمكاره مايدل على نصيبهم من صدق الوجدان : أمثال الكميت ، ودعبل ، وأبى الطفيل ، وهناك شعراء لم يقفوا حياتهم على هذا الفن ، ولكن كانت لهم فيه مواقف موصولة بصدق اليقين : أمثال الشريف الرضى ، ومهيار ، وسيكون لهؤلاء مكان فى هذا الكتاب .

١٣ — وهناك شعراء أطالوا القول فى مدح أهل البيت ، وهم شعراء الدولة الفاطمية ، ولكن هؤلاء صدقهم مشوب بروح النفع : لأن الفاطميين كانوا أقاموا مُلكا عظيما فى مصر والمغرب ، وانتصارهم كافٍ لتشكيكنا فى عواطف من مدحوهم من الشعراء .

وليس معنى ذلك أن مدح المنتصر يخلو من الصدق ، لا ، ولكن معناه أنه بعيد من التصوف لأنه متهم بحب النفع ، وهيهات أن يقف مثل ابن هانئ الأندلسي فى صف شاعر مثل الكميت !

إن أمثال ابن هانئ يمدحون أهل البيت وهم محميون بقوة الفواطم ، والمنافع تجرى حولهم من كل جانب ، أما أمثال أبى الطفيل والكميت فكانوا يمدحون أهل البيت ، والدنيا من حولهم مظلمة ، والأنس فى قلوبهم مفقود ، فهم أوفياء يائسون ، والوفاء من اليائس خُلُقٌ عظيم .

وفى هذه الحقيقة مايغنينا عن الجواب إذا سئلنا عن إغفال كثير من الشعراء الذين مدحوا أهل البيت . إن علامة التصوف هى الشجاعة ، والشجاعة لا يُحتاج إليها إلا فى مواطن الخوف ، وهى عندئذ دليل على حفظ العهد ، وصدق اليقين .



الفصل الثالث

الكميت بن زيد الأسدى

مولده وطفولته — بدايته الشعرية — اهتمام الرواة والنقاد بشعره — اخوانياته ووفاؤه — أهاجيه ومعرفته بالأنساب والأشعار وأحوال الجاهلية — حبه لأهل البيت — اعتذاره عن مدح بنى أمية .

---

١ — ولد الكميت بن زيد بالكوفة سنة ستين للهجرة . وبعض مَن ترجموا له لا يعيِّنون سنة مولده ، وإنما يقولون : ولد أيام مقتل الحسين . وعند تأمل أساليب العرب فى تقييد المواليد نجد لهم ملحظا ظريفاً فى ذلك . فهم يقولون : إن عمر بن أبى ربيعة ولد فى الليلة التى مات فيها عمر بن الخطاب ليصح لهم أن يعقّبوا بهذه النكتة ، فيقولوا : فأىّ خير رُفِع ، وأىّ شر وُضع ! لأن عمر الذى مات كان مثال الوقار ، أما عمر الذى ولد فكان مثال الطيش ، وكذلك قالوا : إن الكميت ولد فى أيام مقتل الحسين ، ليشيروا إلى أنه جاء إلى الدنيا فى أيام الأحزان العلوية ، وأنه بقصائده الهاشميات سيشفى الأحزان التى أحدقت بالعالم الاسلامى يوم جاء إلى الوجود .

٢ — مرت طفولة الكميت بين النباهة والخمول ، فلم يُعرف عنها شىء ذو بال ، ولعل أول مالفت النظر إلى ذكائه ماوقع له مع الفرزدق ، فقد حدثوا أنه وقف وهو صبى على الفرزدق وهو ينشد أشعاره ، فراع الفرزدق حسنُ

استماع الكميت ، وأخذه الزهو والخيلاء ، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبيّ ، وقال : هل أعجبك شعرى يابنىّ ؟ فأجاب الكميت : لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل ! فانتشى الفرزدق ، وأخذ المُعجبُ منه كل مأخذ ، وقال للصبيّ فى نشوة المفتون : أيسرُّك أنى أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبى فلا أريد به بدلا ، ولكن يسرنى أن تكون أمى ! فحصِر الفرزدق ، وقال : ما مرّ بى مثلها .

وهذه النادرة مع شاعر فى منزلة الفرزدق كانت كفيلة بأن تجعل لذلك الطفل شهرة بين الناس .

٣ — ويأبى الرواة إلا أن يجعلوا الكميت من الأعاجيب : فهم لا يريدون أن يجعلوه شاعراً كسائر الشعراء ، يبدأ بداية عادية ، ثم يتسامى فيسمو إلى منازل الشعر الرفيع ، وإنما يزعمون أنه نبغ دفعة واحدة ، ويذكرون أن عمه كان رئيس قومه ، وأنه قال يوماً : يا كميت لم لا تقول الشعر ؟ ثم أخذه فأدخله الماء ، وقال : لا أخرجك منه أو تقول الشعر ، فمرت به قنبرة ، فأنشد متمثلا :

يَالَكِ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ خَلاَ لَكِ الجَوُّ فَبِيضِى وَاصْفِرِى
ونَقِّرِى مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِى

فقال له عمه ورحمه : قد قلت شعراً فاخرج ! فقال الكميت : لا أخرج أو أقول لنفسى ! فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة ، وهى أول شعره ، ثم غدا على عمه فقال : اجمع لى العشيرة ليسمعوا ، فجمعهم له فأنشد :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبِيضِ أَطْرَبُ وَلاَ لَعِباً مِنِّى وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ (١)

(١) شرح شواهد المغنى ص ١٣ .

وسنرى أنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره ، لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هى صرخة شاعر فحل طال منه الصِّيال .

٤ — نترك طفولة الكميت وصباه ، ونذكر أن شاعريته ملأت الدنيا ضجيجاً ، وأصبح فى عصره وبعد عصره مضرب الأمثال ، فقد عرض بديع الزمان الهمذانى لاسمه فى رسالة الذهب والأدب فقال :

« واحتيج فى البيت ، إلى شىء من الزيت ، فأنشدت ألفاً ومائتى بيت ، من شعر الكميت ، فلم يغن » .

وعُنِى ابن الأعرابى بدرسه ، وكان ابن الأعرابى لايشغل نفسه إلا بالشعراء الفحول الذين يعرفون الأنساب ، أو يَمُتُّون بِعِرق إلى الأساليب الجاهلية وكان الجاهليون عندهم أئمة البيان .

ولم يُعْنَ ابن الأعرابى بدرس شعر الكميت فحسبُ ، بل كان يذكِّر به مَن يغفلون عنه حين يعرضون عليه ماعرفوا من معانى الشعراء [1] .

وقد شهد له الفرزدق بقوة الشاعرية ، فانه لما قدم الكوفة أسرع إليه الكميت ، فقال له : إنى قد قلت شيئاً فاسمعه منى يا أبا فراس ، قال : هاته ، فأنشده قوله فى أهل البيت :

طَرِبْتُ وَمَا شوْقاً إِلَى البِيضِ أَطْرَبُ ... وَلاَ لَعِباً مِنِّى وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ
وَلَمْ تُلْهِنِى دَارٌ وَلاَ رَسْمُ مَنْزِلٍ ... وَلَمْ يَتَطَرَّبْنِى بَنَانٌ مُخَضَّبُ
وَلاَ السَّانِحَاتُ الْبَارِحَاتُ عَشِيَّةً ... أَمَرَّ سَلِيمُ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ

(١) انظر معجم الأدباء ج ١ ص ١٢٣ .

وَلٰكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالنُّهَى ... وَخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ وَالْخَيْرُ يُطْلَبُ
إِلَى النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ ... إِلَى اللّهِ فِيمَا نَالَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنَّنِي ... بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَارًا وَأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مِنِّي جَنَاحَيْ مَوَدَّةٍ ... إِلَى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبُ
وَكُنْتُ لَهُمْ مِنْ هٰؤُلَاكَ وَهٰؤُلَا ... مِجَنًّا عَلَى أَنِّي أُذَمُّ وَأُقْصَبُ
وَأُرْمَى وَأَرْمِي بِالْعَدَاوَةِ أَهْلَهَا ... وَإِنِّي لَأُوذَى فِيهِمُو وَأُؤَنَّبُ

فقال له الفرزدق : قد طربت إلى شىء ماطرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فلا نطرب ، ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه، ثم قال له: يا ابن أخى أَذِعْ ثُمَّ أَذِعْ ، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى [(١)] .

وشهادة الفرزدق لها قيمة : فقد كان فى المتقدمين من يرى الشعراء أصحاب الحقّ الأوّل فى نقد الشعر لأنهم أعرف بعيون الكلام ، وأبصر بالمآزق التى يتعرّض لهـا الشعراء .

وبلغ من شاعرية الكميت أن صارت ديباجته عنواناً عليه يعرفه بها الرّواة، وإن لم يقرن اسمه إلى شعره : فقد حدّثوا أن هشاماً اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له : (إنه يريد خلعك) فوُجِدَ بباب هشام يوماً رقعةٌ فيها شعر ، فَدُخِلَ بها على هشام فقرئت عليه ، وهى :

تَأَلَّقَ بَرْقٌ عِنْدَنَا وَتَقَابَلَتْ ... أَثَافٍ لِقِدْرِ الْحَرْبِ أَخْشَى اقْتِبَالَهَا
فَدُونَكَ قِدْرَ الْحَرْبِ وَهْىَ مُقِرَّةٌ ... لِكَفَّيْكَ وَاجْعَلْ دُونَ قِدْرٍ جِعَالَهَا

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢٠٧ .

وَلَنْ تَنْتَهِي أَوْ يَبْلُغَ الْأَمْرُ حَدَّهُ ... فَنَلْهَا بِرِسْلٍ قَبْلَ أَنْ لاَ تَنَالَهَا
فَتَجْشَمَ مِنْهَا مَا جَشِمْتَ مِنَ الَّتِي ... بِسُورَاءَ هَرَّتْ نَحْوَ حَالِكَ حَالَهَا[1]
تَلاَفَ أُمُورَ النَّاسِ قَبْلَ تَفَاقُمٍ ... بِعُقْدَةِ حَزْمٍ لاَ تَخَافُ انْحِلاَلَهَا
فَمَا أَبْرَمَ الْأَقْوَامُ يَوْمًا لِحِيلَةٍ ... مِنَ الْأَمْرِ إِلاَّ قَلَّدُوكَ احْتِيَالَهَا
وَقَدْ تُخْبِرُ الْحَرْبُ الْعَوَانُ بِسِرِّهَا ... وَإِنْ لَمْ تَبُحْ مَنْ لا يُرِيدُ سُؤَالَهَا

فأمر هشام أن يجمع له مَن بحضرته من الرواة ، فجُمِعُوا فأمر بالأبيات فقرئت عليهم فقال : شِعْرَ مَن تُشبه هذه الأبيات ؟

فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت .

فقال هشام : نعم ! هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله[2] .

ودلالة الأسلوب على صاحبه مظهر من مظاهر قوة الشخصية بغض النظر عن القيمة الذاتية لآثار الكتاب والشعراء .

وكان بشار يتحامل على الكميت ، ويقول : ما كان الكميت شاعراً ، فقيل له : كيف ؟ وهو الذى يقول :

أَنِصْفُ امْرِئٍ مِنْ نِصْفِ حَيٍّ يَسُبُّنِي ... لَعَمْرِي لَقَدْ لاَقَيْتُ خَطْبًا مِنَ الْخَطْبِ
هَنِيئًا لِكَلْبٍ أَنَّ كَلْبًا يَسُبُّنِي ... وَأَنِّي لَمْ أَرْدُدْ جَوَابًا عَلَى كَلْبِ

فبُهت بشار ، وأجاب بجواب سخيف[3] .

وتحاملُ بشار على الكميت ليس بشيء ، فان الشعراء قد يجازى بعضهم

(١) سوراء بضم السين : موضع بالجزيرة . (٢) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢٠٦ .
(٣) انظر الأغانى ج ٣ ص ٢٢٥ .

بعضاً أسوأ الجزاء ، وقد يكون من أسباب حقد بشار على الكميت رغبته فى أن يغيظ أشياعه من الرواة والنقاد . وما قيمة تحامل بشار بجانب شهادة الجاحظ الذى قال : مافتح للشيعة الحِجَاجَ إلا الكميتُ بقوله :

فَإِنْ هِىَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَىٍّ سِوَاهُمُ فَإِنَّ ذَوِى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَوْجَبُ
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلاَ تُرَاثُهُ لَقَدْ شَرِكَتْ فِيهِ بَجِيلٌ وَأَرْحَبُ (١)

وكان الجاحظ من أعلم الناس بتطور الحركات العقلية فى الأحزاب الاسلامية .

ومن أقرب الشهادات إلى معانى الوفاء ما وقع يوم التقت رَيَّا بنت الكميت ، وفاطمة بنت أبان بن الوليد بمكة ، وهما حاجّتان ، فتساءلتا حتى تعارفتا ، فدفعت بنت أبان إلى بنت الكميت خلخالى ذهب كانا عليها ، فقالت لها بنت الكميت : جزاكم الله خيراً يا آل أبان ! فما تتركون برّكم بنا قديماً ولا حديثاً ، فقالت لها بنت أبان : بل أنتم فجزاكم الله خيراً ، فانا أعطيناكم ما يبيد ويفنى ، وأعطيتمونا من المجد والشرف ما يبقى أبداً ولا يبيد ، يتناشده الناس فى المحافل ، فيحيى ميت الذكر ، ويرفع بقية العقب (٢) .

وكان الكميت أجاد مدح أبان بن الوليد .

وكان بنو أسد يعدّون الكميت من مفاخرهم ، ويقولون : فينا فضيلة ليست فى العالَم ، ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت لأنه رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال له أنشدنى :

☆ طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ☆

---

(١) شرح شواهد المغنى ص ١٤ . (٢) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٠ .

فأنشده فقال له : بوركت وبورك قومك[١] !

وحدّث أبو عكرمة الضبي عن أبيه فقال : أدركت الناس بالكوفة يقولون.

من لم يرو : (طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ) فليس بهاشمى .

ومن لم يرو : (ذكر القلب إلْفه المهجورا) فليس بأموى .

ومن لم يرو : (هلا عرفت منازلا بالأبرق) فليس بمهلّبى .

ومن لم يرو : (طربت وهاجك الشوق الحثيث) فليس بثقفى[٢] .

وكان إلى هذا كله يوزن رأيه فى الحكم على الشعراء ، وقد أثبت صاحب الأغانى رأيه فى شعر أمية بن أبى الصلت[٣] .

وكان هو نفسه مفتوناً بالإجادة ، فقد قيل له : إنك قلت فى بنى هاشم فأحسنت ، وقلت فى بنى أمية أفضل ، فأجاب : إنى إذا قلت أحببت أن أحسن[٤] .

وقد استشهد النحاة بشعره غير مرة ، وإن كره ذلك المفضل الذى سلكه مع كثيّر ، وذى الرمة والطِرِمّاح[٥] على حين كان يراه معاذ الهرّاء أشعر الأوّلين والآخرين[٦] .

تلك منزلة الكميت عند القدماء ، فان سألتم أين منزلته فى العصر الحديث فانا نذكر أنه آخر من يهتمّ به أساتذة الأدب فى المعاهد العلمية ، وقد سبق المستشرقون إلى إحياء شعره فطبعوا هاشمياته فى ليدن سنة ١٩٠٤ ، وكتب لها أحدهم مقدمة وتصحيحات باللغة الألمانية[٧] .

---

(١) شرح شواهد المغنى ص ١٣ . (٢) شواهد المغنى ص ١٤ .
(٣) الأغانى ج ٤ ص ١٢٢ . (٤) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢٠٩ .
(٥) شرح شواهد المغنى ص ١٤ . (٦) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٠ .
(٧) انظر الهاشميات فى فهرس الأدب بدار الكتب المصرية .

٥ — كانت حياة الكميت موزّعة بين طائفة من الأهواء والميول ، فكان من الوجهة النفسية رجلا يعرف حقوق الاخوان ، فيصطفى من يصطفى على أساس العقل ، وقد لاحظ معاصروه أن ما كان بينه وبين الطِّرِمّاح من المودة لم يكن بين اثنين على تفاوت المذهب والعصبية فقيل له : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة (١) .

ومعنى هذا أن قرابة العقل كانت تجمع بين الرجلين ، وتلك لفتة خُلُقية لا يدرك قيمتها إلا الأقلون . ومن أجل هذا اهتم ابن قتيبة برواية شعره فى باب الاخوان من عيون الأخبار . فروى له فى باب المودة بالتشاكل هذه الأبيات :

وَمَا أَنَا بِالنِّكْسِ الدَّنِيءِ وَلاَ الَّذِى ... إِذَا صَدَّ عَنْهُ ذُو الْمَوَدَّةِ يَقْرُبُ
وَلٰكِنَّهُ إِنْ دَامَ دُمْتُ وَإِنْ يَكُنْ ... لَهُ مَذْهَبٌ عَنِّى فَلِى عَنْهُ مَذْهَبُ
أَلاَ إِنَّ خَيْرَ الْوُدِّ وُدٌّ تَطَوَّعَتْ ... بِهِ النَّفْسُ لاَ وُدٌّ أَتَى وَهْوَ مُتْعِبُ

وروى له فى باب شرار الاخوان :

وَقَدْ يَخْذُلُ الْمَوْلَى دُعَائِى وَيَجْتَدِى ... أَذَاتِى وَإِنْ يَعْدِلْ بِهِ الضَّيْمُ أَغْضَبِ
فَأُونِسُ مِنْ بَعْضِ الصَّدِيقِ مَلاَلَةَ الدُّ ... نُوِّ فَأَسْتَبْقِيهِمُو بِالتَّجَنُّبِ

ويتصل بصدق الأخوّة فى نفسه ما وقع له يوم مدح الحكم بن الصلت بقصيدته :

☆ طربت وهاجك الشوق الحثيث ☆

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢٠٣ .

فانه لما فرغ من إنشاده دعا الحكم بخازنه ليعطيه الجائزة. ثم دعا بأبان بن الوليد فأدخل عليه وهو مكبل بالحديد، فطالبه بما عليه من المال، فالتفت الكميت فرآه فدمعت عيناه، وأقبل على الحكم، فقال: أصلح الله الأمير! اجعل جائزتي لأبان.

وكان حوشب بن يزيد الشيباني بالمجلس، وكان يكره الكميت وأبان معاً وساءه أن يشفع الكميت لأبان، فقال: أصلح الله الأمير! أتشفِّع حمار بني أسد في عبد بجيلة؟.

فقال له الكميت: لئن قلت ذاك فوالله ما فررنا عن آبائنا حتى قتلوا، ولا نكحنا حلائل آبائنا بعد أن ماتوا .... وكان يقال إن حوشباً فرّ عن أبيه في بعض الحروب، فقتل أبوه، ونجا هو.

وفيه يقول الشاعر:

نَجَّى حُشَاشَتَهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَهُ   لَمَّا رَأَى وَقْعَ الْأَسِنَّةِ حَوْشَبُ(١)

٦ — وكما كان الكميت عذب المودة كان مرّ العداوة، وقد هاجى فريقا من الشعراء، وتعرض للحبس بسبب هجائه لبعض الأمراء، عرّض له الكلبي بهذين البيتين:

مَا سَرَّنِي أَنَّ أُمِّي مِنْ بَنِي أَسَدٍ   وَأَنَّ رَبِّيَ نَجَّانِي مِنَ النَّارِ
وَأَنَّهُمْ زَوَّجُونِي مِنْ بَنَاتِهِمُ   وَأَنَّ لِي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارِ

فأجاب الكميت:

---

(١) مهذب الأغاني ج ٥ س ٢٠٩ .

يَا كَلْبُ مَالَكَ أُمٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مَعْرُوفَةٌ فَاحْتَرِقْ يَا كَلْبُ بِالنَّارِ
لَكِنَّ أُمَّكَ مِنْ قَوْمٍ شَنِئْتَ بِهِمْ قَدْ قَنَّعُوكَ قِنَاعَ الْخِزْيِ وَالْعَارِ [١]

وحمله غرامُه بالهجاء على التفوّق فى علم الأنساب ، فانه لا شىء أخطر فى الخصومات من معرفة قديم المثالب حين تضطرم نار السباب ، ويظهر أن الكميت كان عنّى على الأوّلين من النسابين ، فقد نقل ياقوت أن ابن عبدة النساب قال :

« ماعرف النُّساب أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكميت النزاريات فأظهر بها علماً كثيراً ، ولقد نظرت فى شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها [٢] » .

وفى الأغانى أن الكميت وحماداً الراوية اجتمعا فى مسجد الكوفة فتذاكرا أشعار العرب وأيامها . فخالفه حماد فى شىء ونازعه . فقال الكميت : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : ماهو إلا الظن ؟ هذا والله اليقين ! فغضب الكميت ثم قال : لِكَم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان تروى ؟ ولكَم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد قولا غير مقنع . فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من صنف صنف ، ويسأل حماداً هل يعرفه ؟ فاذا قال لا ، أنشده من شعره جزءا جزءا حتى ضجر السامعون . ثم قال له الكميت : فانى سائلك عن شىء من الشعر فسأل عن قول يزيد بن طعمة الخطمى :

---

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١١ . (٢) معجم الأدباء ج ١ ص ٤١٠ .

طَرَحُوا أَصْحَابَهُمْ فى وَرْطَةٍ قَذْفَكَ الْمَقْلَةَ شَطْرَ الْمُعْتَرَكْ

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تَدْرِينَنَا بِالْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا تَدْرِينَ وِلْدَانًا تَصِيدُ الرَّهَادِنَا

فأُفْحِمَ حماد ، فقال له الكميت : أجّلتك إلى الجمعة الأخرى ، فجاء حماد ولم يأت بتفسيرها ، وسأل الكميت أن يفسرها له ، فقال : المقلة حصاة أو نواة من نوى المقل يحملها القوم معهم إذا سافروا وتوضع فى الاناء ، ويصب عليها الماء حتى يغمرها فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر : النصيب ، والمعترك الموضع الذى يختصمون فيه فى الماء ، فيلقونها هناك عند الشرب ، وقوله : (تدريننا) يعنى النساء : أى ختلننا فرميننا ، والرهادنُ : طير بمكة كالعصافير [1].

ولم يقف الكميت بعلمه عند أنساب العرب وأشعارها ، بل مضى فعرف أخبار الناس فى الجاهلية ، وكانت له جدتان أدركتا ذلك العهد ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس فى الجاهلية ، فاذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه . ومن هنا كان علمه بالبادية فى أكثره علم سماع لا علم معاينة ، وقد تنبه إلى ذلك ذو الرمة حين أنشده بائيته التى عارض بها قصيدته .

* مابال عينك منها الماء ينسكب *

فقال له : « ويحك ! انك لتقول قولا ما يقدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشىء : فلا تجىء به ، ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً منه » .

---

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٢ و ٢١٣ .

فقال الكميت : أو تدرى لم ذلك ؟ قال : لا . فقال : لأنك تصف شيئا رأيته بعينك ، وأنا أصف شيئاً وُصف لى وليست المعاينة كالوصف [١] .

وهذا كله يدلنا على أن الكميت استعد للثقافة الشعرية استعداداً بلغ فيه أقصى الجهد ، وكثير من شعره يجرى مجرى التاميح لما وقع بين القبائل ، على نحو ما نرى فى هذا البيت :

كَأَنَّ الغُطَامِطَ مِنْ غَلْيِهَا أَرَاجِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غِفَارَا [٢]

٧ — — ننتقل إلى الأهم من أمر الكميت ، وهو حبه لأهل البيت ، وليس من المغالاة أن تقول : إن حبه للرسول وأهله كان أقوى ما عُرِف من عواطف الشعراء لذلك العهد ، وهو فى حبه هذا يمثل الروحانية أصدق تمثيل ، وماظنكم برجل يفنى فى حبه فناء تنمحى الدنيا فى سبيله ، أو تكاد ، ويمضى فيتغنى بحب الرسول وأهل بيته فى أيام كان مدح الرسول فيها يعرّض الشاعر لغضب بنى أمية ، وبيدهم الحول والطول . وما كان بنو أمية بكافرين حتى يؤذيهم مدح الرسول ، ولكن السياسة كما أشرنا من قبل كانت ترى فى مدح الرسول تزكية للهاشميين ، وكان الكميت يصرح بأنهم انتهبوا الخلافة بغير حق ، وهى فى رأيه ميراث الرسول لا يصلح لها إلا أهله الأقربون .

وشواهد التاريخ تدلنا على أن الهاشميين كانوا فى حال من اليأس لا يرهبهم فيها عدو ، ولا يرجوهم صديق ، وهذا يزيد فى أقدار من تعصبوا لهم من الشعراء ، ولا سيما إذا لاحظنا أن الكميت كان يتوجع لبنى هاشم توجعاً يثير

---

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٤. (٢) الغطامط : صوت الغليان ، وأسلم وغفار : قبيلتان كانت بينهما مهاجاة . انظر عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٦٥ .

الدمع ، وكان يحنّ إلى مودتهم حنينا هو أقباس من التصوف ، وكانت له معهم نوادر تفصح عن صدق سريرته أجمل إفصاح ، وإليك هذا المثال :

دخل الكميت على أبى عبد الله جعفر بن محمد ، فقال له : جُعلت فداك ! ألا أنشدك ؟

فقال أبو عبد الله : إنها أيام عظام ! فقال الكميت : إنها فيكم . فقال هات ! وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب فأنشده ، وكثر البكاء حين أتى على هذا البيت :

يُصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوْسِ غَيْرِهِمْ   فَيَا آخِرًا أَسْدَى لَهُ الْغَىَّ أَوَّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه ، وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسرّ وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى !

ومن المؤكد عندنا أن هذه الدعوة كانت أحب إلى قلب الكميت من سنىّ العطاء ، ودليلنا على ذلك أنه دخل يوما على أبى عبد الله فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال له الكميت :

« والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه ، ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم ، فأنا أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله » وكذلك ردّ المال ، وقبل الثياب (١) .

ودخل على فاطمة بنت الحسين ، فقالت : هذا شاعرنا أَهْلَ البيت ! وجىء بقدح فيه سويق فحركته بيدها ، وسقت الكميت فشربه ، ثم

---

(١) راجع مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٣ .

أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب ، فهملت عيناه ، وقال :

« والله لا أقبلها إنى لم أحبكم للدنيا [١] »

فان لم يكن هذا الولاء تصوفاً وروحانية ، فأين يكون التصوف ، وأين تكون الروحانية ؟ وكان هو نفسه يؤمن بأنه يسير فى طريق الحق ، ويعتقد بأنه يتقرب إلى الله بحب أهل البيت ، وشاهد ذلك أنه رأى النبي فى نومه ، وهو مختفٍ بعد أن هرب من السجن ، فقال له الرسول : مِمّ خوفك ؟

فقال : يارسول الله ، من بنى أمية ، وأنشده :

أَلَمْ تَرَنِى مِنْ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ أَرُوحُ وَأَغْدُو خَائِفاً أَتَرَقَّبُ

فقال له رسول الله : اظهر فان الله قد أمَّنك فى الدنيا والآخرة .

وقد اطمأنت جماهير المسلمين إلى صدق الكميت ، وكان خصومه من الشعراء يعادونه فى هيبة وحذر خوفا من غضب الرسول ، وقد حدثوا أن دعبلا لما ناقض الكميتَ فى قصيدته التى هجا بها قبائل اليمن رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فنهاه عن ذكر الكميت بسوء [٢] .

والعلم الذى نعرفه ، وهو علم قليل ، يشرح هذه الأحلام شرحا مقبولا ، وهو يجعلها دليلا على نيات من يحلمون ، فاذا استطاع العلم بعد اليوم أن يثبت صلة الارواح بالأحياء ، فسنعرف يومئذ أن الكميت كان قريبا كل القرب من روح الرسول .

٨ — وقد أُثِرَت عن الكميت مواطن مدح فيها بنى أمية ، فكيف يتفق ذلك لشاعر أخلص فى حب أهل البيت ؟ . ونجيب بأنه كان ينتمى أحيانًا إلى

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٤ . (٢) الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ طبع الساسى .

بنى أمية ليق أعراض بنى هاشم ، فقد لامه ابنه على أن افتخر ببنى أمية ، وهو يهاجى الكلبيّ عدوَّه ، فأجاب :

« يابنى ! أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء علىّ عليه السلام ، فلو ذكرت عليًا لترك ذكرى ، وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرَّضت عليا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت إن نقضها علىّ قتلوه ، وان أمسك عن ذكرهم قتلته غمًا وغلبته [1] » .

وكان الأمر كما قال : أمسك الكلبيّ عن جوابه فغلب عليه وأفحم الكلبي .

ودخل يوما على أبى جعفر محمد بن على ، فقال له : يا كميت ! أنت القائل :

وَالآنَ صِرْتُ إلَى أُمَيَّةَ وَالأُمُورُ إلَى مَصَايِرْ

فأجاب الكميت : نعم ! قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم [2] .

وهذا الجواب غاية فى أدب النفس : فالشاعر لا ينكر أنه مدح بنى أمية وإنما يعترف بأنه لم يرد بذلك إلا الدنيا ، أما الآخرة فقد أرادها بمدح أهل البيت .

ولنتذكر أنه قال هذا القول بمسمع من بنى أمية ، وبأيديهم مفاتيح الخزائن ومقاليد السجون : فهو منهم بين الرجاء والخوف . ولم يمنعه ذلك الموقف الحرج من التصريح بأنه لم يمدحهم إلا للدنيا الفانية . وهذا التصريح هو فى ذاته قصيدة هجاء ، وهل ينكر أحد أن الاعتراف يهدم الاقتراف ؟

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٢ . (٢) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٠ .

على أنه إن صحّ أن الشعر دليل على وجدان الشاعر فسيبقى من شواهد صدقه أن شعره فى الهاشميين أقوى من شعره فى بنى أمية ، فليست أشعاره فى الأمويين إلا قصائد مديح لها نظائر وأمثال فى اللغة العربية ، أما قصائده الهاشميات فهى أعز من أن يكون لها نظائر وأمثال .



الفصل الرابع

هاشميات الكميت

إلحاح الشاعر فى وصف بنى هاشم بكرم الأخلاق — تعلق المنهزمين فى السياسة بأهداب المثل الأعلى — صور من أخلاق الهاشميين — الهاشميات من القصائد الطوال — مظاهر التجديد عند الكميت — مدح أهل البيت فرع من المدائح النبوية — مقارعة الأمويين فى البائية واللامية — ملامح من عاطف القصيدتين — مظهر التصوف فى البائية .

١ — أول خصيصة لهذه القصائد هى الروح العقلية ، فالشاعر لايشغلنا بنفسه ولا بفنه ، وإنما يشغلنا بالتفكير فى مصير الأمة الاسلامية ، وهو يسوق ذلك بتصوف عجيب ، فالخلافة ليست عنده ولاية للحكم تعود على الخلفاء وأشياعهم بالجاه وبالأموال ، وإنما هى ميزان للعدل لايقوم به إلا المصطفون الأخيار .

ومن أجل ذلك نراه يلح فى وصف بنى هاشم بكرم الأخلاق . ويظهر مما اطلعنا عليه أن الهاشميين كانوا فى ذلك العهد أقرب الناس إلى لطف الشمائل ، وكرم الخصال . وقليل من الاستقصاء يرينا أن الحرص على الأخلاق الشريفة يكون غالباً من خواص من ينهزمون فى الميادين السياسية . ولنا على ذلك شواهد فى الشرق والغرب : فالحزب الملكى فى فرنسا يظهر غيرة شديدة على الأخلاق ، والحزب الوطنى فى مصر يميل أنصاره إلى مؤازرة الجمعيات

الاسلامية . وتعليل ذلك سهل : فان المرء يحب أن يتسلح بالقوة ، فان أعوزته القوة تسلح بالخلق الجميل .

وليس معنى هذا أن المنهزمين فى ميادين السياسة يتجرون بالأخلاق ، لا ولكن معناه أن قوى المنهزمين فى السياسة تحول إلى معانٍ روحية ووجدانية وعلى أكتاف هؤلاء المنهزمين تقوم المبادئ الصوفية ، التى لا تترعرع إلا فى صدور من خلصوا من هموم السلطان ، وأقبلوا على عالم الروح .

ومن هنا نفهم أن الكميت كان يدافع عن المثل الأعلى ، كان يريد أن تقوم الدولة على أساس الدين : أى على أساس النزاهة المطلقة التى لا يشوبها جور ولا رياء ولا خداع ، وهذا المثل الأعلى هو الذى هزم الهاشميين ونصر الأمويين : ذلك بأنه لا يكفى أن تقوم النزاهة من جانب واحد هو جانب الحكام ، وانما يجب لنصرة المثل الأعلى أن تغمر النزاهة أيضاً صدور المحكومين ، والدنيا كما عرفناها وعرفها الناس : فيها الرشد والغىّ ، والقناعة والطمع ، والبِرّ والعقوق. وقيام الملك لا يغنى فيه زهد علىّ ، كما يغنى دهاء معاوية ، ولهذا رأينا الحكماء يتمثلون حكومة العدل المطلق حكومة وهمية ، فيصورونها فى كتبهم على أنها أمانىّ وأحلام . ويابعد ما بين الحقيقة والخيال !

فمن جوانب الضعف عند الكميت أن لا يفهم أن الأخلاق دولة أعز من دولة السلطان ، وأنه لا يليق بصاحب الخلق المتين أن يبكى ما ضاع منه كلما رأى أهل الدنيا يمرحون فى ظلال الترف والنعيم .

ولكن هذا الضعف هو عين القوة ، فالرجل يرى المثل الأعلى فى الجمع بين

السيطرة والزهد ، ولو صح لنا أن نلومه على ذلك لجاز أن نتصور أن صيحات المصلحين لغو وفضول .

وأهل الدنيا فى الأغلب يرون كلمات الحكماء نوعا من الثرثرة ، ولكن العواقب تحكم دائما بأن الحق كان من نصيب أولئك المستضعفين . على أن أمثال بنى أمية لم يستتب لهم الملك لأنهم عرفوا كيف يثون الرجاء والخوف . وإنما تماسك الناس بفضل ما عرفوا واصطنعوا من الخلق والدين . ولو تُرك المسيطرون وجهاً لوجه أمام الجماهير التى لا يميلها غير الرجاء ، ولا يرهبها غير الخوف ، لانهزموا أقبح انهزام . فان الشعب الذى لا يتماسك بفضل ما ورث من الأخلاق لا يمسكه خوف ولا رجاء .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكميت لم يفهم كيف يقوم الملك ، ولو قد فهم لنصح الهاشميين باصطناع ما اصطنع الأمويون من التخلق بخلق المعاش ، والمعاش أخلاق يحسنها من يعرفون كيف تجمع الثروة ، وكيف يُخلق الأنصار والأعوان ، كما فعل معاوية الذى لم يقض سنيه عبثاً يوم ولاه عمر بن الخطاب على الأقطار الشامية ، بل بذل ما يملك من جهد ودهاء فى خَلق الأنصار والأعوان ، لتكون الشام ذخيرة حربية حين يبدو فى أفق السياسة ما يدعو إلى الزحف للأخذ بناصية الملك

ولكن هذه الغفلة من جانب الكميت هى أساس القوّة الروحية ، فلو أنه شك لحظة فى صحة ما عليه الهاشميون من الأخلاق لما نافح عنهم بتلك القصائد الطوال ، ولو تطرق إلى ذهنه أن الملك يحتاج إلى المداهنة فى معاملة

الناس لما وصل إلى تلك العظمة النفسية التى تطالعنا بوادرها كلما نظرنا فى الهاشميات .

والهاشميون أنفسهم لو حاولوا التخلق بأخلاق الأمويين لانهزموا فى ميدان الدنيا وميدان الدين ، وقوّة الرجل أن يقف حيث وقفته الفطرة ، فيقسو ويرقّ وَفقاً لما فى فطرته من عناصر العنف واللين .

٢ — أقول هذا لأبين أثر السذاجة فى أحكام هذا الشاعر من الوجهة النفسية ، فهو حين يمدح الهاشميين بكرم الأخلاق يقف عند الشمائل الصريحة التى يتحلى بها أهل الشهامة والنبل ، فيقول :

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجِنُّ وَأُبْدِي　　لِبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ
لِلْقَرِيبِينَ مِنْ نَدًى وَالْبَعِيدِيـ　　ـنَ مِنَ الْجَوْرِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ
وَالْمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأَ النَّا　　سُ وَمُرْسِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ
وَالْحُمَاةِ الْكُفَاةِ فِي الْحَرْبِ إِنْ لَفَّ　　ضِرَامٌ وَقُودَهُ بِضِرَامِ
وَالْغُيُوثِ الَّذِينَ إِنْ أَمْحَلَ النَّا　　سُ فَمَأْوَى حَوَاضِنِ الْأَيْتَامِ
وَالْوُلَاةِ الْكُفَاةِ لِلْأَمْرِ إِنْ طَرَّ　　قَ يَثْنَا بِمُجْهَضٍ أَوْ تَمَامِ
وَالْأُسَاةِ الشُّفَاةِ لِلدَّاءِ ذِي الرِّيـ　　ـبَةِ وَالْمُدْرِكِينَ بِالْأَوْغَامِ
لِكَثِيرِينَ طَيِّبِينَ مِنَ النَّا　　سِ وَبَرِّينَ صَادِقِينَ كِرَامِ
وَاضِحِي أَوْجُهٍ كِرَامٍ جُدُودٍ　　وَاسِطِي نِسْبَةٍ لُهَامٍ فِهَامِ
لِلذُّرَى فَالذُّرَى مِنَ الْحَسَبِ الثَّا　　قِبِ بَيْنَ الْقَمْقَامِ فَالْقَمْقَامِ (١)

(١) القمقام . بالفتح ويضم : هو السيد .

رَاجِحِى الْوَزْنِ كَامِلِى الْعَدْلِ فى السِّيرَةِ طَبِّنَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
مُسْتَفِيدِينَ مُتْلِفِينَ مَوَاهِبَ مَطَاعِيمَ غَيْرَ مَا أَبْرَامِ (١)
وَمَدَارِيكَ لِلذُّحُولِ مَتَارِيكَ وَإِنْ أُحْفِظُوا لِعُورِ الْكَلاَمِ (٢)
لاَ حُبَاهُمْ تُحَلُّ لِلْمَنْطِقِ الشَّغْبِ وَلاَ لِلطَّامِ يَوْمَ اللَّطَامِ
وَإِذَا الْحَرْبُ أَوْمَضَتْ بِسَنَا الْحَرْبِ وَسَارَ الْهُمَامُ نَحْوَ الْهُمَامِ
فَهُمُ الْأُسْدُ فى الْوَغَى لاَ اللَّوَاتِى بَيْنَ خِيسِ الْعَرِينِ وَالْآجَامِ
أُسْدُ حَرْبٍ غُيُوثُ جَدْبٍ بِهَا لِيلُ مَقَاوِيلُ غَيْرُ مَا أَفْدَامِ (٣)
لاَ مَهَاذِيرُ فى النَّدِىِّ مَكَاثِيرُ وَلاَ مُصْمِتُونَ بِالْإِفْحَامِ
وَهُمُ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمْرِ بِتَقْوَاهُمْ عُرًى لاَ انْفِصَامِ
وَمُحِلُّونَ مُحْرِمُونَ مُقِرُّونَ لِحِلٍّ قَرَارُهُ وَحَرَامِ

وتلك أخلاق صريحة كلها شرف ونبل ، وهى تمثل فهم الكميت لخلائق الأشراف ، وأهل البيت فى شعره رجال بررة ، كرام ، شجعان ، فصحاء لا يكثرون فى هذر ، ولا يصمتون مفحمين ، وهم فوق ذلك كله يعتصمون بالتقوى فلا يُحِلُّون ولا يحرِّمون إلا بوحى الدين الحنيف .

وهم مع هذه الأخلاق الصريحة ساسة ، ولكنهم ليسوا كالساسة الذين يرعون الناس كما يرعون الأنعام :

لاَ كَعَبْدِ الْمَلِيكِ أَوْ كَوَلِيدٍ أَوْ كَسُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهِشَامِ

---

(١) أبرام جمع برم بالتحريك : وهو من لا يدخل مع القوم فى الميسر ، وذلك علامة البخل .
(٢) الذحول جمع ذحل بالفتح : وهو الثأر ، والعور : جمع عوراء : وهى كلمة الفحش .
(٣) أفدام جمع فدم بالفتح : وهو العيى عن الكلام فى ثقل ورخاوة .

رَايُهُ فِيهِمُ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَّـــةِ فِى الثَّائِجَاتِ جُنْحَ الظَّلَامِ[1]
جَزَّ ذِي الصُّوفِ وَانْتِقَاءٌ لِذِي المُخَّـــةِ نَعْقًا وَدَعْـــدَعًا بِالْبِهَامِ
مَنْ يَمُتْ لاَ يَمُتْ فَقِيدًا وَإِنْ يَحْـــيَ فَلاَ ذُو إِلٍّ وَلاَ ذُو ذِمَامِ

وهذه الأبيات تمثل رأيه فى بنى أمية ، كل همهم أن يعاملوا الرعية معاملة الضأن : يجزون ذوات الصُّوف ، ويأكلون السمينات .

وهجاء بنى أمية عنصر أصيل من عناصر الهاشميات ، وهو على كثرة ألوانه يرجع إلى أصلين . الأوّل : أن بنى أمية انتهبوا الخلافة من غير حق ، والثانى : أنهم ساروا فى الناس سيرة الجور والاعتساف .

٣ — ندع هذا ، وننتقل إلى التعريف بالهاشميات فنقول :

أهمّ هذه القصائد أربع : بائيتان ، مطلع الأولى :

طَرِبْتُ وَماشَوْقًا إِلَى الْبِيضِ أَطْرَبُ وَلاَ لَعِبًا مِنِّى وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ

وعدة أبياتها ١٣٨ ، ومطلع الثانية :

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ مِنْ حَيْثُ لاَ صَبْوَةٌ وَلاَ رِيَبُ

وعدّة أبياتها ٦٧ ، والثالثة لامية ، ومطلعها :

أَلاَ هَلْ عَمٍ فى رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ وَهَلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الْإِسَاءَةِ مُقْبِلُ

وعدّة أبياتها ٨٩ ، والرابعة ميمية ، ومطلعها :

---

(١) الثائجات جمع ثائجة من الثؤاج بالضم : وهو صياح الغنم ، والثلة بالفتح : جماعة الغنم أو الكثير منها .

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهَامِ غَيْرَ مَا صَبْوَةٍ وَلاَ أَحْلاَمِ

وعدّة أبياتها ١٠٢ .

فهى إذن قصائد طوال ، والذى عالج الشعر فى اللغة العربية يعرف أن القصيدة لاتجاوز المائة بيت إلا حين تستبدّ بعقل الشاعر وخياله وهواه ، فان وحدة الوزن والقافية فى الشعر العربى تفرض طبع الذهن على غرار موحّد ، وتدور بالشاعر حول أنغام موسيقية متماثلة الأوضاع . والشاعر الأوربى الذى ينظم قصيدة من مائة بيت لا تحوم نفسه فى جوّ واحد على نحو ما يفعل الشاعر العربى ، لأن اختلاف الوزن والقافية فى الأشعار اللاتينية والسكسونية يعطى فرصاً من راحة النفس لا يظفر بها الشاعر العربى الذى يلتزم وحدة الوزن والقافية. ونخرج من هذا بنتيجة محتومة : هى أن الكميت احتفل بهاشمياته كل الاحتفال وأساس التجويد فى جميع الفنون هو التهيؤ والاستعداد لإنضاج الصور الشعرية والملامح الفنية .

والكميت نفسه يشعر بخطر هذه القصائد ، فيقول فى ختام اللامية :

فَدُونَكُمُوهَا يَالَ أَحْمَدَ إِنَّهَا مُقَلَّلَةٌ لَمْ يَأْلُ فِيهَا المُقَلِّلُ (١)
مُهَذَّبَةٌ غَرَّاءُ فى غِبِّ قَوْلِهَا غَدَاةَ غَدٍ تَفْسِيرُ مَا قَالَ مُجْمِلُ
أَتَتْكُمْ عَلَى هَوْلِ الجَنَانِ وَلَمْ تُطِعْ لَنَا نَاهِيًا مِمَّنْ يَئِنُّ وَيَرْحَلُ
وَمَا ضَرَّهَا أَنْ كَانَ فى التُّرْبِ ثَاوِيًا زُهَيْرٌ وَأَوْدَى ذُو القُرُوحِ وَجَرْوَلُ

وهذا الزهوّ يحدثنا بأفصح بيان عن اطمئنان الكميت إلى قوّة هذه القصائد

---

(١) مقللة : موجزة ، والمقلل : الموجز . والغرض أنها أقل ما ينبغى ، ولكن الشاعر بلغ الجهد .

الطوال ، وهو يضع نفسه فى منزلة زهير وامرئ القيس والحطيئة ، فى أيام كان فيها أولئك الشعراء من السباقين الذين لايشق لهم غبار .

٤ — ولا مندوحة لنا من الاشارة إلى ما فى تلك القصائد من بعض السمات الجاهلية ، فوصف الناقة له فى تلك المطولات مكان ، وكان وصف الناقة من البدع الشعرية التى أذاعها الجاهليون وتابعهم فيها فريق من الشعراء الاسلاميين، وهى بدعة كان يوحيها ظرف الزمان والمعاش ، ولكنها تحولت إلى موضوع فنىّ يتسابق إلى التجويد فيه كبار الشعراء بسبب ما فى النوق من الْجَمَال .

٥ — ومن مظاهر التجديد فى الفن الشعرى عند الكميت هو زهده فى بكاء الأطلال والرسوم ، وقَصْرُ هواه على الحنين إلى أهل البيت ، وسينتهب أبونواس هذه اللفتة ، وسيقول الناس، وقد قالوا: إن أبا نواس هو أوّل من زهد فى بكاء الرسوم والأطلال ، فلنعلم الآن أن الكميت هو صاحب هذه البدعة الشعرية ، والفرق بين الرجلين : أن الكميت ينصرف عن بكاء الدِّمن الدوارس ليمدح أهل البيت : رهط الرسول ، أما أبو نواس فينصرف عن وصف الديار الخالية ليقف همه على وصف الخمر ومجالس الشراب .

٦ — والكميت لا يمدح أهل البيت لذواتهم ، وإنما يعلل مدحه إياهم بقرابتهم من الرسول ، كقوله فى البائية الكبرى :

إِلَى النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ ... إِلَى اللهِ فِيما نَالَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنَّنِي ... بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَاراً وَأَغْضَبُ

وقوله فى الميمية :

أُسْرَةُ الصَّادِقِ الْحَدِيثِ أَبِي الْقَا ... سِمِ فَرْعِ الْقُدَامِسِ الْقُدَّامِ (١)
خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ مِنْ بَنِي آ ... دَمَ طُرًّا مَأْمُومِهِمْ وَالْإِمَامِ
كَانَ مَيْتًا جَنَازَةً خَيْرَ مَيْتٍ ... غَيَّبَتْهُ مَقَابِرُ الْأَقْوَامِ *
وَجَنِينًا وَمُرْضَعًا سَاكِنَ الْمَهْـ ... ـدِ وَبَعْدَ الرَّضَاعِ عِنْدَ الْفِطَامِ
خَيْرَ مُسْتَرْضَعٍ وَخَيْرَ فَطِيمٍ ... وَجَنِينٍ أُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ
وَغُلَامًا وَنَاشِئًا ثُمَّ كَهْلًا ... خَيْرَ كَهْلٍ وَنَاشِئٍ وَغُلَامِ
أَنْقَذَ اللَّهُ شِلْوَنَا مِنْ شَفَا النَّا ... رِ بِهِ نِعْمَةً مِنَ الْمُنْعَامِ
لَوْ فَدَى الْحَيُّ مَيِّتًا قُلْتُ نَفْسِي ... وَبَنِيَّ الْفِدَا لِتِلْكَ الْعِظَامِ

وقوله أيضاً فى تلك البائية وهو يقارع الأمويين :

وَقَالُوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأُمَّنَا ... وَمَا وَرَّثَتْهُمْ ذَاكَ أُمٌّ وَلَا أَبُ
يَرَوْنَ لَهُمْ حَقًّا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا ... سَفَاهًا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجَبُ
وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ آمِنَةَ الَّذِي ... بِهِ دَانَ شَرْقِيٌّ لَكُمْ وَمُغَرِّبُ
فِدًى لَكَ مَوْرُوثًا أَبِي وَأَبُو أَبِي ... وَنَفْسِي وَنَفْسِي بَعْدُ بِالنَّاسِ أَطْيَبُ
بِكَ اجْتَمَعَتْ أَنْسَابُنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ ... فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ نُدْعَى وَنُنْسَبُ
حَيَاتُكَ كَانَتْ مَجْدَنَا وَسَنَاءَنَا ... وَمَوْتُكَ جَدْعٌ لِلْعَرَانِينِ مُوعِبُ
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ ... عَلَيْهَا وَفِيهَا اخْتَارَ شَرْقٌ وَمَغْرِبُ
فَبُورِكْتَ مَوْلُودًا وَبُورِكْتَ نَاشِئًا ... وَبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ
وَبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ وَبُورِكَتْ ... بِهِ وَلَهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ يَثْرِبُ

(١) القدامس بالضم ، ومثله القدموس : هو الشريف ، والقدام بضم القاف : المقدم .

لَقَدْ غَيَّبُوا بِرًّا وَصِدْقًا وَنَائِلاً   عَشِيَّةَ وَارَاكَ الصَّفِيحُ الْمُنَصَّبُ

وهذه الشواهد تكفى للدلالة على أن مدح أهل البيت عند هذا الشاعر فرع من المدائح النبوية ، فأهل البيت يكرمون عليه لأنهم أسباط الرسول ، ولولا هذه الآصرة لما انعطف إليهم كل هذا الانعطاف .

٧ — ولكن ماهى كبرى هذه القصائد وأحقها بالخلود ؟

إن القدماء مجمعون على أن البائية الأولى هى خير تلك القصائد ، والكميت نفسه يرى هذا الرأى ، أما أنا فأرى اللامية أضخم وأخل ، ولا عجب فى أن يختلف رأى الشاعر والناقد: فان الناقد يتفق له أحيانا أن يرى ما لايرى الشاعر فى الحكم على قصائده ، ولكل منهما وجهة ، فالشاعر يقدم إحساسه الخاص ، والناقد ينظر إلى نواح فنية قد لاينتبه إليها الشاعر فى بعض الأحيان ، ألا يقع فى كل يوم أن يتعصب الأب لأحد أبنائه على حين يرى الناس ذلك الابن أقلّ إخوته علماً ، وأضعفهم رأياً ، وأسقمهم بياناً ؟

وقد اتفق للمرحوم شوقى أن أعلن أن خير قصائده هى النونية التى قالها فى توت عنخ آمون ، فلما لقيته قلت له : أنت ياشوقى بك لاتعرف شعرك إن خير قصائدك هى قصيدة « الأندلس الجديدة » فابتسم وأخذ يجهد نفسه فى تعرُّف خصائص تلك القصيدة التى لم يرها خير ماقال !

فلنأخذ الآن فى موازنة قصيرة جدا بين موضوعات هاتين القصيدتين : البائية واللامية لنرى أيهما أرجح فى الميزان .

٨ — تقع البائية فى ١٣٨ بيت ، وتقع اللامية فى ٨٩ بيتاً ، فالأولى أطول من الثانية ، وعند الدرس نجد البائية افتتحت بأربعة أبيات جرت مجرى التمهيد ،

ونجد الشاعر وصف الناقة بأبيات بلغت عدتها ٢٧ ، وعلى ذلك يكون ما وقع من القصيدتين فى صميم الموضوع متقاربا فى الطول .

ولنسارع فنقرر أن الذى حبب البائية إلى الناس هو عناية الشاعر ببكاء القتلى من أهل البيت ، وأن الذى حبب اللامية إلينا هو إلحاح الشاعر فى تقبيح الظلم والظالمين ، فمعاصرو الكميت ينظرون إلى البائية بعين ، ونحن ننظر إلى اللامية بعين . وقد يكون مما يقدّم قصيدة على قصيدة أن يُنظَر إلى ما فى الشعر من المعانى الباقية ، فالرثاء ضرورة وقتية ، أما حرب الظلم فيبقى ما بقى الانسان الذى سماه أرسطو : (الحيوان الناطق) ونسميه نحن : (الحيوان الاثيم) .

وقد عرض الكميت فى البائية لمقتل الحسين فوصفه بمنعفر الخدين مترب الجبين ، ومن أجل ذلك كانت بائية الكميت أثيرة لديه ولدى النقاد لما تعرضت له من شرح الفواجع التى حلت بأهل البيت . وقد رأينا من قبل أن المناحة كانت تقام لانشاد تلك البائية ، ولننظر قوله فى التوجع لمصاب الحسين :

وَمِنْ أَكْبَرِ الْأَحْدَاثِ كَانَتْ مُصِيبَةٌ ... عَلَيْنَا قَتِيلُ الْأَدْعِيَاءِ الْمُلَحَّبُ (١)

قَتِيلٌ بِجَنْبِ الطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَيَالَكَ لَحْمًا لَيْسَ عَنْهُ مُذَبِّبُ

وَمُنْعَفِرُ الخَدَّيْنِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... أَلَا حَبَّذَا ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُتَرَّبُ

قَتِيلٌ كَأَنَّ الْوُلَّهَ العُفْرَ حَوْلَهُ ... يَطُفْنَ بِهِ شُمُّ الْعَرَانِينِ رَبْرَبُ (٢)

وقد سُبقت هذه الأبيات بشعر فيه ذكرى من مضوا قبل الحسين ، وعقبت بأبيات عمن حصدهم بعده الموت ، ثم قال :

---

(١) من لحبه بالسيف : ضربه . (٢) العفر جمع عفراء : وهى الظبية ، والعرانين : الأنوف .

مَضَوْا سَلَفًا لاَ بُدَّ أَنْ مَصِيرَنَا إِلَيْهِمْ فَغَادٍ نَحْوَهُمْ مُتَأَوِّبُ
كَذَاكَ المَنَايَا لاَ وَضِيعًا رَأَيْتُهَا تَخَطَّى وَلاَ ذَا هَيْبَةٍ تَتَهَيَّبُ
وَقَدْ غَادَرُوا فِينَا مَصَابِيحَ أَنْجُمًا لَنَا ثِقَةٌ أَيَانَ نَخْشَى وَنَرْهَبُ
أُولَئِكَ إِنْ شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى أَمَانِيُّ نَفْسِي وَالْهَوَى حَيْثُ يُسْقَبُ (١)

٩ — ونذكر بعد ذلك أن البائية واللامية تلتقيان فى بعض الموضوعات فان الشاعر عرض لهجاء بنى أمية ورميهم بالظلم والاستبداد غير حذر ولا هياب ، فرماهم فى البائية بايثار الفتنة ، ومجانبة الحق ، والتحزب للضلال ، فقال :

فَيَالَكَ أَمْرًا قَدْ أَشَتَّتْ أُمُورُهُ وَدُنْيَا أَرَى أَسْبَابَهَا تَتَقَضَّبُ
يَرُوضُونَ دِينَ الحَقِّ صَعْبًا مُحَرَّمًا بِأَفْوَاهِهِمْ وَالرَّائِضُ الدِّينَ أَصْعَبُ
إِذَا شَرَعُوا يَوْمًا عَلَى الغَيِّ فِتْنَةً طَرِيقُهُمُ فِيهَا عَنِ الحَقِّ أَنْكَبُ
رَضُوا بِخِلَافِ المُهْتَدِينَ وَفِيهِمُ مُخَبَّأَةٌ أُخْرَى تُصَانُ وَتُحْجَبُ
وَإِنْ زَوَّجُوا أَمْرَيْنِ جَوْرًا وَبِدْعَةً أَنَاخُوا لِأُخْرَى ذَاتِ وَدْقَيْنِ تُخْطَبُ
أَلَحُّوا وَلَجُّوا فِى بِعَادٍ وَبِغْضَةٍ فَقَدْ نَشِبُوا فِى حَبْلِ غَيٍّ وَأَنْشَبُوا
تَفَرَّقَتِ الدُّنْيَا بِهِمْ وَتَعَرَّضَتْ لَهُمْ بِالنِّطَافِ الآجِنَاتِ فَأُشْرِبُوا
إِذَا قِيلَ هٰذَا الحَقُّ لاَ مَيْلَ دُونَهُ فَأَنْقَاضُهُمْ فِى الحَقِّ حَسْرَى وَلُغَّبُ
وَإِنْ عَرَضَتْ دُونَ الضَّلاَلَةِ حَوْمَةٌ أَخَاضُوا إِلَيْهَا طَائِعِينَ وَأَوْثَبُوا

---

(١) حيث يسقب : حيث يولد .

وَقَدْ دَرَسُوا الْقُرْآنَ وَأَفْلَجُوا بِهِ ... فَكُلُّهُمُ رَاضٍ بِهِ مُتَحَزِّبُ
فَمِنْ أَيْنَ أَوْ أَنَّى وَكَيْفَ ضَلَالُهُمْ ... هُدًى وَالْهَوَى شَتَّى بِهِمْ مُتَشَعِّبُ

١٠ — أما اللامية : فهى صرخة من سوء الحكم لعهد بنى أمية ، استهلها الشاعر بهذا التقريع الذى يبعث الحمية ، ويثير ما غفا من نوازى الضغائن والحفائظ والحقود :

أَلاَ هَلْ عَمٍ فِى رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ ... وَهَلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الإِسَاءَةِ مُقْبِلُ
وَهَلْ أُمَّةٌ مُسْتَيْقِظُونَ لِرُشْدِهِمْ ... فَيَكْشِفَ عَنْهُ النَّعْسَةَ الْمُتَزَمِّلُ
فَقَدْ طَالَ هٰذَا النَّوْمُ وَاسْتَخْرَجَ الْكَرَى ... مَسَاوِيَهُمْ لَوْ كَانَ ذَا الْمَيْلُ يَعْدِلُ
وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَأَنَّنَا ... عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِى نَتَنَحَّلُ
كَلاَمُ النَّبِيِّينَ الْهُدَاةِ كَلاَمُنَا ... وَأَفْعَالَ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ
رَضِينَا بِدُنْيَا لاَ نُرِيدُ فِرَاقَهَا ... عَلَى أَنَّنَا فِيهَا نَمُوتُ وَنُقْتَلُ
وَنَحْنُ بِهَا مُسْتَمْسِكُونَ كَأَنَّهَا ... لَنَا جُنَّةٌ مِمَّا نَخَافُ وَمَعْقِلُ
أَرَانَا عَلَى حُبِّ الحَيَاةِ وَطُولِهَا ... يُجَدُّ بِنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ
نُعَالِجُ مُرْمَقًّا مِنَ الْعَيْشِ فَانِيًا ... لَهُ حَارِكٌ لاَ يَحْمِلُ الْعِبْءَ أَجْزَلُ[1]
فَتِلْكَ أُمُورُ النَّاسِ أَضْحَتْ كَأَنَّهَا ... أُمُورُ مُضِيعٍ آثَرَ النَّوْمَ بُهَّلُ[2]

ثم يمضى فى عنف الجدل ، فيقول :

---

(١) المرمق ، على وزن محمر ، ومعظم : الضيق . والحارك : أعلى الكاهل ، وأجزل من الجزل بالتحريك وهو أن يقطع القتب غارب البعير (٢) البهل على وزن ركع ، يشبه الأمور بالنوق البهل ، وهى الضائعة التى يحلها من يشاء .

فَيَاسَاسَةً هَاتُوا لَنَا مِنْ حَدِيثِكُمْ فَفِيكُمْ لَعَمْرِى ذُو أَفَانِينَ مِقْوَلُ
أَأَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمُ عَلَى الحَقِّ نَقْضِى بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ
فَكَيْفَ وَمِنْ أَنَّى وَإِذْ نَحْنُ خِلْفَةٌ فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمَنُونَ وَنُهْزَلُ (١)
أَنُصْلِحُ دُنْيَانَا جَمِيعًا وَدِينَنَا عَلَى مَا بِهِ ضَاعَ السَّوَامُ المُؤَبَّلُ (٢)
بُرِينَا كَبَرْىِ القِدْحِ أَوْهَنَ مَتْنَهُ مِنَ القَوْمِ لَا شَارٍ وَلَا مُتَنَبِّلُ (٣)
وِلَايَةُ سِلْغَدٍ أَلَفَّ كَأَنَّهُ مِنَ الرَّهَقِ المَخْلُوطِ بِالنُّوكِ أَثْوَلُ (٤)
كَأَنَّ كِتَابَ اللهِ يُعْنَى بِأَمْرِهِ وَبِالنَّهْىِ فِيهِ الكُودَنِىُّ المُرَكَّلُ (٥)
أَلَمْ يَتَدَبَّرْ آيَةً فَتَدُلَّهُ عَلَى تَرْكِ مَا يَأْتِى أَمِ القَلْبُ مُقْفَلُ
فَتِلْكَ مُلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامَ العَنَاءُ المُطَوَّلُ
رَضُوا بِفِعَالِ السُّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ فَقَدْ أَيْتَمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَثْكَلُوا
كَمَا رَضِيَتْ بُخْلًا وَسُوءَ وِلَايَةٍ لِكَلْبَتِهَا فِى أَوَّلِ الدَّهْرِ حَوْمَلُ (٦)
نُبَاحًا إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ دُونَهَا وَضَرْبًا وَتَجْوِيعًا خَبَالٌ مُخَبَّلُ
وَمَا ضَرَبَ الأَمْثَالَ فِى الجَوْرِ قَبْلَنَا بِأَجْوَرَ مِنْ حُكَّامِنَا المُتَمَثَّلُ
هُمُو خَوَّفُونَا بِالعَمَى هُوَّةَ الرَّدَى كَمَا شُبَّ نَارَ الحَالِفِينَ المُهَوِّلُ (٧)

---

(١) خلفة بالكسر : مختلفون . (٢) المؤبل : المقتنى ، وإذا ضاع المقتنى فكيف يكون حال المهمل .
(٣) الشارى : المصلح ، والمتنبل : صاحب النبل ، يريد أنه وقع فى يد من لا يحسن البرى .
(٤) السلغد : الرخو من الرجال ، والألف : الممتلئ الفخذين ، والرهق : السفه ، والنوك : الحمق ، والأثول : المجنون والأحمق . وإنما فسرنا الألف فى هذا البيت بالممتلئ الفخذين ليتناسب مع السلغد ، ومن معانى اللفف أيضا العى وبطء الكلام ، والسلغد فى الاصل : الذئب .
(٥) الكودنى : الفرس الهجين والفيل والبغل والبرذون ، والمركل : الذى يضرب بالرجل ليعدو .
(٦) حومل : امرأة كانت تجيع كلبتها . حتى أكلت الكلبة ذنبها من الجوع .
(٧) المهول : المحلف ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا أن يستحلفوا الرجل أوقدوا نارا ، وألقوا فيها ملحاً فيتنقع فيهوّلون بها . قال أوس بن حجر يصف حماراً وحشيا :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهوّل حالف

لَهُمْ كُلَّ عَامٍ بِدْعَةٌ يُحْدِثُونَهَا ... أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْجَلُوا(١)
كَمَا ابْتَدَعَ الرُّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ ... كِتَابٌ وَلاَ وَحْيٌ مِنَ اللّٰهِ مُنْزَلُ
تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمُ ... وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلُ
وَلَيْسَ لَنَا فِى الْفَيْءِ حَظٌّ لَدَيْهِمُ ... وَلَيْسَ لَنَا فِى رِحْلَةِ النَّاسِ أَرْحُلُ
فَيَارَبِّ هَلْ إِلاَّ بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى ... عَلَيْهِمْ ؟ وَهَلْ إِلاَّ عَلَيْكَ الْمُعَوَّلُ

وهذه القطعة أقوى من نظيرتها فى البائية ، والافتنان فيها أظهر ، والشاعر فيها يصول بمنكب أضخم ، وساعد أفتك ، وفيها بيت نادر ، هو قوله :

تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمُ ... وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلُ

وهو معنى انتهبه أحد المحدثين إذ قال :

قَتْلُ امْرِئٍ فِى غَابَةٍ ... جَرِيمَةٌ لاَ تُغْتَفَرْ
وَقَتْلُ شَعْبٍ آمِنٍ ... مَسْأَلَةٌ فِيهَا نَظَرْ

وبيت الكميت لا تفنى عجائبه عند التأمل . فالظالمون فى جميع العصور يرفقون بالأشياء ويقسون على الأشخاص : فطلع النخلة حرام ، وقتل الأبرياء حلال .

والكميت يحرص على إبراز آصار الظلم : وهى عنده تتمثل فى سمنة الظالمين وهزال المظلومين .

---

(١) أزلوا : من الزلل ، وأوجلوا : هربوا ، كأنه يشير إلى آية (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين) .

أَأَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمُ عَلَى الحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ
فَكَيْفَ وَمِنْ أَنَّى وَإِذْ نَحْنُ خِلْفَةٌ فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمَنُونَ وَنُهْزَلُ

وسيأخذ دعبل معنى هذا البيت ، فيقول :

فَآلُ رَسُولِ اللهِ نُحْفٌ جُسُومُهُمْ وَآلُ زِيَادٍ حُفَّلُ القَصَرَاتِ (١)

والكميت يلح فى تصوير الهزال ، فيذكر أن قد أصابهم ما أصاب القدح من عنف البرى ، ويمثل ولاية بنى أمية بولاية الذئب ، وكان عندهم مضرب المثل فى الطغيان ، ثم يجأر بهذا البيت :

وَمَا ضَرَبَ الأَمْثَالَ فى الجَوْرِ قَبْلَنَا بِأَجْوَرَ مِنْ حُكَّامِنَا المُتَمَثَّلُ

ويشبه بنى أمية بالرهبان يبتدعون مالم يجئ به وحى ولا كتاب ، وكان هذا التشبيه لمهده غاية فى القوّة بفضل ما فى القرآن من الاشارة إلى أعمال الأحبار والرهبان .

١١ — ولم ينس الكميت أن يتحدث فى اللامية عن فواجع أهل البيت ، وان كان لم يستقص أخبارهم كما صنع فى البائية ، فقد وقف عند مصرع الحسين ، ولكن أسلوبه فى اللامية أقوى وأرشق .

وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ أَنَّ خَيْلَهُمْ لِأَجْوَافِهَا تَحْتَ العَجَاجَةِ أَزْمَلُ (٢)
هَمَاهِمُ بِالْمُسْتَلْئِمِينَ عَوَابِسٌ كَحِدْآنِ يَوْمِ الدَّجْنِ تَعْلُو وَتَسْفُلُ (٣)

---

(١) القصرات جمع قصرة بالتحريك ، وهى أصل العنق . (٢) الأزمل : الصوت .
(٣) هماهم من الهمهمة ، وهى تردّد الزئير فى الصدر ، والمستلئمون : لابسو الدروع .

يُحَلِّئْنَ عَنْ مَاءِ الْفُرَاتِ وَظِلِّهِ ... حُسَيْنًا وَلَمْ يُشْهَرْ عَلَيْهِنَّ مُنْصُلُ (١)

كَأَنَّ حُسَيْنًا وَالْبَهَالِيلَ حَوْلَهُ ... لِأَسْيَافِهِمْ مَا يَخْتَلِى الْمُتَبَقِّلُ (٢)

يَخُضْنَ بِهِ مِنْ آلِ أَحْمَدَ فِى الْوَغَى ... دَمًا طَلَّ مِنْهُمْ كَالْبَهِيمِ الْمُحَجَّلُ

وَغَابَ نَبِىُّ اللهِ عَنْهُمْ وَفَقْدُهُ ... عَلَى النَّاسِ رُزْءٌ مَا هُنَاكَ مُجَلَّلُ

فَلَمْ أَرَ مَخْذُولاً أَجَلَّ مُصِيبَةً ... وَأَوْجَبَ مِنْهُ نُصْرَةً حِينَ يُخْذَلُ

يُصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوْسِ غَيْرِهِمْ ... فَيَا آخِرًا أَسْدَى لَهُ الْغَىَّ أَوَّلُ

تَهَافَتَ ذِبَّانُ الْمَطَامِعِ حَوْلَهُ ... فَرِيقَانِ شَتَّى ذُو سِلَاحٍ وَأَعْزَلُ (٣)

إِذَا شَرَعَتْ فِيهِ الْأَسِنَّةُ كَبَّرَتْ ... غُوَاتُهُمُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَهَلَّلُوا

فَمَا ظَفِرَ الْمُجْرِى إِلَيْهِمْ بِرَأْسِهِ ... وَلَا عُذِلَ الْبَاكِى عَلَيْهِ الْمُوَلْوِلُ

فَلَمْ أَرَ مَوْتُورِينَ أَهْلَ بَصِيرَةٍ ... وَحَقٍّ لَهُمْ أَيْدٍ صِحَاحٌ وَأَرْجُلُ

كَشِيعَتِهِ وَالْحَرْبُ قَدْ ثُقِّيَتْ لَهُمْ ... أَمَامَهُمُ قِدْرٌ تَجِيشُ وَمِرْجَلُ (٤)

فَرِيقَانِ هٰذَا رَاكِبٌ فِى عَدَاوَةٍ ... وَبَاكٍ عَلَى خِذْلَانِهِ الْحَقَّ مُعْوِلُ

فَمَا نَفَعَ الْمُسْتَأْخِرِينَ نَكِيصُهُمْ ... وَلَا ضَرَّ أَهْلَ السَّابِقَاتِ التَّعَجُّلُ

١٢ — وفى القصيدتين وصف لأخلاق بنى هاشم ، فهم فى البائية :

أُنَاسٌ بِهِمْ عَزَّتْ قُرَيْشٌ فَأَصْبَحُوا ... وَفِيهِمْ خِبَاءُ الْمَكْرُمَاتِ الْمُطَنَّبُ

خِضَمُّونَ أَشْرَافٌ لَهَامِيمُ سَادَةٌ ... مَطَاعِيمُ أَيْسَارٌ إِذَا النَّاسُ أَجْدَبُوا

وهم سادة الجود والعلم والرأى :

---

(١) يحلئن : يمنعن . (٢) اختلى الخلى : نزعه ، والخلى : مقصورة : الرطب من النبات .
(٣) الذبان بالكسر جمع الذباب . (٤) ثقيت الحرب : أقيمت .

إِذَا نَشَأَتْ مِنْهُمْ بِأَرْضٍ سَحَابَةٌ   فَلَا النَّبْتُ مَحْظُورٌ وَلَا الْبَرْقُ خُلَّبُ
وَإِنْ هَاجَ نَبْتُ الْعِلْمِ فِي النَّاسِ لَمْ تَزَلْ   لَهُمْ تَلْعَةٌ خَضْرَاءُ مِنْهُ وَمِذْنَبُ (١)
إِذَا اُدْلَمَّسَتْ ظَلْمَاءُ أَمْرَيْنِ حِنْدِسٌ   فَبَدْرٌ لَهُمْ فِيهَا مُضِيءٌ وَكَوْكَبُ

وهم فى اللامية نجوم يهتدى بها السارون، وغيوث يشتفى بها المحلون :

وَإِنْ نَزَلَتْ بِالنَّاسِ عَمْيَاءُ لَمْ يَكُنْ   لَهُمْ بَصَرٌ إِلَّا بِهِمْ حِينَ تُشْكِلُ
وَإِنَّهُمُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَنُوبُهُمْ   أَكُفُّ نَدًى تُجْدِي عَلَيْهِمْ وَتُفْضِلُ
لِأَهْلِ الْعَمَى فِيهِمْ شِفَاءٌ مِنَ الْعَمَى   مَعَ النُّصْحِ لَوْ أَنَّ النَّصِيحَةَ تُقْبَلُ

١٣ — هذا، ولا مفرّ من الاعتراف برقة الحنين فى البائية، فقد بلغ الشاعر بحبه أقصى غايات التصوف، إذ يقول :

فَقُلْ لِلَّذِي فِي ظِلِّ عَمْيَاءَ جَوْنَةٍ   تَرَى الْجَوْرَ عَدْلًا أَيْنَ لَا أَيْنَ تَذْهَبُ (٢)
بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ   تَرَى حُبَّهُمْ عَارًا عَلَيَّ وَتَحْسِبُ
فَمَالِيَ إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شِيعَةٌ   وَمَالِيَ إِلَّا مَشْعَبَ الْحَقِّ مَشْعَبُ
وَمَنْ غَيْرَهُمْ أَرْضَى لِنَفْسِيَ شِيعَةً   وَمَنْ بَعْدَهُمْ؟ لَا مَنْ أُجِلُّ وَأُرْجِبُ (٣)
أُرِيبُ رِجَالًا مِنْهُمُ وَتَرِيبُنِي   خَلَائِقُ مِمَّا أَحْدَثُوهُنَّ أُرْيَبُ
إِلَيْكُمْ ذَوِي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ   نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِي ظِمَاءٌ وَأَلْبُبُ
فَإِنِّي عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ   بِقَوْلِي وَفِعْلِي مَا اسْتَطَعْتُ لَأَجْنَبُ

---

(١) المذنب كمنبر : مسيل الماء الى الأرض، والجدول يسير عن الروضة بمائها إلى غيرها .
(٢) جونة : سوداء .   (٣) أرجب : أعظم وأهاب .

يُشِيرُونَ بِالْأَيْدِى إِلَيَّ وَقَوْلُهُمْ ⁂ أَلَا خَابَ هٰذَا وَالْمُشِيرُونَ أَخْيَبُ
فَطَائِفَةٌ قَدْ كَفَّرَتْنِى بِحُبِّكُمْ ⁂ وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ
فَمَا سَاءَنِى تَكْفِيرُ هَاتِيكَ مِنْهُمُ ⁂ وَلَا عَيْبُ هَاتِيكَ الَّتِى هِيَ أَعْيَبُ
يَعِيبُونَنِى مِنْ خِبِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ⁂ عَلَى حُبِّكُمْ بَلْ يَسْخَرُونَ وَأَعْجَبُ
وَقَالُوا تُرَابِيٌّ هَوَاهُ وَرَأْيُهُ ⁂ بِذٰلِكَ أُدْعَى فِيهِمُ وَأُلَقَّبُ[1]
وَأَحْمِلُ أَحْقَادَ الْأَقَارِبِ فِيكُمُ ⁂ وَيُنْصَبُ لِى فِى الْأَبْعَدِينَ فَأُنْصَبُ
فَيَامُوقِدًا نَارًا لِغَيْرِكَ ضَوْءُهَا ⁂ وَيَاحَاطِبًا فِى غَيْرِ حَبْلِكَ تَحْطِبُ
أَلَمْ تَرَنِى مِنْ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ⁂ أَرُوحُ وَأَغْدُو خَائِفًا أَتَرَقَّبُ
عَلَى أَيِّ جُرْمٍ أَمْ بِأَيَّةِ سِيرَةٍ ⁂ أُعَنَّفُ فِى تَقْرِيظِهِمْ وَأُؤَنَّبُ

وفى اللامية أمثال لهذا الولاء ، ولكنه فى البائية أقوى وأصدق . رحم الله الكميت ، وأكرم مثواه !



(١) ترابىّ نسبة إلى أبى تراب ، وهو علىّ بن أبى طالب .

الفصل الخامس

تائية دعبل
فى أهل البيت

رأى دعبل فى لؤم الناس — ميله إلى الصعاليك — رأى البحترى والمأمون فى شعره — نفسية دعبل — بغضه للخلفاء وحبه لأهل البيت — سيرورة التائية فى الأقطار الاسلامية وأخبارها فى عالم الجن — الامام المنتظر .

---

١ — نحن الآن أمام « شاعر متقدم مطبوع هَجَّاء خبيث اللسان لم يَسْلَمْ عليه أحد من الخلفاء ، ولا من وزرائهم ، ولا أولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن إليه ، أو لم يحسن (١) » .

والعجب أن تسرى الروحانية إلى صدر رجل مثل دعبل ، فقد كان ذلك الرجل يعتقد اعتقاداً سيئاً فى الناس ، ويؤمن بأنهم لا يصلحون بغيرالهجاء ، يدلنا على ذلك ماحدّث به أبو خالد الخزاعى إذ قال : قلت لدعبل : ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقوّاد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك !

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ طبع الساسى .

فقال دعبل :

ويحك ! إنى تأملت ماتقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى بالشاعر وإن كان مُجيداً إذا لم يخف شره ، ولَمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرّفته شرُف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فاذا رآك قد أوجعت غيره وفضحته اتقاك على نفسه ، وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المُقْذع آخذ بِضَبُع الشاعر من المديح المُضْرِع [١] .

وهو بهذا التصريح يفصح عن رأيه فى الناس : فهم عنده لئام جبناء يتقون الشتم أكثر مما يرغبون فى التشريف ، وكان بالفعل لا ينفك ينظم قصائد الهجاء ، وكان يسأل أحيانا عن موضوع أهاجيه فيجيب : ما استحقه أحد بعينه بعد ، وليس له صاحب .

فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشر فيه ، وذكر اسمه [٢] ، فقصائد الهجاء عنده كأمثال الثياب عند تجار الملابس : تُعَدُّ إعدادا ، ثم تقدم حين تلوح الفرصة !

وكان يتفق له أن يسيء إلى أصدقائه من حيث لا يريد ، فقد هجا أحمد ابن أبى دُوَاد ، وكان تزوج امرأتين من بنى عجل فى سنة واحدة ، فقال :

غَصَبْتَ عِجْلاً عَلَى فَرْجَيْنِ فى سَنَةٍ ... أَفْسَدْتَهُمْ ثُمَّ مَا أَصْلَحْتَ مِنْ نَسَبِكْ
وَلَوْ خَطَبْتَ إِلَى طَوْقٍ وَأُسْرَتِهِ ... فَزَوَّجُوكَ لَمَا زَادُوكَ فى حَسَبِكْ

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٣١ . (٢) الاغانى ج ١٨ ص ٣٣ .

إنْ كَانَ قَوْمٌ أَرَادَ ٱللهُ خِزْيَهُمُ   فَزَوَّجُوكَ ٱرْتِغَابًا مِنكَ فِى ذَهَبِكْ

فَذَاكَ يُوجِبُ أَنَّ النَّبْعَ يَجْمَعُهُ   إِلَى خِلَافِكَ فِى ٱلْعِيدَانِ أَوْ غَرَبِكْ

وَلَوْ سَكَتَّ وَلَمْ تَخْطُبْ إِلَى عَرَبٍ   لَمَا نَبَشْتَ ٱلَّذِى تَطْوِيهِ مِنْ سَبَبِكْ

عُدَّ ٱلْبُيُوتَ ٱلَّتِى تَرْضَى بِخِطْبَتِهَا   تَجِدْ فَزَارَةَ ٱلْعُكْلِىَّ مِنْ عَرَبِكْ

فلقيه فزارة العكلى فقال له : يا أبا على ! ما حملك على ذكرى حتى فضحتنى ، وأنا صديقك ؟ فقال : يا أخى ! والله مااعتمدتك بمكروه ، ولكن كذا جاءنى الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك !

وَاثِرَ عنه أنه كان يقول : ما كانت لأحد قط عندى منة إلا تمنيت موته (١) !

وبمثل هذا القول يفسَّر الحديث المأثور : « اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ » .

٢ — وكان دعبل فى بداية أمره من قطاع الطريق ، وكان يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ، ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكان الصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه ، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ، ودعاهم إليه ، ودعا بغلاميه ، فأقعدهما يغنيان ، وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، وكان الصعاليك يواصلونه ويصلونه (٢) ، وهذا يفسر جانباً من حياته الخُلُقية ، فهو رجل يجمع بين حب الصعلكة وحب الفتك . وكان أكثر الصعاليك من أهل الشهامة والنبل ، ولكنهم كانوا معروفين بحب القسوة والبطش . وقد بقى فى نفسه شىء من الحياء ، وذلك أيضاً بَقِيَّةٌ من آداب الصعاليك . ومن شواهد ذلك أنه دخل الرَّىَّ فى أيام الربيع فجاءهم ثلج لم يروا مثله فى الشتاء ، فأنشد شاعر من أهل الرىّ هذه الأبيات :

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٣٦ . (٢) ص ٣٧ من نفس المصدر .

جَاءَنَا دِعْبِلٌ بِثَلْجٍ مِنَ الشِّعْــــرِ فَجَادَتْ سَمَاؤُنَا بِالثُّلُوجِ
نَزَلَ الرَّيَّ بَعْدَ مَا سَكَنَ الْبَرْدُ وَقَدْ أَيْنَعَتْ رِيَاضُ الْمُرُوجِ
فَكَسَانَا بِبَرْدِهِ لاَ كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِنْ كُرْسُفٍ مَحْلُوجِ

وكتبها فى رقعة ، وألقاها فى دهليز دعبل ، فلما قرأها ارتحل عن الرىّ (١) .

٣ — وكان على مافيه من اللُّؤم والوقاحة والعنف من أشعر الناس ، وكان البحترى يراه أشعر من مسلم بن الوليد ، وقد سئل عن ذلك فقال : كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم (٢) .

ومن شواهد اطلاعه أن بعضهم أنكر عليه كلاماً جرى فيه قوله : « لَيْسَكَ » فقال : دخل زيد الخيل على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « يا زيد ما وُصفَ لى رجل إلا رأيته دون وصفه لَيْسَكَ » يريد غيرك (٣) .

وكان المأمون يعجب بشعره ولا سيما هذه الأبيات :

أَلَمْ يَأْنِ لِلسَّفْرِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا إِلَى وَطَنٍ قَبْلَ الْمَمَاتِ رُجُوعُ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَةٍ نَطَقْنَ بِمَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُ
تَبَيَّنْ فَكَمْ دَارٍ تَفَرَّقَ شَمْلُهَا وَشَمْلٍ شَتِيتٍ عَادَ وَهْوَ جَمِيعُ
كَذَاكَ اللَّيَالِي صَرْفُهُنَّ كَمَا تَرَى لِكُلِّ أُنَاسٍ جَدْبَةٌ وَرَبِيعُ

وكان يقول : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى ومسلّيتى حتى أعود .

٤ — نعود إلى المشكلة الحقيقية فى نفسية دعبل : كان ذلك الرجل شرّيراً

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٣٦ . (٢) ص ٣٧ . (٣) ص ٤٣ .

وكان كلفاً بإيذاء الناس فكيف يتفق له التصوف فى حب أهل البيت ؟ وكيف يغرم بالنيل من أعراض الخلفاء والأمراء والوزراء ، وبأيديهم أسباب الأرزاق ، ثم يعطف على ناس ألحت عليهم النوائب وائتمرت بهم أحداث الزمان ؟ تلك مشكلة نفسية ، فأين الحلّ ؟

يغلب على الظن أن الرجل تلقى فى طفولته حبّ أهل البيت ، فصار حبهم كاللحن القديم الذى يسمعه الانسان وهو طفل فيظل يلاحقه بأنغامه وهو كهل . وهناك نفوس لا تعرف غير هوى واحد فى عالم السياسة ، ويتأصل فيها ذلك الهوى حين تنهزم ، ولا تزال تحرص عليه حتى يتحول إلى تصوّف ، وإذا انقلب الهوى إلى تصوف فلا نجاة منه ولا خلاص .

ولو أن أهل البيت لعهد دعبل استطاعوا أن ينتصروا وأن يزحزحوا السياسيين لاستطاعت الدنيا أن تغير من نفسه قواعد ذلك الهوى ، ولكنهم ظلوا مدحورين فبقى الاشفاق عليهم حيًّا فى نفسه حياة قوية ، وظل حبُّهم يعذبه وَيُمَنِّيه فينطقه فى البكاء عليهم بأرقّ ما عرف شعراء الوجدان .

ومن الذى يتصوّر أن ذلك الرجل الذى يَلؤُمُ أشنع اللؤم فى معاملة الخلفاء يمضى فيستوهب ثوبًا من على بن موسى ؟ وَلِمَ يستوهب ذلك الثوب ؟ ليجعله فى أكفانه يوم يموت !

إن قصة ذلك الثوب عجيبة : فقد خلع على بن موسى جُبَّة كانت عليه وأعطاها دعبلا وبلغ أَهْلَ قُمّ خَبَرُها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم فلم يفعل فخرجوا عليه فى طريقه فأخذوها منه غصباً ، وقالوا له : إن شئت أن تأخذ المال فافعل ، وإلا فأنت أعلم ! فقال لهم : إنى والله لا أعطيكم إياها

طوعاً ، ولا تنفعكم غصباً ، فانها إنما تُراد لله عزّ وجل ، وهى محرمة عليكم . فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف أن لا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه ، فأعطوه فَرْدَ كُمٍّ ليكون فى أكفانه . وتلك حادثة غريبة المعنى والمدلول ، لكن غرابتها لا تظهر إلا لمن يجهلون أسرار النفوس ، وإلا فأىّ غرابة فى أن تجتمع الرقة والقسوة والعنف واللين فى قلب الشاعر الموهوب ؟

إن الشاعرية لا تقوم إلا على أساس التطرف فى الحب والبغض ، وقد جمع دعبل بين العاطفتين : فكان يوجه قسوته إلى الخلفاء ، وكان يوجه رقته إلى أهل البيت .

ونحن نشهد فى دنيانا رجالا على جانب عظيم من العنف يخضعون أتمّ الخضوع لبعض النوازع الوجدانية ، ونرى ناساً يقضون أيامهم فى اللهو والقصف ، فاذا جاءت فرصة للهدى رأيناهم أول المنيبين .

والحق أن النفس الانسانية معقدة أصعب التَّعَقُّد ومشتبكة أخطر الاشتباك والبساطة فى الأهواء من شِيَم الأطفال . أما اقتتال الحق والباطل ، واصطراع الهدى والضلال ، فلا يكون إلا فى النفوس القوية التى تدرك كيف يكون اصطدام العقول وتصاول الآراء .

والذين وقفوا عند الجانب السخيف من أخبار دعبل لم يفهموه حق الفهم ، ولو قد فهموه لتمثلوا تلك الروح الصوفية ، التى أوحت إليه أن يكتب تائيته على ثوب ويحرِم فيه ثم يأمر بأن يكون ذلك الثوب فى أكفانه يوم يموت .

فان هذه اللمحة الشعرية لا تقع إلا من رجل خاشع القلب رقيق الوجدان ،

ومن الظلم أن ننسى هـذه المعالم الروحية حين نتحدث عن ذلك الشاعر الذى أضيف إلى زمرة الخونة والصعاليك .

وما الذى يمنع أن نفهم أن سوء ظنه بالناس لم يقع إلا لنكبته بسيادة الظلم والظالمين ؟

أرونى رجلا واحداً لم يفسد حكمه على الأشياء والأشخاص والمعانى بسبب مَا يُبْتَـلَى به من انهدام صرح العدالة حين يرى الظلم يطارده أو يطارد من يحب ؟

وهذا التصعلك الذى ابتدأ به دعبل وانتهى إليه هو مصير كل رجل تخذله المقادير السياسية ، والمنهزمون فى السياسة لا ينظرون إلى الأمور إلا من جانب واحد : لأن الهزيمة تذهب بأصول التفكير المعقول ، وتقف الرجل على أهوائه وآماله ، وتحوّل فلسفته فى الحياة إلى أمشاج من الضغن وَالتَّلوُّم والقنوط .

والوزراء الذين كان يكلف بهجائهم دعبل ، مَنْ هم ؟ لا نريد أن نسأل عن ذاتيتهم فى حقيقة الأمر ، فقد يكون فيهم ناس نبلاء ، ولكن مَنْ هم فى نفس دعبل ؟ هم ظَلَمَةٌ عاونوا الظالمين ، وَخَوَنَةٌ عاونوا الخائنين ، ويكفى أن تثور معانى الظلم والعدل فى نفس شاعر ليصبح وهو ثائرٌ مخبول .

وما أريد بهذا أن أدافع عن دعبل ، ولكنى أريد أن أفهم كيف اتفق أن يكون قلبه مسْرَحاً لحوادث العنف واللين ، وكيف صح له أن يجمع بين سَفَهِ اللئيم ورفق الحليم ، وكيف جاز أن يكون أحطّ الناس وأشرف الناس ؟ وأظننى وصلت من ذلك إلى بعض ما أريد .

ولو كان الرواة فطنوا إلى ما كان فى نفس دعبل من التعقد والاشتباك لما عدّوا عليه خيانته للرشيد ، فقد ذكروا أن الرشيد طرب حين غُنِّيَ بين يديه :

لاَ تَعْجَبِي يَا سَلْم مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وسأل عن صاحب الشعر فقيل له : دعبل بن علىّ ، وهو غلام نشأ من خِزاعة ، فأمر باحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ، فأحضر ذلك فدفعه مع مركب من مراكبه إلى خادم من خاصته . وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فاسأل عن دعبل بن على ، فاذا دُلت عليه فأعطه هذا ، وقل له ليحضر إن شاء ، وإن لم يُحِبَّ ذلك فدعه . . . . فسار الغلام إلى دعبل وأعطاه الجائزة وأشار عليه بالمسير إليه ، وحضر دعبل إلى الرشيد فأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنيًا .

ولكنه ما كاد يسمع بموت الرشيد حتى كافأه على ما صنع به من الغنى بعد الفقر والنباهة بعد الخمول أقبح مكافأة ، وقال فيـه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وَلَيْسَ حَيٌّ مِنَ الأَحْيَاءِ نَعْلَمُهُ مِنْ ذِى يَمَانٍ وَمِنْ بَكْرٍ وَمِنْ مُضَرِ
إِلاَّ وَهُمْ شُرَكَاءُ فِى دِمَائِهِـــمُ كَمَا تَشَارَكَ أَيْسَارٌ عَلَى جُزُرِ
قَتْلٌ وَأَسْرٌ وَتَحْرِيقٌ وَمَنْهَبَةٌ فِعْلَ الغُزَاةِ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالخَزَرِ
أَرَى أُمَيَّةَ مَعْذُورِينَ إِنْ قَتَلُوا وَلاَ أَرَى لِبَنِى العَبَّاسِ مِنْ عُذُرِ
أَرْبَعْ بِطُوسٍ عَلَى القَبْرِ الزَّكِىِّ إِذَا مَا كُنْتَ تَرْبَعُ مِنْ دِينٍ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِى طُوس خَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمُ وَقَبْرُ شَرِّهِمُ هٰذَا مِنَ العِبَرِ
مَا يَنْفَعُ الرِّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزَّكِىِّ وَلاَ عَلَى الزَّكِىِّ بِقُرْبِ الرِّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
هَيْهَاتَ كُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ فَخُذْ مَا شِئْتَ أَوْ فَذَرِ

وهو يعني قبر الرشيد ، وقبر عليّ الرضا ، وكان يعرف ماسيلقى من أبناء الرشيد [١].

فهذه الجرأة هى سمة التصوف فى الحب ، وأخذ هذا الشاعر لعطايا الرشيد وذمه بعد ذلك لونٌ من الانحراف ، ولكنه دليل على أن هوى الشاعر كان كله موجهاً إلى أهل البيت ، ولولا ذلك الهوى لاستطاع أن ينعم بدنيا المأمون . والتصوف فى ذاته خبال فى المقاصد الدنيوية ، ولكن جماله يرجع إلى الشجاعة فى احتقار ما فى الدنيا من لذة ومتاع ، وهل هناك شجاعة أقوى من أن يخرج المرء على الغالبين ليناصر المغلوبين ؟ وهل هناك زهد أبلغ من ترك دعبل طيبات الحياة فى قصور الخلفاء ليدور فى الدنيا كما يدور الصعاليك ؟

٥ — لقد كان لدعبل مدائح كثيرة فى أهل البيت ، ولكنها ضاعت ولم يبق إلا القليل ، ومن جيد مابقى قوله فى رثاء الحسين :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ ... يَا لَلرِّجَالِ عَلَى قَنَاةٍ تُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ ... لَاجَازِعٌ مِنْ ذَا وَلَا مُتَخَشِّعُ
أَيْقَظْتَ أَجْفَانًا وَكُنْتَ لَهَا كَرًى ... وَأَنَمْتَ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ بِكَ تَهْجَعُ
كُحِلَتْ بِمَنْظَرِكَ الْعُيُونُ عَمَايَةً ... وَأَصَمَّ نَعْيُكَ كُلَّ أُذْنٍ تَسْمَعُ
مَا رَوْضَةٌ إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَّهَا ... لَكَ مَضْجَعٌ وَلِخَطِّ قَبْرِكَ مَوْضِعُ

٦ — وأشهر قصائده وأبقاها على الزمان وأجدرها بالخلود هى التائية ذات المطلع المُفَجِّع :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ ... وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

---

(١) انظر الأغانى ج ١٨ ص ٥٧

وقد كان لهذه القصيدة صَدًى فى أكثر العصور الأدبية عند العرب ، ويكفى أن نعرف أن ياقوتاً حين ترجم لابن لنكك البصرى ذكر من أخباره أنه كان يروى قصيدة دعبل التى مطلعها :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ . . . .

كأن رواية تلك القصيدة من مناقب الرجال .

وكان المأمون لاعجابه ببراعة دعبل فى تلك التائية يتمنى أن يسمعها من الشاعر نفسه ، فتلطف لاحضار دعبل فلما دخل وسلم عليه تبسم فى وجهه ، ثم قال أنشدنى :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

فجزع دعبل . فقال له المأمون : لك الأمان فلا تخف ! وقد رويتها ولكنى أحب سماعها من فيك ، فأنشده إياها إلى آخرها ، والمأمون يبكى حتى أخضل لحيته بدمعه .

وكان أهل البيت يطربون لتلك القصيدة ويرون فيها العزاء عما أصابهم من الفواجع ،وقد حدّث دعبل قال :

دخلت على علىّ بن موسى الرضا عليهما السلام فقال لى : أنشدنى شيئاً مما أحدثت ، فأنشدته :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

حتى انتهيت إلى قولى :

إِذَا وُتِرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتِرِيهِمُ أَكُفًّا عَنِ الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

فبكى حتى أُغمى عليه وأومأ إلى خادم كان على رأسه أن اُسكت ، فسكتّ ساعة ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً ، فأصابه مثلُ الذى أصابه فى المرة الأولى ، وأومأ الخادم إلىّ أن اسكت . . . . . فمكث ساعة أخرى ، ثم قال لى أعد ، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها ، فقال لى : أحسنت ثلاث مرات ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضُرِبَ باسمه ، ولم تكن وقعت إلى أحد بعد . فَقَدِمْتُ العراق فبعت كل درهم منها بعشرة آلاف درهم اشتراها منى الشيعة ، فحصل لى مائة ألف درهم (١) .

وقد فُتِنَ دعبل نفسه بهذه التائية فتنة شديدة ، ومضى يحدث الناس بأن أخبارها طارت إلى الجن ، وأن أحدهم هبط إليه ليسمعها منه ، فلنسمع كلام دعبل فى هذا الخيال الطريف ، قال :

لما هربت من الخليفة بِتُّ ليلة بنيسابور وحدى ، وعزمت على أن أعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة ، فانى لفى ذلك إذ سمعت والباب مردود علىّ :

« السلام عليكم ورحمة الله ! انج يرحمك الله »

فاقشعرّ بدنى من ذلك ونالنى أمر عظيم . فقال لى : لا تُرَعْ عافاك الله ! فانى رجل من إخوانك من الجن من ساكنى اليمن طرأ إلينا طارئٌ من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ　　　وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

فأحببت أن أسمعها منك .

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ٤٢

قال دعبل : فأنشدته إياها ، فبكى حتى خرّ ، ثم قال : رحمك الله ! ألا أحدثك بحديث يزيد فى نيتك ، ويعينك على التمسك بمذهبك؟ قلت بلى ! قال مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة فسمعته يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عليٌّ وَشِيعَتُهُ هم الفائزون .

قال دعبل : ثم ودعنى لينصرف ، فقلت له : يرحمك الله ! إن رأيت أن تخبرنى باسمك فافعل . فقال أنا : ظبيان بن عامر[1] .

والحكاية فى ذاتها طريفة ، وهى تمثل سذاجة الناس من أنصار أهل البيت لذلك العهد .

والجن من أهل اليمن كانوا بعيدين عن مقر الدعوات الاسلامية ، فتفضّلَ الرواة ونقلوهم تارة إلى المدينة ، وتارة إلى العراق ، ولهم فى كتب الأدب أخبار لا تخلو من طرافة وظرف .

٧ — ننتقل بعد ذلك إلى مواجهة تلك التائية ، ولنذكر أن ياقوتاً أثبت منها ٤٥ بيتاً ، وأنه أخبرنا أن نسخها مختلفة ، وأن فى بعضها زيادات يُظَنُّ أنها مصنوعة ألحقها بها أناس من الشيعة ، وتلك الخمسة والأربعون بيتاً هى ما صحّ من القصيدة فى نظر ياقوت[2] .

وأهمية هذه القصيدة ترجع إلى ما فيها من التحزن والتفجع ، وهى لذلك من خير ما قيل فى الانتصار لأهل البيت ، وفيها فوق ذلك تصريح عن عقيدة

(١) الأغانى ص ٣٩ . (٢) انظر معجم الأدباء ج ٤ ص ١٩٤ .

الشيعة فى الامام المنتظر الذى يؤمن دعبل بأنه خارج لامحالة ، وأنه يقوم على اسم الله والبركات . ولنترك الشاعر يحدثنا عما كان يضطرب فى صدره من آلام وآمال :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ ... وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ
لِآلِ رَسُولِ اللّٰهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى ... وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالجَمَرَاتِ
دِيَارُ عَلِيٍّ وَالحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ ... وَحَمْزَةَ وَالسَّجَّادِ ذِى الثَّفِنَاتِ
دِيَارٌ عَفَاهَا كُلُّ جَوْنٍ مُبَادِرٍ ... وَلَمْ تَعْفُ لِلْأَيَّامِ وَالسَّنَوَاتِ
قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا ... مَتَى عَهْدُهَا بِالصَّوْمِ وَالصَّلَوَاتِ
وَأَيْنَ الْأُلَى شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى ... أَفَانِينَ فِى الآفَاقِ مُفْتَرِقَاتِ
هُمُ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِي إِذَا اعْتَزَوْا ... وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةِ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمُكَذِّبٌ ... وَمُضْطَغِنٌ ذُو إِحْنَةٍ وَتِرَاتِ
إِذَا ذَكَرُوا قَتْلَى بِبَدْرٍ وَخَيْبَرٍ ... وَيَوْمِ حُنَيْنٍ أَسْبَلُوا الْعَبَرَاتِ
قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَيْبَةٍ ... وَأُخْرَى بِفَخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتِي
وَقَبْرٌ بِبَغْدَادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ ... تَضَمَّنَهَا الرَّحْمٰنُ فِى الْغُرُفَاتِ
فَأَمَّا الْمُصِمَّاتُ الَّتِي لَسْتُ بَالِغًا ... مَبَالِغَهَا مِنِّى بِكُنْهِ صِفَاتِ
إِلَى الحَشْرِ حَتَّى يَبْعَثَ اللّٰهُ قَائِمًا ... يُفَرِّجُ مِنْهَا الْهَمَّ وَالْكُرُبَاتِ
نُفُوسٌ لَدَى النَّهْرَيْنِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَا ... مُعَرَّسُهُمْ فِيهَا بِشَطِّ فُرَاتِ
تَقَسَّمَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ كَمَا تَرَى ... لَهُمْ عَفْرَةٌ مَغْشِيَّةُ الحُجُرَاتِ

سِوَى أَنَّ مِنْهُمْ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةً مدَى الدَّهْرِ أَنْضَاءً مِنَ الْأَزَمَاتِ
قَلِيلَةَ زُوَّارٍ سِوَى أَنْ زُوَّرًا مِنَ الضَّبْعِ وَالْعِقْبَانِ وَالرَّخَمَاتِ
لَهُمْ كُلَّ حِينٍ نَوْمَةٌ بِمَضَاجِعٍ لَهُمْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفَاتِ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَأَهْلِهَا مَغَاوِيرُ يَخْتَارُونَ فِي السَّرَوَاتِ
تَنَكَّبُ لَأْوَاءُ السِّنِينِ جِوَارَهُمْ فَلَا تَصْطَلِيهِمْ جَمْرَةُ الْجَمَرَاتِ
إِذَا وَرَدُوا خَيْلًا تُشَمَّسُ بِالْقَنَا مَسَاعِرَ جَمْرِ الْمَوْتِ وَالْغَمَرَاتِ
وَإِنْ فَخَرُوا يَوْمًا أَتَوْا بِمُحَمَّدٍ وَجِبْرِيلَ وَالْفُرْقَانِ ذِي السُّوَرَاتِ

***

مَلَامَكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ أَحِبَّايَ مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
تَخَيَّرْتُهُمْ رُشْدًا لِأَمْرِي فَإِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ خِيرَةُ الْخِيَرَاتِ
فَيَارَبِّ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بَصِيرَةً وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
بِنَفْسِيَ أَنْتُمْ مِنْ كُهُولٍ وَفِتْيَةٍ لِفَكِّ عُنَاةٍ أَوْ لِحَمْلِ دِيَاتِ
أُحِبُّ قَصِيَّ الرَّحْمِ مِنْ أَجْلِ حُبِّكُمْ وَأَهْجُرُ فِيكُمْ أُسْرَتِي وَبَنَاتِي
وَأَكْتُمُ حُبِّيكُمْ مَخَافَةَ كَاشِحٍ عَنِيدٍ لِأَهْلِ الْحَقِّ غَيْرِ مُوَاتِ
لَقَدْ حَفَّتِ الْأَيَّامُ حَوْلِي بِشَرِّهَا وَإِنِّي لَأَرْجُو الْأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مِنْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَرُوحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
أَرَى فَيْئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسَّمًا وَأَيْدِيهُمُ مِنْ فَيْئِهِمْ صَفِرَاتِ
فَآلُ رَسُولِ اللهِ نُحْفٌ جُسُومُهُمْ وَآلُ زِيَادٍ حُفَّلُ الْقَصَرَاتِ

بَنَاتُ زِيَادٍ فِى الْقُصُورِ مَصُونَةٌ وَآلُ رَسُولِ اللهِ فِى الْفَلَوَاتِ
إِذَا وُتِرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتِرِيهِمُ أَكُفًّا عَنِ الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

***

فَلَوْلَا الَّذِى أَرْجُوهُ فِى الْيَوْمِ أَوْغَدِ لَقَطَّعَ قَلْبِى إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِى
خُرُوجُ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٌ يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللهِ وَالْبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِى عَلَى النَّعْمَاءِ وَالنَّقِمَاتِ
سَأَقْصُرُ نَفْسِى جَاهِدًا عَنْ جِدَالِهِمْ كَفَانِى مَا أَلْقَى مِنَ الْعَبَرَاتِ
فَيَا نَفْسُ طِيبِى ثُمَّ يَا نَفْسُ أَبْشِرِى فَغَيْرُ بَعِيدٍ كُلُّ مَا هُوَ آتِ
فَإِنْ قَرَّبَ الرَّحْمٰنُ مِنْ تِلْكَ مُدَّتِى وَأَخَّرَ مِنْ عُمْرِى لِطُولِ حَيَاتِى
شُفِيتُ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِى رَزِيَّةً وَرَوَّيْتُ مِنْهُمْ مُنْصُلِى وَقَنَاتِى
أُحَاوِلُ نَقْلَ الشَّمْسِ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا وَأُسْمِعُ أَحْجَارًا مِنَ الصَّلَدَاتِ
فَمِنْ عَارِفٍ لَمْ يَنْتَفِعْ وَمُعَانِدٍ يَمِيلُ مَعَ الْأَهْوَاءِ وَالشُّبُهَاتِ
قُصَارَاىَ مِنْهُمْ أَنْ أَمُوتَ بِغُصَّةٍ تُرَدَّدُ بَيْنَ الصَّدْرِ وَاللَّهَوَاتِ
كَأَنَّكَ بِالْأَضْلَاعِ قَدْ ضَاقَ رَحْبُهَا لِمَا ضُمِّنَتْ مِنْ شِدَّةِ الزَّفَرَاتِ

٨ — هذا ، ولدعبل أخبار كثيرة يجدها القارئ فى الجزء الثامن عشر من الأغانى ، وجاءه الحتف بسبب أهاجيه لمالك بن طوق ، وكانت وفاته سنة ٢٤٦ رحمه الله وعفا عنه !

الفصل السادس

قصائد الشريف الرضى

فى صريع كربلاء

١ — للشريف الرضى قصائد كثيرة فى مدح أهل البيت ، وهى فى جملتها من آثار التصوف ، وإن كانت العصبية تغلب عليها فى بعض الأحيان فتنقلها من رقة الوفاء ، إلى عنجهية الفخر والخيلاء ، من ذلك قوله فى رثاء أمه :

آبَاؤُكِ الْغُرُّ الَّذِينَ تَفَجَّرَتْ ... بِهِمُ يَنَابِيعٌ مِنَ النَّعْمَاءِ
مِنْ نَاصِرٍ لِلْحَقِّ أَوْ دَاعٍ إِلَى ... سُبُلِ الْهُدَى أَوْ كَاشِفِ الْغَمَّاءِ
نَزَلُوا بِعُرْعُرَةِ السَّنَامِ مِنَ الْعُلاَ ... وَعَلَوْا عَلَى الْأَثْبَاجِ وَالْأَمْطَاءِ[1]
مِنْ كُلِّ مُشْتَبِقِ الْيَدَيْنِ إِلَى النَّدَى ... وَمُسَدَّدِ الْأَقْوَالِ وَالْآرَاءِ
يُرْجَى عَلَى النَّظَرِ الْحَدِيدِ تَكَرُّمًا ... وَيُخَافُ فِي الْإِطْرَاقِ وَالْإِغْضَاءِ
دَرَجُوا عَلَى أَثَرِ الْقُرُونِ وَخَلَّفُوا ... طُرُقًا مُعَبَّدَةً مِنَ الْعَلْيَاءِ

---

(١) عرعرة كل شىء ، بالضم : رأسه ومعظمه ، والأثباج جمع ثبج بالتحريك ، وهو مابين الكاهل إلى الظهر ، والأمطاء جمع مطا ، وهو الظهر .

فهذا من جيد القول فى مدح أهل البيت ، ولكنه لم يقصد لمعناه الروحى ، وإنما أريد به التمدح بشرف الأنساب كالذى جاء فى قصيدة :

* لنا كل يوم رنة خلف ذاهب *

التى رثى بها خاله أحمد بن الحسين، ومن ذلك ماجاء فى بائيته القوية :

* لغير العلا منى القلا والتجنب *

إذ قال :

أُهَذِّبُ فِي مَدْحِ اللِّئَامِ خَوَاطِرِي ... فَأَصْدُقُ فِي حُسْنِ المَعَانِي وَأَكْذِبُ
وَمَا المَدْحُ إِلاَّ فى النَّبِيِّ وَآلِهِ ... يُرَامُ وَبَعْضُ الْقَوْلِ مَا يُتَجَنَّبُ
وَأَوْلَى بِمَدْحِي مَنْ أَعِزُّ بِفَخْرِهِ ... وَلاَ يَشْكُرُ النَّعْمَاءَ إِلاَّ المُهَذَّبُ
أَرَى الشِّعْرَ فِيهِمْ بَاقِيًا وَكَأَنَّمَا ... تُحَلِّقُ بِالأَشْعَارِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ
وَقَالُوا عَجِيبٌ عُجْبُ مِثْلِي بِنَفْسِهِ ... وَأَيْنَ عَلَى الأَيَّامِ مِثْلُ أَبِي أَبُ
لَعَمْرُكَ مَا أُعْجِبْتُ إِلاَّ بِمَدْحِهِمْ ... وَيُحْسَبُ أَنِّى بِالْقَصَائِدِ مُعْجَبُ
أُعِدُّ لِفَخْرِي فى المَقَامِ مُحَمَّدًا ... وَأَدْعُو عَلِيًّا لِلْعُلاَ حِينَ أَرْكَبُ

وهذا ليس من التصوف فى شىء ، وإنما هو زهو بقوة العصبية .

ومن ذلك قوله فى رثاء أهل البيت :

سَقَى اللهُ المَدِينَةَ مِنْ مَحَلٍّ ... لُبَابَ المَاءِ وَالنُّطَفِ العِذَابِ
وَجَادَ عَلَى الْبَقِيعِ وَسَاكِنِيهِ ... رَخِيُّ الذَّيْلِ مَلآنُ الوِطَابِ (١)

(١) رخى الذيل : هو السحاب الثقيل ، والوطاب جمع وطب ، وهو سقاء من جلد .

وَأَعْلاَمَ الْغَرِىِّ وَمَا اسْتَبَاحَتْ مَعَالِمُهَا مِنَ الحسَبِ اللُّبَابِ[(١)]
وَقَبْرًا بِالطُّفُوفِ يَضُمُّ شِلْوًا قَضَى ظَمَأً إِلَى بَرْدِ الشَّرَابِ
وَسَامَرًّا وَبَغْدَادًا وَطُوسًا هَطُولَ الْوَدْقِ مُنْخَرِقَ الْعُبَابِ
قُبُورٌ تَنْطُفُ الْعَبَرَاتُ فِيهَا كَمَا نَطَفَ الصَّبِيرُ عَلَى الرَّوَابِي[(٢)]
فَلَوْ بَخِلَ السَّحَابُ عَلَى ثَرَاهَا لَذَابَتْ فَوْقَهَا قِطَعُ السَّرَابِ
سَقَاكَ فَكَمْ ظَمِئْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا عَلَى عُدَوَاءِ دَارِى وَاقْتِرَابِى

إلى أن يقول :

بِكُمْ فى الشِّعْرِ فَخْرِى لاَ بِشِعْرِى وَعَنْكُمْ طَالَ بَاعِى فى الْخِطَابِ
أُجِلُّ عَنِ الْقَبَائِحِ غَيْرَ أَنِّى لَكُمْ أَرْمِى وَأُرْمَى بِالسِّبَابِ
فَأَجْهَرُ بِالْوَلاَءِ وَلاَ أُوَرِّى وَأَنْطِقُ بِالْبَرَاءِ وَلاَ أُحَابِى
وَمَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنِّى وَلِيًّا وَفى أَيْدِيكُمُ طَرَفُ انْتِسَابِى

ولا مرية فى أن نزعة الفخر أغلب على مثل هذا الشعر من نزعة التصوف ، وأصرح منه فى الفخر قوله يردّ على جماعة افتخروا على ولد على بن أبى طالب :

وَلَوْلاَ عَلِىٌّ مَا عَلَوْا سَرَوَاتِهَا وَلاَ جَعْجَعُوا مِنْهَا بِمَرْعًى وَمَوْرِدِ[(٣)]
أَخَذْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِىِّ وَفَاطِمٍ طِلاَعَ الْمَسَاعِى مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ

(١) الغرى فى الأصل البناء الجيد، وهو هنا موضع بظاهر الكوفة بقرب قبر علىّ بن أبى طالب .
(٢) الصبير : السحاب الذى بعضه فوق بعض .
(٣) السروات : الظهور ، والجعجعة تحريك الابل للاناخة أو النهوض .

وَطُلْنَا بِسِبْطَىْ أَحْمَدٍ وَوَصِيهِ ... رِقابَ الْوَرَى مِنْ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ
وَحُزْنَا عَتِيقاً وَهْوَ غَايَةُ فَخْرِكُمْ ... بِمَوْلِدِ بِنْتِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ
فَجَدٌّ نَبِيٌّ ثُمَّ جَـدٌّ خَلِيفَةٌ ... فَمَا بَعْدَ جَدَّيْنَا عَلِيٍّ وَأَحْمَدِ

٢ — وتظهر طلائع التصوف فى قصيدته التى أثنى فيها على رفق عمر بن عبد العزيز بأهل البيت ، وقد نقل إليه أن جعفرا الصادق قال : « كان العبد الصالح أبو حفص يهدى إلينا الدراهم والدنانير فى زقاق العسل خوفاً من أهل بيته » ولنواجه أنفاس الحنان فى هذا الشعر الرقيق :

يَا ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَوْ بكَتِ الْعَيْـنُ ... فَتًى مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ
غَيْرَ أَنِّى أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طِبْـتَ ... وَإِنْ لَمْ يَطِبْ وَلَمْ يَزْكُ بَيْتُكْ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ السَّبِّ وَالْقَذْ ... فِ فَلَوْ أَمْكَنَ الْجَزَاءُ جَزَيْتُكْ
وَلَوَ انِّى رَأَيْتُ قَبْرَكَ لَاسْتَحْـ ... يَيْتُ مِنْ أَنْ أُرَى وَمَا حَيَّيْتُكْ
وَقَلِيلٌ أَنْ لَوْ بَذَلْتُ دِمَاءَ الْـ ... بُدْنِ حُزْناً عَلَى الذرى وَسَقَيْتُكْ
دَيْرَ سِمْعَانَ لَا أَغَبَّكَ غَادٍ ... خَيْرُ مَيْتٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَيْتُكْ
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِى وَقَلْبِى ... إِنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ أَوْ قَدْ نَأَيْتُكْ
وَإِذَا حَرَّكَ الْحَشَا خَاطِرٌ مِنْـ ... كَ تَوَهَّمْتُ أَنَّنِى قَدْ رَأَيْتُكْ
وَعَجِيبٌ أَنِّى قَلَيْتُ بَنِى مَرْ ... وَانَ طُرًّا وَأَنَّنِى مَا قَلَيْتُكْ
قَرَّبَ الْعَدْلُ مِنْكَ لَمَّا نَأَى الْجَوْ ... رُ بِهِمْ فَاجْتَوَيْتُهُمْ وَاجْتَبَيْتُكْ
فَلَوَ انِّى مَلَكْتُ دَفْعاً لِمَا نَا ... بَكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَى لَفَدَيْتُكْ

٣ — ولم يظهر توجع الشريف على أهل البيت ظهوراً قويًّا إلا فى قصائده التى بكى بها الحسين ، وقد جمعت بين حرارة العصبية وصدق الوفاء .

وللشريف الرضى فى بكاء الحسين خمس قصائد طوال . الأولى رائية قالها فى سنة ٣٧٧ ، والثانية لامية قالها سنة ٣٨٧ ، والثالثة دالية قالها سنة ٣٩٠ ، والرابعة دالية أيضاً قالها سنة ٣٩٠ ، والخامسة مقصورة لم يذكر لها تاريخ .

٤ — بدأ الشاعر قصيدته الرائية بأبيات فى وصف مايغمره من الحزن والقلق ، ثم اندفع يذكر مايساوره لذكرى عاشوراء ، فقال :

وَرُبَّ قائِـــلَةٍ وَالْهَمُّ يُتْحِفُنِى ... بِنَاظِرٍ مِنْ نِطَافِ الدَّمْعِ مَمْطُورِ
خَفِّضْ عَلَيْكَ فَلِلْأَحْزَانِ آوِنَةٌ ... وَما الْمُقِيمُ عَلَى حُزْنٍ بِمَعْذُورِ
فَقُلْتُ هَيْهَاتَ فَاتَ السَّمْعَ لَائِمُهُ ... لَا يَفْهَمُ الْحُزْنَ إلَّا يَوْمَ عَاشُورِ
يَوْمٌ حَدَى الظُّعْنَ فيهِ بِابْنِ فاطِمَةٍ ... سِنَانُ مُطَّرِدِ الْكَعْبَيْنِ مَطْرُورِ (١)
وَخَرَّ لِلْمَوْتِ لَا كَفٌّ تُقَلِّبُهُ ... إلَّا بِوَطْءٍ مِنَ الْجُرْدِ الْمَحَاضِيرِ (٢)
ظَمْآنَ سَلَّى نَجِيعُ الطَّعْنِ غُلَّتَهُ ... عَنْ بَارِدٍ مِنْ عُبَابِ الْمَاءِ مَقْرُورِ (٣)

وفى هذه الأبيات يسمى الحسين « ابن فاطمة » لتكون الذكرى أوجع ، ويذكر أنه مات ظمآن لم يسله عن الماء إلا الدم النجيع ، وسنرى كيف يحرص الشاعر فى سائر قصائده على هذه الذكرى الأليمة ، وهى موت الحسين وهو ظمآن .

---

(١) السنان المطرور : المحدّد . (٢) الجرد جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر ، والمحاضير جمع محضير ، وهو الفرس المرتفع فى عدوه . (٣) مقرور : بارد .

ثم قال فى التوجع لمصرع ذلك السبط النبيل :

كَأَنَّ بِيضَ المَوَاضِى وَهْىَ تَنْهَبُهُ ... نَارٌ تحكَّمُ فى جِسْمٍ مِنَ النُّورِ
لِلّٰهِ مُلْقًى عَلَى الرَّمْضَاءِ عَضَّ بِهِ ... فَمُ الرَّدَى بَيْنَ إِقْدَامٍ وَتَشْمِيرِ
تَحْنُو عَلَيْهِ الرُّبَا ظِلاًّ وَتَسْتُرُهُ ... عَنِ النَّوَاظِرِ أَذْيَالُ الأَعَاصِيرِ
تَهَابُهُ الْوَحْشُ أَنْ تَدْنُو لِمَصْرَعِهِ ... وَقدْ أَقَامَ ثَلاثًا غَيْرَ مقبُورِ

وهو يصفه بالكرامة فى الممات ، فيذكر أن الربا أظلته ، وأن أذيال الأعاصير سترته عن العيون ، وأن الوحش هابه فلم ينهش لحمه ، مع أنه أقام ثلاث ليال غير مقبور .

ثم قال يذم بنى أمية ، ويهدد بالثأر لأهل البيت :

بَنِى أُمَيَّةَ مَا الأَسْيَافُ نَائِمَةٌ ... عَنْ شَاهِرٍ فى أَقَاصِى الأَرْضِ مَوْتُورِ
وَالْبَارِقَاتُ تلوَّى فى مَغَامِدِهَا ... وَالسَّابِقَاتُ تمطَّى فى المَضَامِيرِ
إِنِّى لأَرْقُبُ يَوْمًا لاَ خَفَاءَ لَهُ ... عُرْيَانَ يَقْلَقُ مِنْهُ كُلُّ مغرُورِ
وَلِلصَّوارِمِ مَا شَاءَتْ مَضَارِبُهَا ... مِنَ الرِّقَابِ شَرَابٌ غَيْرُ مَنْزُورِ
أَكُلَّ يَوْمٍ لآلِ المُصْطَفَى قَمَرٌ ... يَهْوِى بِوَقْعِ الْعَوَالِى وَالمبَاتِيرِ
وَكُلَّ يَوْمٍ لَهُمْ بَيْضَاءُ صَافِيَةٌ ... يَشُوبُهَا الدَّهْرُ مِنْ رَنَقٍ وَتَكْدِيرِ
مِغْوَارُ قومٍ يَرُوعُ المَوْتُ مِنْ يَدِهِ ... أَمْسَى وَأَصْبَحَ نَهْبًا لِلْمَقَادِيرِ
وَأَبْيَضُ الْوَجْهِ مَشْهُورٌ تَغطْرُفُهُ ... مَضَى بِيَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ مَشْهُورِ
مَالِى تَعَجَّبْتُ مِنْ هَمِّى وَنُفْرَتِهِ ... وَالحُزْنُ جُرْحٌ بِقَلْبِى غَيْرُ مَسْبُورِ

ومهاجمة بنى أمية لا موجب لها فى هذا الموطن ، لأن دولتهم كانت دالت ، وإنما يهدد خلفاء بنى العباس .

ثم قال يخاطب الحسين :

يَا جَدُّ، لاَ زَالَ لِي هَمٌّ يُحَرِّضُنِي   عَلَى الدُّمُوعِ وَوَجْدٌ غَيْرُ مَقْهُورِ
وَالدَّمْعُ تَحْفِزُهُ عَيْنٌ مُؤَرَّقَةٌ   حَفْزَ الحَنِيَّةِ عَنْ نَزْعٍ وَتَوْتِيرِ (١)
إِنَّ السُّلُوَّ لَمَحْظُورٌ عَلَى كَبِدِي   وَمَا السُّلُوُّ عَلَى قَلْبٍ بِمَحْظُورِ

٥ — وفى قصيدته اللامية يبدأ فيتحدث عن الدنيا وفتكها بالناس فيقول :

رَاحِلٌ أَنْتَ وَاللَّيَالِي نُزُولُ   وَمُضِرٌّ بِكَ الْبَقَاءُ الطَّوِيلُ
لاَ شُجَاعٌ يَبْقَى فَيَعْتَنِقُ الْبِيـ   ـضَ وَلاَ آمِلٌ وَلاَ مَأْمُولُ
غَايَةُ النَّاسِ فِى الزَّمَانِ فَنَاءٌ   وَكَذَا غَايَةُ الغُصُونِ الذُّبُولُ
إِنَّمَا المَرْءُ لِلْمَنِيَّةِ مَخْبُو   ءٌ وَلِلطَّعْنِ تَسْتَجِمُّ الخُيُولُ
مِنْ مَقِيلٍ بَيْنَ الضُّلُوعِ إِلَى طُو   لِ عَنَاءٍ وَفِى التُّرَابِ مَقِيلُ
فَهْوَ كَالْغَيْمِ أَلَّفَتْهُ جَنُوبٌ   يَوْمَ دَجْنٍ وَمَزَّقَتْهُ قَبُولُ
عَادَةٌ لِلزَّمَانِ فِى كُلِّ يَوْمٍ   يَتَنَاءَى خِلٌّ وَتَبْكِى طُلُولُ
فَاللَّيَالِى عَوْنٌ عَلَيْكَ مَعَ الْبَيْـ   ـنِ كَمَا سَاعَدَ الذَّوَابِلَ طُولُ (٢)
رُبَّمَا وَافَقَ الْفَتَى مِنْ زَمَانٍ   فَرَحٌ غَيْرُهُ بِهِ مَتْبُولُ

---

(١) الحنية : القوس . (٢) الذوابل الرماح .

هِىَ دُنْيَا إِنْ وَاصَلَتْ ذَا جَفَتْ هٰـــذَا مَلاَلاً كَأَنَّهَا عُطْبُولُ (١)
كُلُّ بَاكٍ يُبْكَى عَلَيْهِ وَإِنْ طَا لَ بَقَاءٌ وَالثَّاكِلُ الْمَثْكُولُ
وَالْأَمَانِىُّ حَسْرَةٌ وَعَنَاءٌ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهَا تَعْلِيـــــــلُ

وفى هذه القطعة يتكلم الشريف كلام الحكيم المحزون ، والحكمة أحياناً يخلقها الحزن البليغ ، والقارئ يعجب من وفرة الخيال فى هذه الأبيات : فنعيم الدنيا غيم ألفته ريح الجنوب ، ثم مزقته ريح القبول ، والناس يستريحون حيناً ليواجهوا بعد الراحة تعب الموت ، كما تستجم الخيول لأيام الطعان ، وغاية الناس الفناء كما أن غاية الغصون الذبول ، والليالى عون على المرء مع البين ، فكأنها الطول فى الرماح الذوابل ، والدنيا كالحسناء الغادرة تواصل هذا وتجفو ذاك ، وكل باك سيبكى عليه وإن طال البقاء ، وكل ثاكل سيصبح يوماً وهو مثكول ، والأمانى حسرة وعناء لمن يحسب لجهله أنها لهو وتعليل .

ثم أخذ فى خطاب الحسين ورمى قاتليه بنقض عهد الرسول :

يَا ابْنَ بِنْتِ الرَّسُولِ ضَيَّعَتِ الْعَهْـــدَ رِجَالٌ وَالْحَافِظُونَ قَلِيلُ
مَا أَطَاعُوا النَّبِىَّ فِيكَ وَقَدْ مَا لَتْ بِأَرْمَاحِهِمْ إِلَيْكَ الذُّحُولُ (٢)
وَأَحَالُوا عَلَى الْمَقَادِيرِ فِى حَرْ بِكَ لَوْ أَنَّ عُذْرَهُمْ مَقْبُولُ
وَاسْتَقَالُوا مِنْ بَعْدِ مَا أَجْلَبُوا فِيـــهَا أَالْآنَ أَيُّهَا الْمُسْتَقِيلُ ؟ !
إِنَّ أَمْرًا قَنَّعْتَ مِنْ دُونِهِ السَّيْـــفَ لِمَنْ حَازَهُ لَمَرْعًى وَبِيلُ

---

(١) العطبول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . (٢) الذحول جمع ذحل ، وهو الثأر .

يَا حُسَاماً فَلَّتْ مَضَارِبُهُ الْهَـا ... مَ وَقَدْ فَلَّهُ الْحُسَامُ الصَّقِيل

يَا جَوَادًا أَدْمَى الْجَوَادَ مِنَ الطَّعْـ ... ـنِ وَوَلَّى وَنَحْرُهُ مَبْلُولُ

أَتُرَانِي أُعِيرُ وَجْهِيَ صَوْنًا ... وَعَلَى وَجْهِـهِ تَجُولُ الْخُيُولُ

✡ أَتَرَانِي أَلَذُّ مَاءً وَلَمَّا ... يُرْوَ مِنْ مُهْجَةِ الْإِمَامِ الْغَلِيلُ

وفى هذه الأبيات إثارة لأكرم العواطف الدينية ، فالشاعر يذكر أن قاتلى الحسين ضيعوا العهد ، وخفروا ذمة النبي ، ولم يقاتلوا الحسين فى سبيل الحق ، وإنما قاتلوه فى سبيل الذحول ، وليتأمل القارئ دقة هذا البيت :

إِنَّ أَمْرًا قُنِّعْتَ مِنْ دُونِهِ السَّيْـ ... ـفَ لِمَنْ حَازَهُ لَمَرْعًى وَبِيلُ

يريد أن الدنيا التى لا تصفو لأصحابها إلا بقتل الحسين دنيا كدرة لن يكون لها صفاء .

ثم شرع يصف مصرع الحسين ، وفزع نسائه يوم ذلك الهول . فقال :

قَبَّلَتْهُ الرِّمَاحُ وَانْتَضَلَتْ فِيـ ... ـهِ الْمَنَايَا وَعَانَقَتْهُ النُّصُـولُ(١)

وَالسَّبَايَا عَلَى النَّجَائِبِ تُسْتَا ... قُ وَقَدْ نَالَتِ الْجُيُوبَ الذُّيُولُ

مِنْ قُلُوبٍ يَدْمَى بِهَا نَاظِرُ الْوَجْـ ... ـدِ وَمِنْ أَدْمُعٍ مَرَاهَا الْهُمُولُ

قَدْ سُلِبْنَ الْقِنَاعَ عَنْ كُلِّ وَجْهٍ ... فِيهِ لِلصَّوْنِ مِنْ قِنَاعٍ بَدِيلُ

وَتَنَقَّبْنَ بِالْأَنَامِلِ وَالدَّمْـ ... ـعُ عَلَى كُلِّ ذِى نِقَابٍ دَلِيلُ

---

(١) النصول جمع نصل ، وهو السيف .

وَتَشَاكَيْنَ وَالشَّكَاةُ بُكَاءٌ   وَتَنَادَيْنَ وَالنِّدَاءُ عَوِيلُ

وللقارئ أن يتأمل البيت الثالث من هذه الأبيات فهو يذكر أن القلوب لها نواظر هى نواظر الوجد ، وفى البيت الرابع يذكر أن الصون بديل من القناع فى أوجه من سلبن القناع من نساء الحسين . والتنقب بالأنامل من صور الهول ، وكذلك التشاكى بالبكاء ، والتنادى بالعويل .

ولينظر القارئ رقة المناجاة فى هذه الأبيات :

يَا غَرِيبَ الدِّيَارِ صَبْرِى غَرِيبٌ   وَقَتِيلَ الْأَعْدَاءِ نَوْمِى قَتِيلُ
بِى نِزَاعٌ يَطْغَى إِلَيْكَ وَشَوْقٌ   وَغَرَامٌ وَزَفْرَةٌ وَعَوِيلُ
لَيْتَ أَنِّى ضَجِيعُ قَبْرِكَ أَوْ أَنَّ   ثَرَاهُ بِمَدْمَعِى مَطْلُولُ

وعاد إلى المناداة بطلب الثأر . فقال :

يَا بَنِى أَحْمَدٍ إِلَيْكُمْ سِنَانِى   غَائِبٌ عَنْ طِعَانِهِ مَمْطُولُ
وَجِيَادِى مَرْبُوطَةٌ وَالْمَطَايَا   وَمَقَامِى يَرُوعُ عَنْهُ الدَّخِيلُ
كَمْ إِلَى كَمْ تَعْلُو الطَّغَامُ وَكَمْ   يَحْكُمُ فِى كُلِّ فَاضِلٍ مَفْضُولُ ؟
قَدْ أَذَاعَ الْغَلِيلَ قَلْبِى وَلٰكِنْ   غَيْرُ بِدْعٍ أَنِ اسْتَطَبَّ الْعَلِيلُ
لَيْتَ أَنِّى أَبْقَى فَأَمْتَرِقَ النَّا   سَ وَفِى الْكَفِّ صَارِمٌ مَسْلُولُ
وَأَجُرُّ الْقَنَا لِثَارَاتِ يَوْمِ الطَّفِّ   يَسْتَلْحِقُ الرَّعِيلَ الرَّعِيلُ

والثأر الذى يدعو إليه فى هذه الأبيات لا يقف عند بنى أمية ، ولكنه يجتاح بنى العباس ، ألا ترونه يقول :

كَمْ إِلَى كَمْ تَعْلُو الطَّغَامُ وَكَمْ ... يَحْكُمُ فِى كُلِّ فاضِلٍ مفْضُولُ ؟

وكانت للرضى وثبات نفسية تسمو به إلى المطالبة بعرش الخلافة الاسلامية ، وكان دم الحسين من الوسائل إلى ذلك الارث المضاع .

وقد ختم الشريف لاميته هذه بأبيات فى الفخر أضاعت روعة البكاء ، وإن كنا نستجيد منها هذا البيت :

أَتُرِكُ الشَّىْءَ عَاذِرِى فِيهِ كُلُّ النَّا ... سِ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَحَانِى عَذُولُ ؟ !

٦ — أما الدالية فقد افتتحها بخمسة عشر بيتاً فى النسيب ، ثم تخلص إلى بكاء الحسين . فقال :

شَغَلَ الدُّمُوعَ عَنِ الدِّيارِ بُكَاؤُنَا ... لِبُكَاءِ فاطِمَةٍ عَلَى أَوْلَادِهَا

أَتُرَى دَرَتْ أَنَّ الحُسَيْنَ طَرِيدَةٌ ... لِقَنَا بَنِى الطَّرْدَاءِ عِنْدَ وِلَادِهَا

كَانَتْ مَآتِمُ بِالْعِرَاقِ تَعُدُّهَا ... أُمَوِيَّةٌ بِالشَّامِ مِنْ أَعْيَادِهَا

مَا رَاقَبَتْ غَضَبَ النَّبِيِّ وَقَدْ غَدَا ... زَرْعُ النَّبِيِّ مَظَنَّـــةً لِحَصَادِهَا

بَاعَتْ بَصَائِرَ دِينِهَا بِضَلَالِهَا ... وَشَرَتْ مَعَاطِبَ غَيِّهَا بِرَشَادِهَا

جَعَلَتْ رَسُولَ اللهِ مِنْ خُصَمَائِهَا ... فَلَبِئْسَ مَا ذَخَرَتْ لِيَوْمِ مَعَادِهَا

نَسْلُ النَّبِيِّ عَلَى صِعَابِ مَطِيِّهَا ... وَدَمُ النَّبِيِّ عَلَى رُءُوسِ صِعَادِهَا

وهو فى هذه القطعة يعيد ماقال من قبل ، فيذكر أن بنى أمية لم يراقبوا غضب

الرسول ، فجعلوا زرعه من بعض ما يحصدون ، ويذكر أن النبي سيكون خصمهم يوم المعاد ، وبئس ما يذخرون !

ثم أخذ فى هجاء بنى أمية ومدح العلويين . فقال :

إِنَّ الْخِلَافَةَ أَصْبَحَتْ مَزْوِيَّةً   عَنْ شَعْبِهَا بِبَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا
طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عُلُوجُ أُمَيَّةٍ   تَنْزُو ذِئَابُهُمُ عَلَى أَعْوَادِهَا
هِيَ صَفْوَةُ اللّٰهِ الَّتِي أَوْحَى لَهَا   وَقَضَى أَوَامِرَهُ إِلَى أَمْجَادِهَا
أَخَذَتْ بِأَطْرَافِ الْفَخَارِ فَمَاذِرٌ   أَنْ يُصْبِحَ الثَّقَلَانِ مِنْ حُسَّادِهَا
الزُّهْدُ وَالْأَحْلَامُ فِى فُتَّاكِهَا   وَالْفَتْكُ لَوْلَا اللّٰهُ فِى زُهَّادِهَا
عُصَبٌ يُقَمَّطُ بِالنِّجَادِ وَلِيدُهَا   وَمُهُودُ صِبْيَتِهَا ظُهُورُ جِيَادِهَا
تَرْوِى مَنَاقِبَ فَضْلِهَا أَعْدَاؤُهَا   أَبَدًا وَتُسْنِدُهُ إِلَى أَضْدَادِهَا
يَا غَيْرَةَ اللّٰهِ اغْضَبِى لِنَبِيِّهِ   وَتَزَحْزَحِى بِالْبِيضِ عَنْ أَغْمَادِهَا
مِنْ عُصْبَةٍ ضَاعَتْ دِمَاءُ مُحَمَّدٍ   وَبَنِيهِ بَيْنَ يَزِيدِهَا وَزِيَادِهَا
صَفَدَاتُ مَالِ اللّٰهِ مِلْءُ أَكُفِّهَا   وَأَكُفُّ آلِ اللّٰهِ فِى أَصْفَادِهَا
ضَرَبُوا بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ أَبْنَاءَهُ   ضَرْبَ الْغَرَائِبِ عُدْنَ بَعْدَ ذِيَادِهَا

وللقارئ أن يتنسم روح الفتوة فى هذا الشعر البليغ ، وأن يتأمل كيف يكون النجاد قماط الوليد ، وكيف تكون ظهور الجياد مهاد الأطفال ، وأن يعجب بقوة العزم فى هذا البيت :

الزُّهْدُ وَالْأَحْلَامُ فِى فُتَّاكِهَا   وَالْفَتْكُ لَوْلَا اللّٰهُ فِى زُهَّادِهَا

ثم لذعته الذكرى فدمدم بهذه الأبيات وقد عاوده خيال (الطف) و (عاشوراء):

قِفْ بِى وَلَوْ لَوْثَ الْإِزَارِ ، فَإِنَّمَا هِىَ مُهْجَةٌ عَلِقَ الجَوَى بِفُؤَادِهَا
بِالطَّفِّ حَيْثُ غَدَا مُرَاقُ دِمَائِهَا وَمُنَاخُ أَيْنُقِهَا لِيَوْمِ جِلَادِهَا
الْقَفْرُ مِنْ أَرْوَاقِهَا وَالطَّيْرُ مِنْ طُرَّاقِهَا وَالْوَحْشُ مِنْ عُوَّادِهَا
تَجْرِى لَهَا حَبَبُ الدُّمُوعِ وَإِنَّمَا حَبُّ الْقُلُوبِ يَكُنَّ مِنْ أَمْدَادِهَا
يَا يَوْمَ عَاشُورَاءَ كَمْ لَكَ لَوْعَةٌ تَتَرَقَّصُ الْأَحْشَاءُ مِنْ إِيقَادِهَا
مَا عُدْتَ إِلَّا عَادَ قَلْبِى غُلَّةٌ حَرَّى وَلَوْ بَالَغْتُ فِى إِبْرَادِهَا
مِثْلُ السَّلِيمِ مَضِيضَةٌ آنَاؤُهُ خُزْرُ الْعُيُونِ تَعُودُهُ بِعِدَادِهَا

ثم قال يخاطبه بمثل ما خاطبه به فى الرائية :

يَا جَدُّ لَا زَالَتْ كَتَائِبُ حَسْرَةٍ تَغْشَى الضَّمِيرَ بِكَرِّهَا وَطِرَادِهَا
أَبَدًا عَلَيْكَ وَأَدْمُعٌ مَسْفُوحَةٌ إِنْ لَمْ يُرَاوِحْهَا الْبُكَاءُ يُغَادِهَا
هٰذَا الثَّنَاءُ وَمَا بَلَغْتُ وَإِنَّمَا هِىَ حَلْبَةٌ خَلَعُوا عِذَارَ جَوَادِهَا
أَأَقُولُ جَادَكُمُ الرَّبِيعُ وَأَنْتُمُو فِى كُلِّ مَنْزِلَةٍ رَبِيعُ بِلَادِهَا
أَمْ أَسْتَزِيدُ لَكُمْ عُلاً بِمَدَائِحِى أَيْنَ الْجِبَالُ مِنَ الرُّبَا وَوِهَادِهَا

٧ — والدالية الثانية ابتدأها الشاعر أيضاً بالنسيب ، وتلك سنة قديمة لم تخل منها قصائد الرثاء ، والنسيب فى أمثال هذه القصائد يخلو من النزق

والطيش ، ويقف فيه الشاعر عند حدود الشكوى والحنين ، كأن يقول عن شاك قليل العوّاد :

يُرَاعِى نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْهَمُّ كُلَّمَا ... مَضَى صَادِرٌ عَنِّى بِآخَرَ وَارِدِ
تَوَزَّعَ بَيْنَ النَّجْمِ وَالدَّمْعِ طَرْفُهُ ... بِمَطْرُوفَةٍ إِنْسَانُهَا غَيْرُ رَاقِدِ
وَمَا يَطَّبِيهَا الْغَمْضُ إِلاَّ لِأَنَّهُ ... طَرِيقٌ إِلَى طَيْفِ الخَيَالِ المُعَاوِدِ
ذَكَرْتُكُمُو ذِكْرَ الصِّبَا بَعْدَ عَهْدِهِ ... قَضَى وَطَرًا مِنِّى وَلَيْسَ بِعَائِدِ
إِذَا جَانَبُونِى جَانِبًا مِنْ وِصَالِهِمْ ... عَلِقْتُ بِأَطْرَافِ الْمُنَى وَالْمَوَاعِدِ
فَيَا نَظْرَةً لاَ تَنْظُرُ الْعَيْنُ أُخْتَهَا ... إِلَى الدَّارِ مِنْ رَمْلِ اللِّوَى الْمُتَقَاوِدِ
هِىَ الدَّارُ لاَ شَوْقِى الْقَدِيمُ بِنَاقِصٍ ... إِلَيْهَا وَلاَ دَمْعِى عَلَيْهَا بِجَامِدِ
وَلِى كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ لَوْ أَضَاعَهَا ... مِنَ السُّقْمِ غَيْرِى مَا بَغَاهَا بِنَاشِدِ
أَمَا فَارَقَ الْأَحْبَابَ قَبْلِى مُفَارِقٌ ... وَلاَ شَيَّعَ الْأَظْعَانَ مِثْلِى بِوَاجِدِ

ثم تخلص إلى ذكرى الحسين ، فقال :

تَأَوَّبَنِى دَاءٌ مِنَ الْهَمِّ لَمْ يَزَلْ ... بِقَلْبِىَ حَتَّى عَادَنِى مِنْهُ عَائِدِى
تَذَكَّرْتُ يَوْمَ السِّبْطِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... وَمَا يَوْمُنَا مِنْ آلِ حَرْبٍ بِوَاحِدِ

وتوجع لموت الحسين ظمآن كما فعل فى القصائد الماضية ، فقال :

وَظَامٍ يُرِيغُ الْمَاءَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ ... سَقَوْهُ ذُبَابَاتِ الرِّقَاقِ الْبَوَارِدِ
أَتَاحُوا لَهُ مُرَّ الْمَوَارِدِ بِالْقَنَا ... عَلَى مَا أَبَاحُوا مِنْ عِذَابِ الْمَوَارِدِ

وقال يصف انتقال ميراثهم إلى بني أمية :

وَيَا رُبَّ سَاعٍ فِي اللَّيَالِي لِقَاعِدِ ... عَلَى مَا أَرَى بَلْ كُلُّ سَاعٍ لِقَاعِدِ
أَضَاعُوا نُفُوساً بِالرِّمَاحِ ضِيَاعُهَا ... يَعِزُّ عَلَى الْبَاغِينَ مِنَّا النَّوَاشِدِ
أَأَللهُ ما تَنْفَكُّ فِي صَفَحَاتِهَا ... خُمُوشٌ لِكَلْبٍ مِنْ أُمَيَّةَ عَاقِدِ
لَئِنْ رَقَدَ النُّصَّارُ عَمَّا أَصَابَنَا ... فَمَا اللهُ عَمَّا نِيلَ مِنَّا بِرَاقِدِ
لَقَدْ عَلَّقُوهَا بِالنَّبِيِّ خُصُومَةً ... إِلَى اللهِ تُغْنِي عَنْ يَمِينٍ وَشَاهِدِ

وهو فى هذا المعنى يكرر ماقاله من قبل .

ولم يرضه أن يقف عند هجاء بنى أمية ، فغمز بنى العباس بهذه الأبيات :

وَيَا رُبَّ أَدْنَى مِنْ أُمَيَّةَ لُحْمَةً ... رَمَوْنَا عَلَى الشَّنْآنِ رَمْيَ الجَلَامِدِ
طَبَعْنَا لَهُمْ سَيْفاً فَكُنَّا لِحَدِّهِ ... ضَرَائِبَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَالسَّوَاعِدِ
أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا ... عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الآخِرِينَ بِزَائِدِ

٨ — بقيت المقصورة وهى ضعيفة بالقياس إلى هذه القصائد ، وقد وصف بها الشاعر مصرع الحسين ، وما لقى نساؤه من فزع وهول ، واستثار إشفاق الرسول للسبط الشهيد ، وتوجع لأهل البيت ، وعجب كيف أمهل الله الظالمين فلم تنقلب بهم الأرض ولم ترجمهم السماء .

وخلاصة القول : أن نكبة الحسين كانت ميداناً لقرائح القصاص والكتاب والشعراء ، ومن آثارها هذه القصائد الخمس . والفتنة والقتل من أسباب البعث فى الآداب والفنون .

الفصل السابع

قصائد مهيار

فى أهل البيت

١ — لمهيار فى أهل البيت عشر قصائد طوال ، وجوّ تلك القصائد يشعر بأن معاصريه كانوا يستكثرون عليه أن يمعن فى مدح آل الرسول ، كأن العصبية لأهل البيت كانت تعتمد على الجنسية العربية ، فانا نراه يقول :

أَنَا العَبْدُ وَالاَ كُمُ عَقْدُهُ　　إذَا القَوْلُ بِأَلْقَلْبِ لَمْ يُعْقَدِ
وَفِيــــهِ وِدَادِى وَدِينِى مَعاً　　وَإِنْ كَانَ فِى « فَارِسٍ » مَوْلِدِى
خَصَمْتُ ضَلاَلِى بِكُمْ فَاهْتَدَيْتُ　　وَلَوْلاَ كُمُ لَمْ أَ كُنْ أَهْتَدِى

وعبارة « وإن كان فى فارس مولدى » تعين أن تشيع الفرس كان يقابل فى بعض البيئات بشىء من الاستغراب ، ويؤيد هذا ماجاء فى التمهيد ليائيته فى رثاء أهل البيت إذ يقول جامع الديوان .

« وقال يرثى أهل البيت ، وبلغه أن بعض حاسديه يستكثر مدحه إياهم ، ويدعى عليه أنه بما يظهر من المخالفة فى الأصول لا يجوز أن يخلص فى مدحهم ويذكر ذلك فى اخر القصيدة » .

ومعنى هذا الكلام أن مهياراً كان يتعصب للفرس ، والتعصب للفرس ينافى التشيع لأهل البيت ، ويكاد يكون من المعقول أن لا يجتمع تشيع وشعوبية ، ويوضح هذا قول مهيار فى اليائية :

هٰذَا لَهُمْ وَالْقَوْمُ لاَ قَوْمِى هُمُ ... جِنْساً وَعُقْرُ دِيَارِهِمْ لاَ دَارِيَا
إِلاَّ الْمَحَبَّةَ فَالْكَرِيمُ بِطَبْعِهِ ... يَجِدُ الْكِرَامَ الْأَبْعَدِينَ أَدَانِيَا

وقوله فى خطاب علىّ بن أبى طالب :

وَبِرَغْمِهِمْ لَأُسَيِّرَنَّهَا شُرَّدًا ... وَلَأُتْبِعَنْ مِنْهَا بَدِيئاً تَالِيَا
غُرًّا أَقُدُّ مِنَ الْجَمَالِ مَعَانِياً ... فِيهَا وَأَلْتَقِطُ النُّجُومَ قَوَافِيَا
شُكْرًا لِصُنْعِكَ عِنْدَه «فَارِسَ» أُسْرَتِى ... وَبِمَا سَلِمْتَ تَفَاؤُلاً وَأَيَادِيَا
وَتَعَصُّباً وَمَوَدَّةً لَكَ صَيَّرَا ... فِي حُبِّكَ الشِّيعِيَّ مِنْ إِخْوَانِيَا

وهذا نص فى أن التشيع كان يوجب لذلك العهد وحدة العصبية العربية ، وإن كان من العسير أن نجزم بأن الحال كان كذلك فى جميع البيئات الاسلامية، فقد صارت فارس بعد ذلك من المعاقل الشيعية .

٢ — كان مهيار يُعْنَى بمدح آل البيت ، وكانت تقترح عليه القصائد فى مدحهم ، فقد حدثنا جامع الديوان أنه أُنْشِد قصيدة فى مراثى أهل البيت من مرذول الشعر ، وسئل أن يعمل أبياتاً فى وزنها وقافيتها (١) .

---

(١) ص ٢٦٢ ج ٢ .

وأنه سئل عمل أبيات فى مراثى أهل البيت عليهم السلام على هذا الوزن والروىّ ، وهما مما تقل مساعدة الكلام المختار على مثله ، ولم يجد لاجابة المُلْتَمِسِ لذلك بدّا - على مافيه من اللين والانحطاط - فقال ارتجالا على جهة الاملاء ، ومقتضى إجابة السائل (١) .

وهذا وذلك يدلان على أمرين . الأول : أن الشعر فى أهل البيت كان يطلب . والثانى : أن مهياراً كان معروفاً بحب أهل البيت .

ولا يفوتنا من الوجهة الفنية أن نشير إلى تَنَبُّهِ مهيار إلى خطر الوزن والقافية فى التعبير عن مختلف الأغراض ؛ وهذا مَلْحَظٌ سبقه إليه أبو الفضل ابن العميد ، فقد حدث الصاحب بن عباد أنه كان « يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » وأنه سمعه يقول : « إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج : لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أىّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أىّ القوافى يحصل أجمل اطراد ، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه ، والتياثه عليه (٢) » :

أما القصيدة فمطلعها :

يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ تُرَاكِ   بَالِغٌ قَتْـلِى رِضَاكِ

وهى فى وزن مرقص ، وقافية تعتمد على رقة الخطاب ، وهما لا يصلحان لمصاولة

(١) ديوان مهيار ج ٢ ص ٣٦٧ . (٢) راجع كتاب النثر الفنى ص ٢٥٦ ج ٢ .

خصوم أهل البيت ، ولذلك رأينا الشاعر ينظم اثنين وثلاثين بيتاً فى النسيب وفى التمهيد لبكاء أهل البيت ، ثم ينظم ثلاثة وعشرين بيتاً فى الغرض الذى أنشئ فيه هذا القصيد ، فجاء الغرض وكأنه تبع - من حيث الْـكَمِّيَّةُ - لشعر النسيب .

٣ - والولاء لأهل البيت ظاهر الصدق فى شعر مهيار ، وهو يذكر أنه اهتدى بهداهم حين انتقل من الشرك إلى الاسلام ، فيقول :

رَكِبْتُ لَـكُمْ لُقَمِي فَاسْتَنَنْتُ ... وَكُنْتُ أُخَابِطُهُ مُجْهَـلاَ
وَفُكَّ مِنَ الشِّرْكِ أَسْرِى وَكَا ... نَ غُلاًّ عَلَى مَنْـكِبِي مُقْفَلاَ
أُوَالِيكُمُ مَا جَرَتْ مُزْنَةٌ ... وَمَا اُصْطَخَبَ الرَّعْدُ أَوْ جَلْجَلاَ
وَأَبْرَأُ مِمَّنْ يُعَادِيكُمُ ... فَإِنَّ الْبَرَاءَةَ أَصْـلُ الْوَلاَ
وَمَوْلاَكُمُ لاَ يَخَافُ الْعِقَا ... بَ فَـكُونُوا لَهُ فِي غَدٍ مَوْئِلاَ

ويقول :

يَا هُـدَاةَ اللهِ وَالنَّجْـوَةَ فِي يَوْمِ الْهَلاَكِ
بِكُمُ اُسْتَدْلَلْتُ فِي حَيْـرَةِ أَمْرِى وَارْتِبَاكِى
أَظْلَمَ الشَّكُّ وَكُنْتُمْ لِي مَصَابِيحَ الْمَشَاكِى

ويقول فى خطاب علىّ بن أبى طالب :

عَادَيْتُ فِيكَ النَّاسَ لَمْ أَحْفِلْ بِهِمْ ... حَتَّى رَمَوْنِى عَنْ يَدٍ إِلاَّ الْأَقَلْ
تَفَرَّغُوا يَعْتَرِقُونَ غَيْبَـةً ... لَحْمِي وَفِي مَدْحِكَ لِي عَنْهُمْ شُغُلْ (١)

---

(١) يعترقون : ينزعون ما على العظم من لحم ، وهو تصوير لخطر الاغتياب .

عَدَلْتُ أَنْ تَرْضَى بِأَنْ يَسْخَطَ مَنْ تُقِــلُّهُ الارْضُ عَلَيَّ فَاعْتَدِلْ
وَلَوْ يُشَقُّ الْبَحْرُ ثُمَّ يَلْتَقِي فَلِقَاهُ فَوْقِي فِي هَوَاكَ لَمْ أُبَلْ
عَلاَقَةٌ بِي لَــكُمُ سَابِقَةٌ لِمَجْدِ «سَلْمَانَ» إِلَيْكُمْ تَتَّصِلْ

وسلمان فى البيت الأخير: هو سلمان الفارسى ، وكان معروف الولاء لأهل البيت ، وهو يكثر من الاشارة فى شعره إلى ما جرّ عليه ولاؤه من المحن والأرزاء بسبب الأحقاد ، فيقول :

هَلْ يَبْلُغَنَّكَ يَا أَبَا الحَسَنِ الَّذِي جُوزِيتُ فِيكَ وَكَانَ ضِدَّ جَزَائِيَا
مِنْ مَعْشَرٍ لَمَّا مَدَحْتُكَ غِظْتُهُمْ فَتَنَاوَشُوا عِرْضِي وَشَانُوا شَانِيَا
أَسْمَعْ - لِيُنْصِفَنِي انْتِقَامُكَ - إِنَّهُمْ بِالْجَوْرِ رَاضُونِي فَجِئْتُكَ شَاكِيَا
لَمَّا رَأَوْا مَا غَاظَ مِنِّي شَنَّعُوا حَاشَاكَ أَنِّي قُلْتُ فِيكَ مُدَاجِيَا
لاَ كَانَ إِلاَّ مَيِّتًا مِيثَاقُهُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ كَانَ بَعْدَكَ بَاقِيَا

وهذا نهاية التصوف فى الولاء .

ولمهيار نظرة سياسية دقيقة فيما أصاب الحسين : فهو يرى أن ماوقع بين الصحابة يوم السقيفة كان تمهيداً لمصرعه فى كربلاء ، وانظر هذين البيتين :

فَيَوْمُ السَّقِيفَةِ يَا ابْنَ النَّبِيِّ طَرَّقَ يَوْمَكَ فِي كَرْبَلاَ
وَغَصْبُ أَبِيكَ عَلَى حَقِّهِ وَأُمِّكَ حَسَّنَ أَنْ تُقْتَلاَ

يريد أن اجتراء القوم على زحزحة علىّ عن حقه فى الخلافة وحرمان فاطمة من

حقها فى الميراث كان مما هوّن شأن أهل البيت ، وأغرى خصومهم بدم الحسين ، ولو جرى الأمر من أول يوم على حفظ الحقوق لأصحاب الحقوق لبقيت هيبة أهل البيت ، وعزّ على خصومهم أن يطمعوا فى دمائهم الزكية ، ومكانهم مانعرف من حب الرسول .

٥ — أكثر مهيار من التوجع لفقد الحسين ، ورأى قتله قريباً من الشرك . فقال :

أَرَى الدِّينَ مِنْ بَعْدِ يَوْمِ الْحُسَيْنِ　　عَلِيــلاً لَهُ الْمَوْتُ بِالْمَرْصَدِ
وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ مِنْ قَبْــلِهِ　　إِذَا أَنْتَ قِسْتَ بِمُسْــتَبْعَدِ
وَمَا آلُ حَرْبٍ جَنَوْا إِنَّمَا　　أَعَادُوا الضَّلاَلَ عَلَى مَنْ بُدِى
سَيَعْلَمُ مَنْ (فَاطِمٌ) خَصْمُهُ　　بِأَىِّ نَكَالٍ غَدًا يَرْتَدِى
وَمَنْ سَاءَ (أَحْمَدَ) يَا سِبْطَهُ　　فَبَاءَ بِقَتْلِكَ مَاذَا يَدِى ؟
فِدَاؤُكَ نَفْسِى وَمَنْ لِى بِذَا　　كَ لَوْ أَنَّ مَوْلًى بِعَبْدٍ فُدِى

٦ — وأهمّ قصائد مهيار فى مدح آل البيت هى العينية التى دافع بها عن حق علىّ بن أبى طالب ، وهى من عيون القصائد ، وَتُذَكِّرُ بعينية حسان فى المحاماة عن الرسول .

تقع هذه القصيدة فى تسعة وأربعين بيتاً ، منها أربعة عشر فى النسيب ، ولكن أىّ نسيب ، إنها نفحة من الشعر الوجدانى الرصين . ولننظر كيف يقول :

هَلْ بَعْدَ مُفْتَرَقِ الْأَظْعَانِ مُجْتَمَعُ　　أَمْ هَلْ زَمَانٌ بِهِمْ قَدْ فَاتَ يُرْتَجَعُ

تحمّلوا تسعُ البيداء ركبَهمُ ... ويحملُ القلبُ فيهم فوقَ ما يسعُ
مغرّبينَ همُ والشمس قد ألفوا ... أن لا تغيبَ مغيباً حيثما طلعوا
شاكينَ للبينِ أجفاناً وأفئدةً ... مفجّعينَ بهِ أمثالَ ما فجعوا
تخطو بهم فاترات في أزمّتها ... أعناقُها تحتَ إكراهِ النوى خُضُعُ
تشتاقُ نعمانَ لا ترضى بروضته ... داراً ولو طابَ مُصطافٌ ومُرتبعُ
فداءُ وافينَ تمشي الوافياتُ بهم ... دمعٌ دمٌ وحشاً في إثرهم قطعُ
الليلُ بعدهمُ كالهجرِ متّصلٌ ... ماشاءَ والنومُ مثلُ الوصلِ منقطعُ
ليتَ الذينَ أصاخوا يومَ صاحَ بهم ... داعي النوى ثوّروا، صمّوا كما سمعوا
أو ليتَ ما أخذَ التوديعُ من جسدي ... قضى عليّ فللتعذيبِ ما يدعُ

ولما انتهى إلى مدح أهل البيت ضرب الغادرين بالقواصم ، فقال :

هذي قضايا رسولِ اللهِ مهملةٌ ... غدراً وشملُ رسولِ اللهِ منصدعُ
والناسُ للعهدِ ما لاقوا وما قربوا ... وللخيانةِ ما غابوا وما شسعوا(١)
وآلُهُ وهمُ آلُ الإلهِ وهمْ ... رُعاةُ ذا الدينِ ضيموا بعدهُ ورُعوا
ميثاقُهُ فيهمُ مُلقى وأمّتُهُ ... معْ مَنْ بغاهمْ وعاداهمْ لهُ شيعُ

ثم انتقل إلى ما أضاعوا من بيعة يوم الغدير، وكانوا يرون أن النبي خطب الناس عنده ، فقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ، وقد استغلّ الشيعة هذا « التصريح » وعبّر عن هواهم مهيار حين قال :

---

(١) شسعوا : بعدوا .

تُضَاعُ بَيْعَتُهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ لَهُمْ ... بَعْدَ الرِّضَا وَتُحَاطُ الرُّومُ وَالْبِيَعُ[1]

مُقَسَّمِينَ بِأَيْمَانٍ هُمُ جَذَبُوا ... بُيُوعِهَا وَبِأَسْيَافٍ هُمُ طَبَعُوا

مَا بَيْنَ نَاشِرِ حَبْلٍ أَمْسِ أَبْرَمَهُ ... تُعَدُّ مَسْنُونَةً مِنْ بَعْدِهِ الْبِدَعُ

وَبَيْنَ مُقْتَنِصٍ بِالْمَكْرِ يَخْدَعُهُ ... عَنْ آجِلٍ عَاجِلٌ حُلْوٌ فَيَنْخَدِعُ

وَقَائِلٍ لِي عَلِيٌّ كَانَ وَارِثَهُ ... بِالنَّصِّ مِنْهُ فَهَلْ أَعْطَوْهُ أَمْ مَنَعُوا؟

فَقُلْتُ كَانَتْ هَنَاتٌ لَسْتُ أَذْكُرُهَا ... يَجْزِى بِهَا اللَّهُ أَقْوَامًا بِمَا صَنَعُوا

واندفع يصاول خصوم أهل البيت مصاولة الفحول، فقال :

أَبْلِغْ رِجَالاً إِذَا سَمَّيْتَهُمْ عُرِفُوا ... لَهُمْ وُجُوهٌ مِنَ الشَّحْنَاءِ تُمْتَقَعُ

تَوَافَقُوا وَقَنَاةُ الدِّينِ مَائِلَةٌ ... فَحِينَ قَامَتْ تَلَاحَوْا فِيهِ وَاقْتَرَعُوا

أَطَاعَ أَوَّلُهُمْ فِي الْغَدْرِ ثَانِيَهُمْ ... وَجَاءَ ثَالِثُهُمْ يَقْفُو وَيَتَّبِعُ

قِفُوا عَلَى نَظَرٍ فِي الْحَقِّ نَفْرِضُهُ ... وَالْعَقْلُ يَفْصِلُ وَالْمَحْجُوجُ يَنْقَطِعُ

بِأَيِّ حُكْمٍ بَنُوهُ يَتْبَعُونَكُمُ ... وَفَخْرُكُمْ أَنَّكُمْ صَحْبٌ لَهُ تَبَعُ

وَكَيْفَ ضَاقَتْ عَلَى الْأَهْلِينَ تُرْبَتُهُ ... وَلِلْأَجَانِبِ مِنْ جَنْبَيْهِ مُضْطَجَعُ

وَفِيمَ صَيَّرْتُمُ الْإِجْمَاعَ حُجَّتَكُمْ ... وَالنَّاسُ مَا اتَّفَقُوا طَوْعًا وَلَا اجْتَمَعُوا

وهذه القوة فى الحِجَاجِ تُذَكِّرُنَا بوثبات الكميت فى قصائده الهاشميات .

وقد ختم هذه القصيدة الرائعة بهذا الولاء وهو يخاطب علىّ بن أبى طالب :

(١) يريد أن حقوق على تضيع علىّ حين تحفظ حقوق الأجانب الأبعدين .

آبايَ فى فارسٍ وَالدِّينُ دِينُكُمُ   حقًّا لَقَدْ طَابَ لِي أُسٌّ وَمُرْتَبَعُ
مَازِلْتُ مُذْ يَفَعَتْ سِنِّي أَلُوذُ بِكُمْ   ـحَتَّى مَحَاحَقُّكُمْ شَكِّي ـوَأَنْتَجِعُ
وَقَدْ مَضَتْ فَرَطَاتٌ إِنْ كَفَلْتَ بِهَا   فَرَقْتُ عَنْ صُحُفِي الْبَأْسَ الَّذِي جَمَعُوا
سَوَّلْتُ نَفْسِي غُرُورًا إِنْ ضَمِنْتَ لَهَا   أَنِّى بِذُخْرٍ سِوَى حُبِّيكَ أَنْتَفِعُ



الفصل الثامن

بردة البوصيرى

حياة البوصيرى ، وشعره فى الموظفين — نماذج من شعره الفكاهى — سبب نظم البردة — الاكثار من الصلاة على الرسول — شاهد من القصيدة المضرية — أثر البردة فى أحلام الصوفية — تعليل تلك الأحلام .

تعدّ قصيدة البردة أهمّ القصائد بين المدائح النبوية ، فهى أولاً : قصيدة جيدة ، وهى ثانياً : أسْيرُ قصيدة فى هذا الباب ، وهى ثالثاً : مصدر الوحى لكثير من القصائد التى أنشئت بعد البوصيرى فى مدح الرسول .

ولهذا كله نرى من الواجب أن نعرض للبوصيرى وقصيدته بشىء من التفصيل .

١ — والبوصيرى : هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (أبو صير) ، والآخر من (دلاص) من قرى بنى سويف ، فركبت له منهما نسبة ، وقيل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى ، وكان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ، ويباشر الشرقية ببلبيس [1] .

(١) [راجع فوات الوفيات] ولد البوصيرى فى دلاص سنة ٦٠٨ ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٦٩٧ وله قبر مشهور فى الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

والبوصيرى شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجرى فى شعره النكت المستملحة . وله فى شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء . وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وأنهم لولا ذلك مالبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمور ، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت ، وتأكل مال الأيتام ، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بعصر حقوق ، ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ، ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين ، وفى ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدَمِينَا ... فَلَمْ أَرَ فِيهِمُو حُرًّا أَمِينَا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ ... مَعَ التَّجْرِيبِ مِنْ عُمْرِى سِنِينَا
فَـكُتَّابُ الشِّمَالِ هُمُو جَمِيعًا ... فَلَا صَحِبَتْ شِمَالُهُمُ الْيَمِينَا
فَـكَمْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَا عَرَفْنَا ... بِهِمْ فَـكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعُيُونَا
وَلَوْلَا ذَاكَ مَا لَبِسُوا حَرِيرًا ... وَلَا شَرِبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرْدًا ... كَأَغْصَانٍ يَمِلْنَ وَيَنْحَنِينَا
وَقَدْ طَلَعَتْ لِبَعْضِهِمُو ذُقُونٌ ... وَلَـكِنْ بَعْدَ مَا حَلَقُوا ذُقُونَا
وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ ... كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِى لَاعِبِينَا
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ ... وَكُلُّ اسْمٍ يَخُطُّوا مِنْهُ سِينَا

أَمَوْلاَىَ الْوَزِيرَ غَفَلْتَ عَمَّا ... يَتِمُّ مِنَ اللِّئَامِ الْكَاتِبِينَا
تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا ... مِنَ الزُّهَّادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ ... وَقَدْ مَلأُوا مِنَ السُّحْتِ الْبُطُونَا
تَفَقَّهَتِ الْقُضَاةُ فَخَانَ كُلٌّ ... أَمَانَتَهُ وَسَمَّوْهُ الأَمِينَا
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرٍ ... سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ ... بِهَا وَنَحْنُ أَوْلَى الآخِذِينَا
وَقَالَ الْقِبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرٍ ... وَإِنَّ سِوَاهُمُو هُمْ غَاصِبُونَا
وَحَلَّلَتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ ... لَهُمْ مَالَ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَا
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةٍ إِلاَّ شَرِيكٌ ... لَهُمْ فِى كُلِّ مَا يَتَخَطَّفُونَا
أَغَارَ عَلَى قُرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ ... بِجَوْرٍ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجُفُونَا
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا جَمَلاً وَلٰكِنْ ... لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتَهَا خَزِينَا
وَأَصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلَ تِبْرٍ ... وَكَانَتْ رَاؤُهُ مِنْ قَبْلُ نُونَا
وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وُصُولٌ ... فَتَمَّمَ نَقْصَهُ صِلَةُ الَّذِينَا
وَفِى دَارِ الْوَكَالَةِ أَىُّ نَهْبٍ ... فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينَا
فَقَامَ بِهَا يَهُودِىٌّ خَبِيثٌ ... يَسُومُ الْمُسْلِمِينَ أَذًى وَهُونَا
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ ... تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ وَالسَّفِينَا
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتُّهِمُوا يُؤَدِّى ... عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَا

٣ — وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة

يذكر أنها كانت مشهورة ، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية ، لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال ، وإنما ترجع شهرتها إلى مافيها من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية ، فهى شاهد على اختلاف الطوائف فى مصر ، وعلى ما كان يجرى إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود ، وهى كذلك شاهد على عيوب الادارة فى ذلك الحين .

والظاهر أنه كان مغرما بثلب الموظفين ، فقد قال من قصيدة أخرى يحرّض عليهم أحد كبار المماليك :

فَلَا تُدْنِ مِنْهُمْ وَاحِدًا مِنْكَ ساعَةً ... وَلَوْ فَاحَ مِنْ بُرْدَيْهِ مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
وَبَرِّدْ فُؤَادِى بِانْتِقَامِكَ مِنْهُمُو ... فَقَدْ كَادَ قَلْبِى مِنْهُمُو يَتَفَطَّرُ
مُنِعْتُ بِهِمْ حَظِّى شُهُورًا وَلَمْ أَصِلْ ... إِلَى حَظِّهِمْ حَتَّى مَضَتْ لِى أَشْهُرُ
أَما فِيهِمُو ـ لَا بَارَكَ اللّٰهُ فِيهِمُو ـ ... أَخُو قَلَمٍ إِلَّا يَخُونُ وَيَغْدِرُ

وفى هذه الأبيات ما يشعر بأن الموظفين كانوا يماطلونه فى دفع المرتب ، وقد صرح بذلك فى قصيدة أخرى إذ يقول :

مَنْ لَمْ يَقُمْ لِى مِنْهُمُو بِوَظِيفَتِى ... جَرَّسْتُهُ بِمَلَامَتِى تَجْرِيسَا

٣ — ومن شعر البوصيرى فيما يجرى مجرى الدعابة قوله فى الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهَوًى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ ... وَالتَّصَابِى بَعْدَ الْمَشِيبِ رُعُونَهْ
أَبَتِ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ ... إِنَّ حُبِّى لَا يَدْخُلُ الْقُنَّينَهْ

كَيْفَ أَعْصِى الْهَوَى وَطِينَةُ قَلْبِي ... بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمٍ مَعْجُونَهْ
سَلَبَتْهُ الرُّقَادَ بَيْضَةُ خِدْرٍ ... ذَاتُ حُسْنٍ كَالدُّرَّةِ الْمَكْنُونَهْ
سُمْتُهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْـ ... ـسُ فَقَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَهْ
قُلْتُ لَا بُدَّ أَنْ تَسِيرِى إِلَى الدَّا ... رِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَجْنُونَهْ !
قُلْتُ سِيرِى فَإِنَّنِى لَكِ خَيْرٌ ... مِنْ أَبٍ رَاحِمٍ وَأُمٍّ حَنُونَهْ
أَنَا نِعْمَ الْقَرِينُ إِنْ كُنْتِ تَبْغِيـ ... ـنَ حَلَالًا وَأَنْتَ نِعْمَ الْقَرِينَهْ
قَالَتِ اضْرِبْ عَنْ وَصْلِ مِثْلِي صَفْحًا ... وَاضْرِبِ الْخَلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينَهْ
لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِى يَدُ شَيْخٍ ... كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشْتِى مَشِينَهْ
قُلْتُ إِنِّى كَثِيرُ مَالٍ فَقَالَتْ ... هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزَ الْقَارُونَهْ

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه !. وأظرف من هذه القطعة أبياته التى بعث بها إلى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِى شَهِدَتْ ... أَخْلَاقُهُ لِى بِأَنَّهُ فَاضِلْ
مَا كَانَ ظَنِّى يَبِيعُنِى أَحَدٌ ... قَطُّ وَلَكِنَّ صَاحِبِى جَاهِلْ
لَوْ جَرَّسُوهُ عَلَىَّ مِنْ سَفَهٍ ... لَقُلْتُ غَيْظًا عَلَيْهِ يَسْتَاهِلْ
أَقْصَى مُرَادِى لَوْ كُنْتُ فِى بَلَدِى ... أَرْعَى بِهَا فِى جَوَانِبِ السَّاحِلْ

وَبعْدَ هذَا فَمَا يَحِلُّ لَكُمْ أَخْذِى لِأَنِّى مِنْ سَيِّدِى حَامِلْ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ، وردّ إليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين ! . ونحن نستملح كذلك قصيدته التى بعث بها إلى أحد الوزراء فى شكوى حاله ، وهى قصيدة طريفة يذكر فيها أنه فقير ، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون ، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد ، وأن امرأته زارت أختها ، وشكت إليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، ونتف ذقنه شعرة شعرة ! وفى تفصيل ذلك يقول ، وهو يخاطب ذلك الوزير :

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّنَا حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولِى عُسْرَهْ

فِى قِلَّةٍ نَحْنُ وَلٰكِنْ لَنَا عَائِلَةٌ فِى غَايَةِ الْكَثْرَهْ

أُحَدِّثُ الْمَوْلَى الحَدِيثَ الَّذِى جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَهْ

صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَهْ

إِنْ يَشْرَبُوا فَالْبِئْرُ زِيرٌ لَهُمْ مَا بَرِحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّهْ

لَهُمْ مِنَ الْخُبْزِ مَسْلُوقَةٌ فِى كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَهْ

أَقُولُ مَهْمَا اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا تَنَزَّهُوا فِى المَاءِ وَالْخُضْرَهْ

وَأَقْبَلَ العِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ قَمْحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَهْ

فَارْحَمْهُمُو إِنْ عَايَنُوا كَعْكَةً فِى كَفِّ طِفْلٍ أَوْ رَأَوْا تَمْرَهْ

تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمُو نَحْوَهَا بِشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَا زَفْرَهْ

كَمْ قَائِلٍ يَا أَبَتَا مِنْهُمُو قَطَعْتَ عَنَّا الْخَيْرَ فى كَرَّهْ

مَا صِرْتَ تَاتِينَا بِفَلْسٍ وَلاَ بِدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلاَ نُقْرَهْ
وَأَنتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ تَخْدُمُهُمُو يَا أَبَتِ سُخْرَهْ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمُّهُمْ أُخْتَهَا وَالْأُخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَّهْ
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا وَصَبْرَهَا مِنِّى عَلَى الْعِشْرَهْ
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَا كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّهْ!
قُومِي اطْلُبِي حَقَّكِ مِنْهُ بِلاَ تَخَلُّفٍ مِنْكِ وَلاَ فَتْرَهْ
وَإِنْ تَأَبَّى فَخُذِى ذَقْنَهُ أَوِ انْتِفِيهَا شَعْرَةً شَعْرَهْ
قَالَتْ لَهَا مَا هٰكَذَا عَادَتِي فَإِنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَهْ
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كِلْمَةً طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَهْ
وَهَوَّنَتْ قَدْرِىَ فِى نَفْسِهَا فَجَاءَتِ الزَّوْجَةُ مُجْتَرَّهْ
فَقَاتَلَتْنِي فَتَهَدَّدْتُهَا فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِآجُرَّهْ
وَحَقِّ مَنْ حَالَتُهُ هٰذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أَمْرَهْ

وفى هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة فى بلبيس .

٤ — وقد حدثنا البوصيرى عن سبب وضعه للبردة فقال : « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبنى فالج

أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح وجهى بيده المباركة ، وألقى علىّ بردة ، فانتبهت ووجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقينى بعض الفقراء فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أيها ؟ فقال: التى أنشأتها فى مرضك وذكر أوّلها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام » .

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى : فهو رجل فيه طيبة وسذاجة كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما برئ البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية ـ لاسمح الله ـ ما استغنى بالبردة عن الطبيب[1] ، ولعلّ حكاية البوصيرى هذه هى سبب ماسار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة : فبعضها أمان من الفقر ، وبعضها أمان من الطاعون! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشرى يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن . ونلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة ، وتكرار الصلاة على النبىّ كلما

---

(١) كذلك قلنا فى كتاب : (الموازنة بين الشعراء) ، ونرى الآن أن البوصيرى صادق فى رؤياه ، لأن قوة الايمان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال : انه وجد فى جسمه نهضة ، وذلك أقلّ ما ينتظر لرجل مؤمن يرى الرسول فى المنام ويسمع منه كلمات التشجيع .

ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المضرية ، فهو يدعو الله أن يصلى على النبيّ وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجم السماء ، ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال ، وقطر جميع الماء والمطر ، وما حوت الأشجار من ورق ، وعدد الجن والانس والأملاك ، وعدد الذرّ ، والنمل ، والحبوب ، والشعر ، والصوف ، والريش ، والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط ، وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ، ومذ حشروا ، وعدد ما كان فى الأكوان ، وما يكون إلى يوم البعث ، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد :

فِي كلِّ طرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرِفُونَ بِهَا أَهْلُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْيَذَرُوا

مِلْءَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعْ جَبَلِ

وَالْفَرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِي وَمَاحَصَرُوا

مَا أَعْدَمَ اللهُ مَوْجُودًا وَأَوْجَدَ مَعْـــدُوماً صَلَاةً دَوَاماً لَيْسَ تَنْحَصِرُ

تَسْتَغْرِقُ الْعَدَّ مَعْ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي ولَا تَذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبيّ لم يكن معروفاً فى صدر الاسلام ، وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات » .

٥ — ومنام البوصيرى كانت له أطياف فى أذهان الصوفية ، فقد استحبوا أن يقرأ المرء هذا البيت :

مولاى صلّ وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

بعد كل بيت من أبيات البردة ، وذكروا أن الغزنوى كان يقرؤها فى كل ليلة ليرى النبي فى منامه ، فلم تتيسر له الرؤيا ، فشكا ذلك إلى شيخ كامل ، فقال له : لعلك لا تراعى شرائطها ! فقال : لا ، بل أراعيها . فراقبه الشيخ ثم قال له : إنك لا تصلى بالصلاة التى كان يصلى بها الامام البوصيرى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله :

مولاى صل وسلم (البيت)

قالوا : وحكمة اختياره هذا البيت دون غيره أنه رحمه الله لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي فى المنام ، فأنشدها بين يديه ، فكان يتمايل طرباً كتمايل الأغصان ، فلما انتهى إلى قوله : « فمبلغ العلم فيه أنه بشر » لم يقدر على تكميل البيت ، فقال له عليه الصلاة والسلام : اقرأ ، فقال : إنى لم أوفق للمصراع الثانى يا رسول الله فقال له الرسول قل : « وأنه خير خلق الله كلهم » ، فأدرج البوصيرى هذا المصراع الذى قاله النبيّ فى البيت المتقدم ، وجعله صلاة مكررة بعد كل بيت حرصاً على لفظ النبي عليه السلام .

وهذه المنامات تعليلها سهل ، فحب البوصيرى للرسول خلق منه قيثارة نبوية . وإيمان الصوفية بعظمة البوصيرى ويُمن قصيدته وجّه أحلامهم إلى تصور الرسول فى المنام بفضل الاكثار من تلاوة البردة مصحوبة بتلك الصلاة . والبردة فى ذاتها لا تمكن كل إنسان من الكرامات ، وإنما تنفعل النفس بما تؤمن به فى صدق وإخلاص ، فتتمثل الغرائب والأعاجيب ، وكذلك كانت البردة عند بعض الناس مفتاحاً للمثول بين يدى الرسول . ورؤيا النبي حق : عند الصوفية ، وعند الفقهاء .

الفصل التاسع

عناصر البردة

١ — تقع البردة فى اثنين وثمانين ومائة بيت ، فهى من القصائد الطوال ، وأغلب الظن عندى أن البوصيرى استأنس عند نظمها بميمية ابن الفارض ، ، ودليل ذلك تشابه المطلعين ، فان مطلع قصيدة ابن الفارض :

هَلْ نارُ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلاً بِذِى سَلَمِ ... أَمْ بَارِقٌ لاحَ فِى الزَّوْرَاء فَالْعَلَمِ
أَرْوَاحَ نَعْمَانَ هلاَّ نَسْمَةٌ سَحَراً ... وَمَاءَ وَجْرَةَ هَلاَّ نَهْلَةٌ بِفَمِ

ومطلع قصيدة البوصيرى :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِى الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

فذو سلم ، وهبوب الريح ، وإيماض البرق : مما اشترك فيه الشاعران ، مع وحدة الوزن والقافية ، يضاف إلى هذا أن ابن الفارض قال :

يَا لائِمًا لاَمَنِى فِى حُبِّهِمْ سَفَهاً ... كُفَّ المَلاَمَ فَلَوْ أَحْبَبْتَ لَمْ تَلُمِ

فتابعه البوصيرى فقال :

يَا لائِمِى فى الْهَوَى الْعُذْرِىِّ مَعْذِرَةً … مِنِّى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

كما تابع شوقى البوصيرى حين قال :

يَا لائِمِى فِى هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ … لَوْ مَسَّكَ الشَّوْقُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ

وقال ابن الفارض :

طَوْعًا لِقَاضٍ أَتَى فِى حُكْمِهِ عَجَبًا … أَفْتَى بِسَفْكِ دَمِى فِى الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
أَصَمَّ لَمْ يَسْمَعِ الشَّكْوَى وَأَبْكَمَ لَمْ … يُحِرْ جَوَابًا وَعَنْ حَالِ الْمَشُوقِ عَمِى

فدار البوصيرى حول هذا المعنى إذ قال :

عَدَتْكَ حَالِىَ لاَ سِرِّى بِمُسْتَتِرٍ … عَنِ الْوُشَاةِ وَلاَ دَائِى بِمُنْحَسِمِ
مَحَضْتَنِى النُّصْحَ لٰكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ … إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فى صَمَمِ

٢ — وتشتمل البردة على عدة عناصر : فنى صدرها النسيب ، ويليه التحذير من هوى النفس ، ثم مدح النبي ، والكلام عن مولده ومعجزاته ، ثم القرآن والاسراء والمعراج والجهاد ، ثم التوسل والمناجاة .

والنسيب فى البردة يتصل بالشوق إلى المعالم العربية ، وكنت لمت البوصيرى على هذا فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » ثم تبينت أنه اختار تلك المواطن لصلتها بمولد الرسول ، وخاصة إذا لاحظنا أن النسيب لم يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواه فى بلبيس أو فاقوس ، وإنما هو نسيب وقع

موقع التمهيد لقصيدة دينية ، ولولا حرص الشاعر على متابعة القدماء فى افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل فى مثل هذه القصيدة مكان .

ومع أن الشاعر كان فارغ القلب من الصبوات الحسية ، فانا نراه قارب الاجادة فى التعبير عن لوعة الوجد حين قال :

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ   مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ
لَوْلاَ الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ   وَلاَ أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَاشَهِدَتْ   بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى   مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ
نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي   وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالْأَلَمِ

٣ — أما التحذير من هوى النفس فقد ابتدأه الشاعر بالكلام عن عذل الشيب ، وفى ذلك دليل على أن الشاعر نظم البردة فى أيام الاكتهال ، وأبياته فى هذا المعنى جيدة . وفيها شطرات تجرى مجرى الأمثال ، كقوله :

وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِى نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

وقوله :

إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّى شَهْوَةَ النَّهِمِ

وقوله :

إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

وقوله :

فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وقوله :

وَمَا اُسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اُسْتَقِمِ

وله نظرات فى سياسة النفس على جانب من الدقة : كالتحذير من دسائس الشبع والجوع ، وتشبيه النفس بالطفل « إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم » وهو يرى أن أداء الفرائض رتبة صغيرة لا تصل به إلى درجات الأصفياء ، ويقول :

وَلاَ تَزَوَّدْتُ قَبْلَ المَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ

٤ — وفى مدح النبى يتحدث عن تهجده ، فيذكر أنه أدام قيام الليل حتى تورمت قدماه ، ويتحدث عن إيثاره الجوع فيذكر أنه كان يشد أحشاءه من السغب ، ويتكلم عن زهده فيذكر أن جبال الذهب راودته عن نفسه فاستعصم . ثم يذكر أنه سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم وأنه الآمر الناهى ، وأنه لا أحد أبرّ منه فى قول : (لا) و (نعم) ، وأنه مرجوّ الشفاعة ، وأن المستمسكين به مستمسكون بحبل غير منفصم ، وأنه فاق النبيين فى الخَلْق والخُلُق ، ولم يدانوه فى علم ولا كرم ، ويعمن فى ذلك فيقول :

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ ٱللّٰهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ

ويحكم بأنه هو « الذى تم معناه وصورته » وأنه منزه عن الشريك فى محاسنه ، ويقول :

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فى نَبِيِّهِمُ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ

وله فى مدح النبى أبيات جيدة حقا من الوجهة الشعرية ، وانظر هذا البيت البارع الجميل :

لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

وانظر هذه الوثبة الشعرية فى تصوير شخصية الرسول :

أَعْيَا الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهُ غَيْرُ مُنْفَحِمِ
كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ
وَكَيْفَ يُدْرِكُ فى الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ
فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ
أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمِ
كَالزَّهْرِ فى تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فى شَرَفٍ وَالْبَحْرِ فى كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِى هِمَمِ
كَأَنَّهُ وَهْوَ فَرْدٌ فى جَلَالَتِهِ فى عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفى حَشَمِ

وهذه أبيات فى غاية من القوة ، وإن كانت أخيلتها مقتبسة من معان قديمة ، وقوله بعد ذلك :

كَأَنَّمَا اللُّؤلُؤُ المَكْنُونُ فى صَدَفٍ مِنْ مَعْدِنَىْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ

من المعانى التى أكثر منها الشعراء ، وقد نقلها البوصيرى من النسيب إلى المديح . وقوله :

لاَ طيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظمَهُ طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

من الأخيلة العامية . وقوله فى تفضيل النبى على سائر الأنبياء :

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرامُ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فى الظُّلَمِ

هذا المعنى ينافى الأدب الجميل فى رعاية حقوق الأنبياء ، وهو يساير به نزعة ساذجة لايقرها عقل ، ولا يدعو إليها دين ، وليس مما ينقص مجد النبى أن يكون لمن سبقوه من الأنبياء شخصية مستقلة عنه كل الاستقلال .

٥ — ثم تكلم عن مولد النبى فذكر أن إيوان كسرى انصدع ، وأن نار الفرس خمدت ، وأن بحيرة ساوة فاضت ، وأن الشهب انقضت فوق الأصنام . ولم يعرف لشىء من ذلك سند صحيح من التاريخ ، ولا نعرف متى نشأت هذه الأخبار عند المسلمين ، وأغلب الظن أنها من وضع القصاص الذين أرادوا أن يصوروا مولد الرسول بالصور التى أثرت عن أنبياء الهنود . وقد أكثر مؤرخو المولد من هذه الأخبار ، وطاف بها جمهور الناظمين فى المدائح النبوية .

٦ — وتحدث عن المعجزات ، فذكر سجود الأشجار للرسول ، ومشيها إليه ، وسير الغمامة أنى سار لتقيه حر الهجير ، وما صنع الحمام والعنكبوت بالغار

وكيف كان لمس راحته يبرئ المريض ، ويشفى من الجنون ، وكيف كانت دعوته ترسل الأمطار فى السنة الشهباء .

وبعض هذه الأخبار يحتاج إلى تحقيق .

٧ — وتكلم عن القرآن فقال : إنه ظهر « ظهور نار القرى ليلا على علم » وأن المديح لا يتطاول إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم ، وأن آياته :

لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْىَ تُخْبِرُنَا   عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

وأنها :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ   مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

وهذا أجمل ما يوصف به القرآن ، فهو المعجزة الباقية ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التى يعتز بها العقل . ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين . أما نبع الماء بين يدى الرسول ، وتظليل الغمام إياه ، وسجود الأشجار له ، وما إلى ذلك من المعجزات ، فهى مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة ، وهى مخشية الضر قبل أن تكون مرجوة النفع .

وقوله فى وصف آى القرآن :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلاَّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ   أَعْدَى الْأَعَادِى إِلَيْهَا مُلْقِىَ السَّلَمِ

رَدَّتْ بَلاَغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا   رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الجَانِى عَنِ الْحُرَمِ

كلمة صدق ، ويكفى أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتامس هذه الحقيقة ، فهو

كتاب على جانب عظيم جدّا من القوة ، وليس عليه بعزيز أن يحمل عدوه على الايمان بما فيه من روعة وجلال .

والمعانى الشعرية قليلة فيما وصف البوصيرى به آى القرآن ، ومع ذلك نستجيد له هذين البيتين :

لاَ تَعْجَبَنْ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا ... تَجَاهُلاً وَهْوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهِمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

٨ — ثم تحدث عن الاسراء بأبيات خفيفة الروح :

يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ ... سَعْياً وَفَوْقَ مُتُونِ الْأَيْنُقِ الرُّسُمِ
وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ ... وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمُغْتَنِمِ
سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ ... كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِى دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

ثم وقع فى أبيات لم يصقلها الذوق حين قال :

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا ... وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ ... فِى مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْوًا لِمُسْتَبِقٍ ... مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ ... نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

والبيت الأخير ثقيل أضرت به التورية النحوية .

٩ — وتكلم عن الجهاد فوصف النبيّ وأصحابه بالبأس والقوة ، وبين أن الأعداء سقطوا من صدمة الرعب والفزع :

رَاعتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بِعْثَتِهِ ... كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِنَ الْغَنَمِ
مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ فِى كُلِّ مُعْتَرَكٍ ... حَتَّى حَكَوْا بِالْقَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمِ
وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ ... أَشْلاَءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ
تَمْضِى اللَّيَالِى وَلاَ يَدْرُونَ عِدَّتَهَا ... مَالَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِى الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ

ويعجبنا قوله فى وصف جند الرسول :

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ ... بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرِمِ
يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ ... يَرْمِى بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ
مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلّٰهِ مُحْتَسِبٍ ... يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ
حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهْىَ بِهِمْ ... مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ
هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ ... مَا ذَا رَأَى مِنْهُمُ فِى كُلِّ مُصْطَدَمِ
الْمُصْدِرِى الْبِيضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ ... مِنَ الْعِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ
وَالْكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ ... أَقْلاَمُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
شَاكِى السِّلَاحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ ... وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا مِنَ السَّلَمِ
كَأَنَّهُمْ فِى ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبًا ... مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لاَ مِنْ شَدَّةِ الْحُزُمِ
طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقاً ... فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهَمِ
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللّٰهِ نُصْرَتُهُ ... إِنْ تَلْقَهُ الْأُسْدُ فِى آجَامِهَا تَجِمِ

أَحَلَّ أُمَّتَهُ فى حِرْزِ مِلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فى أجَمِ

وهذه الأبيات تخيرناها مما وصف به الجهاد والمجاهدين ، وهى تمتاز بقوة السبك وروعة الخيال ، وهى أيضاً من نوادر الشعر فى قصيدة البردة ، لأن الشعر لا يتفق لهذا الرجل فى جميع المقامات .

١٠ — وقد ظهرت نفحات التصوف ظهوراً قويا فى الجزء الأخير من البردة ، وهو التوسل بالرسول :

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِى مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ الْعَمِمِ
وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جَاهُكَ بِى إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

ويخاطب نفسه ، ويدعو ربه ، فيقول :

يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِى مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ إِنَّ الْكَبَائِرَ فى الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّى حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِى عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فى الْقِسَمِ
يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِى غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِى غَيْرَ مُنْخَرِمِ

ولنقيد أن الشطر الأخير من البردة ضعيف من الوجهة الشعرية ، ولكنه لا يخلو من صدق ، والصدق من أهمّ عناصر البيان .

الفصل العاشر

أثر البردة

فى اللغة العربية

أثرها فى الجماهير الشعبية ــ أثرها فى التأليف ــ أثرها فى الدرس ــ عناية الشعراء بتضمينها ، وتشطيرها ، وتخميسها ، ومعارضتها ــ ابتكار ابن جابر لفن البديعيات ــ فضل البردة فى نشأة البديعيات ونشر الثقافة الأدبية .

يمكن رجع أثر البردة فى اللغة العربية إلى خمس نواح : أثرها فى الجماهير الشعبية ، وأثرهافى التأليف ، وأثرها فى الدرس ، وأثرها فى الأشعار ، وأثرها فى البديعيات .

١ — أما أثرها فى الجماهير الشعبية فواضح جدا ، ونستطيع الجزم بأن الجماهير فى مختلف الأقطار الاسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة كما حفظت البردة فقد كانت ولا تزال من الأوراد : تقرأ فى الصباح ، وتقرأ فى المساء ، وكنت أرى لها مجلساً يعقد فى ضريح الحسين بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة ، وكان لذلك المجلس رهبة تأخذ بمجامع القلوب . والذى يزور ساحة المولد

النبوى بالقاهرة يرى المئات يرتلونها فى هيبة وخشوع . وكثير من الناس كانوا يجمعون الأطفال لقراءتها فى الجنازات . ومن كتبة الأحجبة والتمائم من يعرف لكل بيت فائدة : فهذا البيت يشفى من الصرع ، وذاك ينفع فى حفظ المزارع والمنازل من التلف والحريق ، وذلك يفيد فى الجمع بين النافرين من الأحباب ، إلى آخر ما ابتدعوا لها من الفوائد الحسية والمعنوية .

ومن أدلة هذا الذيوع ما نراه من تعدد الطبعات ، فقد طبعت فى فينا والأستانة ، ومكة ، وبمباى ، وطبعت فى القاهرة نحو خمسين مرة ، وأكثر الطبعات كتبت بخط جميل ، وحفظت فى رواسم ليطبع منها عند الطلب ، وهى تطلب بالألوف . وفى دار الكتب المصرية نسخ من البردة حليت كتابتها بالذهب ، على نحو مايصنع المفتنون بنسخ المصحف الشريف .

والبوصيرى بهذه البردة : هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين ، ولقصيدته أثر فى تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق ، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب ، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية ، وعن البردة تلقوا أبلغ درس فى كرم الشمائل والخلال ، وكذلك استطاع البوصيرى بتصوفه أن يؤثر فى الأدب والأخلاق تأثيراً لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام ، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال ، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الاسلامية ، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول .

٢ — وأما أثرها فى التأليف فيظهر فيما وضع لها من الشروح ، فقد

شرحها ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ ، وشرحها على بن محمد القلصاى - بفتحات - المتوفى سنة ٨٩١ [1] ، وشرحها شهاب الدين بن العماد المتوفى سنة ٨٠٨ ، وشرحها الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ ، وشرحها علاء الدين البسطامى المتوفى سنة ٨٧٥ ، وشرحها يوسف بن أبى اللطف القدسى المتوفى بعد الألف للهجرة وشرحها يوسف البسطامى من علماء القرن التاسع ، وشرحها ملاّ على المتوفى سنة ١٠١٤ ، وشرحها شيخ زاده محي الدين ، ولم نعرف تاريخ وفاته ، ولكن أقدم نسخة من شرحه يرجع تاريخها إلى سنة ٩٤٩ ، وشرحها جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ ، وشرحها محمد بن أحمد المرزوق المتوفى سنة ٨٨١ ، وشرحها عبد الحق بن عبد الفتاح من علماء القرن الثانى عشر ، وشرحها محمد المصرى من علماء القرن الحادى عشر ، وشرحها ملاّ محمد من علماء القرن الحادى عشر ، وشرحها زكريا الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ ، وشرحها عمر الخربوتى من علماء القرن الثالث عشر ، وشرحها القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ وهو شارح البخارى وشرحها محمد بن مصطفى المدرنى من علماء القرن الثانى عشر ، وشرحها محمد عثمان الميرغنى من علماء القرن الثالث عشر ، وشرحها الشيخ حسن العدوى الحمزاوى المتوفى سنة ١٣٠٣ ، وشرحها الباجورى المتوفى سنة ١٢٧٦ .

وفى دار الكتب المصرية شروح أخر لم يعرف مؤلفوها .

ولأكثر هذه الشروح أسماء شعرية ، مثل : (الرقم على البردة) و (راحة الأرواح) و (الجوهرة الفردة ، فى شرح البردة) و (الزبدة الرائقة ، فى شرح

---

(١) انظر ترجمته فى نفح الطيب ج ١ ص ٩٣٥ طبع ليدن .

البردة الفائقة) و (عصيدة الشهدة ، فى شرح البردة) و (وردة المليح ، فى شرح بردة المديح) .

والبردة نفسها سماها المؤلف (الكواكب الدرية ، فى مدح خير البرية) .

وعند النظر فى هذه الشروح نراها مجموعات نفيسة تزخر بالفقرات اللغوية ، والأدبية ، والتاريخية ، وشغل هؤلاء الشراح بالأدب واللغة والتاريخ يرجع الفضل فيه إلى تصوف ذلك الشاعر المجيد .

٣ — وأما أثرها فى الدرس ، فيتمثل فى تلك العناية التى كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس فى يومى الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجورى على البردة ، وهى دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب ، وإنما كانوا يتخيرون يومى الخميس والجمعة لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات ، فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ .

ولنتذكر أنه مضت سنون لم يكن يعرف فيها الأزهر كيف تكون دروس التاريخ الاسلامى ، فكانت البردة وشروحها مما يسدّ النقص الفاحش فى معهد دينى يجهل أهله غزوات الرسول .

٤ — وأما أثر البردة فى الشعر والشعراء ، فعظيم جدّا ، فقد ضمنوها ، وشطروها ، وخمسوها ، وسبعوها ، وعشروها ، وعارضوها ، فمن الذين ضمنوها الشيخ قاسم (ولم نقف له على ترجمة) وأول تضمينه :

أَمِنْ تَذَكُّرِ أَوْطَانٍ عَلَى عَلَمِ ... أَمْ مِنْ تَفَقُّدِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى كَالقطرِ مُنْهَمِرًا ... يَجْرِى عَلَى وَجْنَةٍ مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

ومن الذين شطروها أحمد بن شرقاوى الخلفى - نسبة إلى قرية يقال لها : الخليفة ملاصقة لمدينة جرجا ، وبها توفى فى سحر ليلة الجمعة التاسع عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٠ - وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ   أَصْبَحْتَ ذَا خَلَدٍ بِالْوَجْدِ مُصْطَلِمِ
أَمْ مِنْ تَفَتُّتِ قَلْبٍ فِى الْحَشَا شَغَفًا   مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

وأحمد بن عبد الوهاب الجرجاوى المتوفى سنة ١٢٥٤ ، وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ   تَصَبَّبَ الدَّمْعُ يَجْرِى حَاكِىَ الدِّيَمِ

وأحمد بن عثمان العوامى المدفون بجرجا (ولم يعلم تاريخ وفاته) وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ   جَزَمْتَ أَنَّكَ مَقْصُورٌ عَلَى الْأَلَمِ
وَعِنْدَ مَاهَاجَتِ الذِّكْرَى وَلَوْعَتَهَا   مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

ورمضان حلاوة من علماء آخر القرن الثالث عشر ، وأوائل الرابع عشر . وأول تشطيره :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمٍ   لَبِسْتَ ثَوْبًا مِنَ الْأَشْوَاقِ وَالْأَلَمِ
أَمْ مِنْ عُيُونِ ظِبَاءٍ بِالْعَقِيقِ بَدَتْ   مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

وأبو الهدى العيادى ، وأحمد الحفظى ، وعبد الرحيم الجرجاوى ، ومحمد فرغلى الطهطاوى ، وشطرها أخيراً سعادة عبد العزيز بك محمد ، ومطلع تشطيره :

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذِى سَلَمِ ... فاضَتْ شُؤونكَ مُلتاعًا لِبَيْنِهِمِ
أَمْ مِنْ فؤادِكَ مَكْلُومًا لِوَحْشَتِهِمْ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جرَى مِنْ مُقْلَةٍ بدَمِ

وقد نالته بركتها فَعُيِّنَ وزيراً للأوقاف ، ولعله يخمسها فيُعَيَّن رئيساً للوزراء.

٥ — وأما الذين خمسوها فيبلغ عدد من عرفنا أخبارهم نحو الثمانين . وفى دار الكتب المصرية مجموعة فى تخاميس البردة تشتمل على تسعة وستين تخميساً ومن أمثلة ذلك قول ناصر الدين الفيومى :

مَا بَالُ قَلْبِكَ لاَ يَنفَكُّ ذَا أَلَمِ ... مُذْ بَانَ أَهْلُ الْحِمَى وَالْبَانِ وَالْعَلَمِ
وَانْحَلَّ مَدْمَعُكَ الْقَانِى بِمُنْسَجِمِ ... أمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِى سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعًا جرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

ولم نر موجباً لعرض مطالع تلك التخميسات ، فهى كثيرة ، وقد شغلت نحو خمس صفحات من فهرس الأدب بدار الكتب المصرية ، فمن احتاج إلى بيانها فليرجع إليها هناك .

ولكن لا بد من التنبيه إلى أن الذين خمسوا البردة لم يكونوا جميعاً مصريين ففيهم رجال من المغرب والشام والعراق ، وفى هذا مايدل على أنها شغلت الشعراء فى أكثر الأقطار الاسلامية .

٦ — ومن الذين سبعوها شهاب الدين أحمد بن عبدالله المكى، وقد التزم فى أول كل تسبيع لبيت من أبيات البردة أن يذكر لفظ الجلالة ، وأول التسبيع :

أللهُ يَعْلَمُ كَمْ بِالْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ ... وَمِنْ غَرَامٍ بِأَحْشَائِى وَمِنْ سَقَمِ

فَقُلْتُ لَمَّا هَمَى دَمْعِي بِمُنْسَجِمِ   عَلَى فِرَاقِ فَرِيقٍ حَلَّ فِي الْحَرَمِ
أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ . . . . الخ   عَلَى الْعَقِيقِ عَقِيقًا غَيْرَ مُنْسَجِمِ

وسبعها محمد المصرى ، وقد تقدم أنه من شراح البردة ، والتزم فى التسبيع أن يذكره أولا مصدّراً بلفظ محمد ، كقوله فى المطلع :

مُحَمَّدٌ جَاءَ بِالآيَاتِ وَالْحِكَمِ   مُبَشِّراً وَنَذِيراً جُمْلَةَ الْأُمَمِ

وهو معارضة للمكى الذى التزم لفظ الجلالة فى أول تسبيع لكل بيت .

٧ — وليس لتعشير البردة شواهد كثيرة ، ولا نعرف غير نسخة ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والناظم مجهول . وهذا النمط من توشية الشعر قليل .

٨ — أما الذين عارضوا البردة ، فيعدون بالعشرات ، منهم والد مؤلف كتاب الكشكول [1] ، ويمكن القول بأن جميع المدائح النبوية التى قيلت بعد البوصيرى على الوزن والقافية كان أصحابها مسوقين بالروح البوصيرية ، ولم يمض عصر إلا وللبردة فيه طراز ، وأشهر من عارضوها أخيراً محمود سامى البارودى الذى سمى قصيدته : « كشف الغمة ، فى مدح سيد الأمة » وعدد أبيات هذه القصيدة ٤٤٧ ، والمطلع :

يَا رَائِدَ الْبَرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ الْعَلَمِ   وَاحْدُ الْغَمَامَ إِلَى حَيٍّ بِذِى سَلَمِ

وأحمد شوقى ، وسمى قصيدته « نهج البردة » وقد نظمها فى سنة ١٣٢٧ والمطلع :

---

(١) انظر قصيدته فى الكشكول ص ٩٨ — ٩٩ .

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ   أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ

وكان المرحوم الشيخ أحمد الحلاوى أسمعنا فى درسه قصيدة سماها : « منهاج البردة » نظمها فى طريقه إلى الحج ، والمطلع :

يَا غَافِرَ الذَّنْبِ مِنْ جُودٍ وَمِنْ كَرَمِ   وَقَابِلَ التَّوْبِ مِنْ جَانٍ وَمُجْتَرِمِ

وَمُسْبِلَ السِّتْرِ إِحْسَانًا وَمَرْحَمَةً   عَلَى الْعُفَاةِ بِفَيْضِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ

أَقِلْ مَتَابِي وَاغْفِرْ مَاجَنَتْهُ يَدِي   وَاسْتُرْ عُيُوبِي وَبَاعِدْنِي عَنِ التُّهَمِ

٩ — مات البوصيرى سنة ٦٩٦ ، وبعد موته بسنتين ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسى ، وكان ضريراً ، ولكن لم تمنعه تلك العاهة القاسية من الرحلة إلى المشرق ، فدخل مصر والشام ، واستوطن حلب ، ثم رجع إلى الأندلس فتوفى فى ألبيرة فى جمادى الآخرة سنة ٧٨٠ (١) .

وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها فى شعره كقوله :

يَا أَهْلَ طَيْبَةَ فِي مَغْنَاكُمُو قَمَرٌ   يَهْدِي إِلَى كُلِّ مَحْمُودٍ مِنَ الطُّرُقِ

كَالْغَيْثِ فِي كَرَمٍ وَاللَّيْثِ فِي حَرَمٍ   وَالْبَدْرِ فِي أُفُقٍ وَالزَّهْرِ فِي خُلُقِ

وقوله :

أَمَّا مَعَانِي الْمَعَانِي فَهِيَ قَدْ جُمِعَتْ   فِي ذَاتِهِ فَبَدَتْ نَارًا عَلَى عَلَمِ

كَالْبَدْرِ فِي شِيَمٍ وَالْبَحْرِ فِي دِيَمٍ   وَالزَّهْرِ فِي نِعَمٍ وَالدَّهْرِ فِي نِقَمِ

(١) انظر ترجمة ابن جابر فى نفح الطيب ج ١ ص ٩١٦ — ٩١٨ ، وانظر الكلام على شارح بديعيته فى ص ٩٢٣ — ٩٢٥ من نفح الطيب ج ١ طبع ليدن .

وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أىّ معارضة ؟ لقد ابتكر فنًّا جديداً هو « البديعيات » ، وذلك أن تكون القصيدة فى مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع ، ومطلع هذه البديعية :

بِطَيْبَةَ أَنْزِلْ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ وَانْشُرْ لَهُ المَدْحَ وَانْثُرْ أَطْيَبَ الكَلِمِ

وقد رأى معاصرو ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد ، فتقدم صديقه أبو جعفر الألبيرى لشرح بديعيته ، واعترف له بالسبق إذ قال فى مقدمة الشرح :

« نادرة فى فنها ، فريدة فى حسنها ، تجنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الاجادة من مزنها ، لم ينسج على منوالها ، ولا سمحت قريحة بمثالها » .

وشرحها أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى الأندلسى المتوفى سنة ٧٧٩ واختصر هذا الشرح محمد بن إبراهيم البشتكى المتوفى سنة ٨٣٠ .

وهذه الشروح تمثل الحفاوة التى قوبلت بها تلك البديعية .

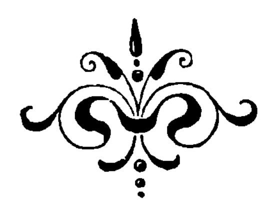
وفى عصر ابن جابر وضع صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ قصيدة سماها : « الكفاية البديعية فى المدائح النبوية » وأنشأ عز الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩ قصيدة بديعية ، عقبها بشرح سماه : « التوصل بالبديع ، إلى التوسل بالشفيع » ، وجاء ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، فنظم بديعية سنتكلم عنها بشىء من التفصيل ، وجاء ابن المقرى المتوفى سنة ٨٣٧ ، فأنشأ بديعية سماها : « الجواهر اللامعة ، فى تجنيس الفرائد الجامعة للمعانى الرائعة » ثم جاء السيوطى ، فعارض ابن حجة ببديعية سماها : « نظم البديع ، فى مدح خير شفيع » ، ثم اندفع الناس فى هذا الفن : فللسيدة الباعونية بديعيتان ، ولأبى الوفاء بن عمر الفرضى بديعية وللسيد عبد الهادى الايبارى بديعية ، وللشيخ طاهر الجزائرى بديعية ، ولابن

خير الله الخطيب العمرى بديعية ، ولعبد الغنى النابلسى بديعيتان ، ولقاسم بن محمد الحلبي بديعية ، ولصدر الدين الحسينى بديعية ، ولشعبان الآثارى بديعية (١)

١٠ — ولأكثر هذه البديعيات شروح فيها الوسيط والوجيز والمبسوط وأكثر هؤلاء الشراح من المتفوقين فى العلوم العربية ، وفى شروحهم من الفوائد النحوية ، والصرفية ، والبلاغية ، واللغوية ، والأدبية ، والتاريخية : فنون أكثرها من المستملح المستطاب .

أرأيت أيها القارئ ، كيف أثرت قصيدة البردة فى اللغة العربية ، وكيف ساد سلطانها بين العوام والخواص ؟

إن الاخلاص هو الذى مكن البوصيرى من ناصية المجد الأدبى ، وهو الذى رفعه إلى منزلة الخلود .



(١) جميع هذه البديعيات محفوظة بدار الكتب المصرية وأكثرها بقسم البلاغة ، وقد تكون هناك بديعيات أخرى لم تعرفها دار الكتب المصرية .

الفصل الحادى عشر

بديعية ابن حجة الحموى [1]

موجز ترجمة الحموى — خزانة الأدب — كيف نظم الحموى بديعيته — اهتمامه بالمدائح النبوية — زهوه واختياله — أحكام ذوقية — نظراته فى النقد — نموذج من نثره — أهمية خزانة الأدب — نقد بديعية الحموى .

١ — ولد أبو بكر تقى الدين بن على بن عبد الله الحموى الأزرارى [2] فى حماة سنة ٧٦٧ ، وتوفى بها سنة ٨٣٧ ، وقد زار القاهرة واتصل بعلمائها وشعرائها وله فى ذلك رسائل وأخبار يجدها القارئ مفرقة فى كتابه : (خزانة الأدب) الذى طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٧ هـ .

٢ — ترك ابن حِجة طائفة من المؤلفات أكثرها موجود ، بين مطبوع ومخطوط [3] ، والذى يهمنا هو قصيدته البديعية وشرحها الذى سماه : (خزانة الأدب) ، ولتلك القصيدة وذلك الشرح أهمية عظيمة ، أما القصيدة فلجودتها

(١) أهمية هذا الفصل ترجع إلى ما فيه من بيان أثر البديعيات فى الفنون الأدبية ، والبديعيات فرع من المدائح النبوية ، والأدب عليها أغلب .

(٢) الأزرارى : لقب غلب عليه ، لأنه كان اتخذ عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له فى صباه .

(٣) انظر كتاب الاعلام للأستاذ خير الدين الزركلى ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

بين البديعيات ، وأما الشرح فلجمعه طرائف كثيرة من أدب القرن الثامن ، وتكاد خزانة الأدب تعدّ من أجمل ماصنف فى ذلك العهد ، ولا يوازيها فى الجمال إلا شرح لامية العجم للصفدى ، فهذان المصنفان جمعا أخباراً كثيرة من أدب القرن الثامن ، وهو فى الواقع أدب هزيل ، ولكن مؤرخ الأدب يحتاج إلى التعرّف إلى جميع الفنون الأدبية ، الغث منها والسمين .

ومن غريب مالاحظت أنى أجد أُنساً بهذين الكتابين قد لا أجده عند قراءة كتاب الأغانى ، وقد جهدت فى تعليل ذلك ، ثم تبينت أن غرابة هذا الأدب من أسباب جاذبيته ، فأكثر مادرسناه وما تلقيناه عن الأساتذة لا يكاد يخرج عما صنف فى العصور الذهبية ، ولو شئت لأضفت إلى ذلك أن هذين المصنفين يهتمان فى الأغلب بأدب أهل مصر ، وأهل الشام ، ومزاج الأديب المصرى مكوّن من هذين الأدبين ، فلا بدع أن يجد عند الحموى والصفدى روحا لايجده عند الأصفهانى .

٣ — يحدثنا الحموى فى صدر «خزانة الأدب» عن الظروف التى نظم فيها بديعيته فيقول :

« وبعد فهذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم على منوال (طرز البردة) كان مولانا المقرّ الأشرف العالى المولوى القاضوى المخدومى الناصرى سيدى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب ديوان الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة ـ جمل الله الوجود بوجوده ـ هو الذى ثقف لى هذه الصعدة ، وحلب لى ضرعها الحافل لحصول هذه الزبدة ، وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلى رحمه

الله تعالى التزم فيها بتسمية النوع البديعى ، وورّى بها من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفىّ الدين الحلى ، تغمده الله تعالى برحمته ، لأنه ما التزم فى بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل . غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع ، ولا طالت يده لابهام العقادة إلى شىء من إشارات ابن أبى الأصبع ، وربما رضى فى الغالب بتسمية النوع ، ولم يعرب عن المسمى ونثر شمل الألفاظ والمعانى لشدة ماعقده نظما . فاستخار الله مولانا الناصرى المشار إليه ، ورسم لى بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجارى الحلى برقة السحر الحلال الذى ينفث فى عقد الأقلام ، فصرت أشيد البيت ، فيرسم لى بهدمه ، وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس ، ويقول بيت الصفى أصفى مورداً ، وأنور اقتباس ، فأسنّ كل ماحده الفكر ، وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة ، فيحكم لى بالسبق وينقلنى إلى غيره وقد صار لى فكرة إلى الغايات سباقة ، فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال ، وجاريت الصفى مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال »

وفى هذه الكلمات تصريح بأن نظم البديعية كان مما اقترحه الفقيه الكاتب محمد بن البارزى بعد أن وقف بدمشق على بديعية عز الدين الموصلى وفيها أيضا تعريف بالطريقة التى نظمت بها البديعية ، فقدكان الحموى ينظم والبارزى ينقد ، وكانت المفاضلة بين بديعية الموصلى والحلى والحموى مما يهتم به ذلك الفقيه الأديب ، فكان لايسمح للناظم بالانتقال من بيت إلى بيت إلا بعد الاطمئنان إلى تفوقه على الموصلى والحلى ، وذلك كله يبين ما فى بديعية الحموى من التكلف والافتعال .

٤ — والحموى — وإن نظم البديعية إجابة لاقتراح البارزى — كان من المولعين بنظم المدائح النبوية ، وله فى ذلك قصيدة اسمها : (أمان الخائف) قال فى أولها :

شَدَتْ بِكُمُ الْعُشَّاقُ لَمَّا تَرَنَّمُوا ... فَغَنَّوْا وَقَدْ طَابَ الْمَقَامُ وَزَمْزَمُ
وَضَاعَ شَذَا كُمْ بَيْنَ سَلْعٍ وَحَاجِرٍ ... فَكَانَ دَلِيلَ الظَّاعِنِينَ إِلَيْكُمُ
وَجُزْتُمْ بِوَادِي الْجِزْعِ فَاخْضَرَّ وَالتَوَى ... عَلَى خَدِّهِ بِالنَّبْتِ صُدْغٌ مُنَمْنَمُ
وَلَمَّا رَوَى أَخْبَارَ نَشْرِ ثُغُورِكُمْ ... أَرَاكُ الْحِمَى جَاءَ الْهَوَى يَتَنَسَّمُ

ومنها :

فَيَاعَرَبَ الْوَادِي الْمَنِيعِ حِجَابُهُ ... وَأَعْنِي بِهِ قَلْبِي الَّذِى فِيهِ خَيَّمُوا
رَفَعْتُمْ قِبَابًا نَصْبَ عَيْنِي وَنَحْوَهَا ... تَجُرُّ ذُيُولَ الشَّوْقِ وَالْقَلْبُ يَجْزِمُ (١)
وَيَا مَنْ أَمَاتُونَا اشْتِيَاقًا وَصَيَّرُوا ... مَدَامِعَنَا غُسْــلاً لَنَا وَتَيَمَّمُوا
مَنَنْتُمْ تَحِيَّاتِ السَّلَامِ لِمَوْتِنَا ... غَرَامًا وَقَدْ مِتْنَا فَصَلُّوا وَسَلِّمُوا
يَقُولُونَ لِى فِى الْحَىِّ أَيْنَ قِبَابُهُمْ ... وَمَنْ هُمْ مِنَ السَّادَاتِ قُلْتُ هُمُ هُمُ
عُرَيْبٌ لَهُمْ طَرْفِى خِبَاءٌ مُطَنَّبٌ ... بِدَمْعِى وَقَلْبِى نَارُهُمْ حِينَ تُضْرَمُ
أُوَرِّى بِذِكْرِ الْبَانِ وَالرَّنْدِ وَالنَّقَا ... وَسَفْحِ اللِّوَى وَالْجِزْعِ وَالْقَصْدُ أَنْتُمُ

وفيها يقول فى التخلص إلى مدح الرسول :

---

(١) لاحظ ما فى هذا البيت من الأخيلة ، النحوية ولاحظ ما فى الأبيات التالية من الأخيلة الفقهية .

تَقَنَّعْتُ فى حُبِّى لَهُمْ فَتَعَصَّبُوا عَلَىَّ وَهُمْ سَادَاتُ مَنْ قَدْ تَلَثَّمُوا
لَهُمْ حَسَبٌ عَالٍ بِبَطْحَاء مَكَّةٍ لِأَنَّ رَسُولَ ٱللّٰهِ فى ٱلأَصْلِ مِنْهُمُ

ويقول فى ختام هذه القصيدة :

عَسَى وَقْفَةٌ أَوْ قَعْدَةٌ لِأبْنِ حِجَّةٍ عَلَى بَابِكُمْ يَسْعَى بِهَا وَهْوَ مُحْرِمُ
فَقَدْ جَاءَ يَشْكُو مِنْ ذُنُوبٍ تَعَاظَمَتْ وَقَدْرُكَ فى يَوْمِ الشَّفَاعَةِ أَعْظَمُ
وَقَدْ نَالَهُ فِى عُنْفُوَانِ شَبَابِهِ هُمُومٌ وَسَيْفُ الْهَمِّ لِلظَّهْرِ يَقْصِمُ
وَعَارِضُهُ قَدْ شَابَ فِى زَمَنِ الصِّبَا عَسَى بِكَ مِنْ ذَا الْعَارِضِ الصَّعْبِ يَسْلَمُ
فَيَاوِرْدَنَا الصَّافِى طُيُورُ قُلُوبِنَا عَلَيْكَ إِذَا مَا نَابَهَا الضَّيْمُ حُوَّمُ
عَلَيْكَ سَلاَمٌ نَشْرُهُ كُلَّمَا بَدَا بِهِ يَتَغَالَى الطِّيبُ وَالْمِسْكُ يُخْتَمُ

ولم نقف على هذه القصيدة كاملة ، وما أثبتناه هنا ليس إلا شذرات جمعناها مما تفرق منها فى خزانة الأدب ، ولم نشر إلى هذه القصيدة إلا لندل على أن الحموى كان يتجه إلى هذا الفن ، فان بديعيته لم توضع فى الأصل لمدح الرسول ، وإنما هى قصيدة فنية مدح بها النبيّ مدحا صناعيا لتلحق بأمثالها من البديعيات ، وبيان ذلك أن الشاعر لم يكن يهمه عند نظم البيت أن يبلغ مبالغ الصادقين فى مدح الرسول ، وإنما كان يهمه أن يجيد الافصاح عما يقصد إليه من فنون البديع ، وآية ذلك أنه لم يهتم فى شرح البديعية بشىء يذكر من السيرة النبوية وإنما وقف عند الفنون البديعية ، ومجاراته للموصلى والحلى وقفت أيضاً عند هذه الغاية ، فلم ينظر فيها إلى المدح كما نظر إلى الفن ، أعنى علم البديع .

والخلاصة أن خزانة الأدب ، وهى مجلد ضخم يقع فى ٥٧٠ صفحة من القطع

الكبير ، لايمكن على الاطلاق أن تعد كتابا فى السيرة أو الشمائل النبوية ، إنما هى كتاب فى الأدب الصرف الذى قام على أساس المحسنات البديعية . ولم يفت هذا مصنفى فهارس دار الكتب المصرية ، فقد وضعوها فى فهرس البلاغة ، ولم يرد لها ذكر فى فهرس الأدب ولا فهرس التاريخ :

٥ — والحموى فى خزانته يزهو بنفسه ويختال ، وهو يذكر بابن الأثير فى كتاب المثل السائر ، وإن كان ابن الأثير بالنسبة إليه من المتواضعين ، وزهو الحموى يدلنا على أن النقد فى عصره لم يكن قويا ، ولو كان للنقد فى زمانه سلطان لما أسرف فى الاختيال . وإلى القارئ بعض الشواهد :

ا ـ قال فى براعة المطلع :

« وأذكرنى مهيار بحسن براعته ما كتبت به إلى سيدنا ومولانا قاضى القضاة : صدر الدين ، ملك المتأدبين ، أبى الحسن على بن الآدمى . . . . وهى رسالة مشتملة على نظم ونثر ، فصدرت الجواب بقصيدة ترفل فى حلل النسيب على طريق مهيار ، وكلها براعة استهلال ، أولها :

وَصَلَتْ وَلٰكِنْ بَعْدَ طُولِ تَشَوُّقِ ... وَدَنَتْ وَقَدْ رَقَّتْ لِقَلْبِي الشَّيِّقِ

وما أحلى ماقلت بعده :

فَثَمِلْتُ مِنْ طَرَبٍ بِرَجْعِ حَدِيثِهَا ... فَكَأَنَّمَا قَدْ نَادَمَتْ بِمُعَتَّقِ [١]

ب ـ وقال فى الحديث عن إحدى قصائده النبوية :

« ومن ألطف الاشارات إلى أن هذا التنزل صدر قصيدة نبوية قولى :

---

(١) ص ١١ .

أُوَرِّى بِذِكْرِ الْبَانِ وَالرَّنْدِ وَالنَّقَا   وَسَفْحِ اللِّوَى وَالْجِزْعِ وَالْقَصْدُ أَنْتُمُ

ولم أزل فى براعة الاستهلال أستهل أهلة هذه المعانى إلى أن وصلت إلى حسن التخلص »[١] .

ج ـ وقال فى تفضيل بديعيته :

« وأما براعة بديعيتى ، فانها ببركة ممدوحها صلى الله عليه وسلم نور هذه المطالع ، وقبلة هذا الكلام الجامع ، فانى جمعت فيها بين براعة الاستهلال ، وحسن الابتداء بالشرط المقرر لكل منهما ، وأبرزت تسمية نوعها البديعى فى أحسن قوالب التورية ، وشنفت بأقراط غزلها الأسماع . الخ »[٢] .

د ـ وقال يتحدث عن إحدى قصائده :

« وقلت بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرق منه »[٣] :

هـ ـ ويقول عن بعض مؤلفاته :

« وقد عنّ لى أن أورد هنا ما سارت فى الخافقين حكمه وأمثاله ، وانقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله ، وهو تأليفى الذى وسمته بتغريد الصادح »[٤] .

ولهذه الكلمات نظائر كثيرة فى خزانة الأدب ، وأرجو أن لا يضجر القارئ من هذا الزهو ، فهو صورة نفسية لشاعر ، وكاتب ، ومؤلف كان فى زمانه من الأعلام ، وليست مهمة الباحث أن يقدم مايروق ، ولكن مهمته أن يقيد المحاسن والعيوب .

---

(١) ص ١٥ . (٢) ص ١٦ . (٣) ص ٣٩ . (٤) ص ١١٧ .

٦ — وللحموى أحكام ذوقية وأدبية لا تقبلها اليوم ، فهو مثلا يستعذب هذا البيت :

يَزِيدُ الْهَوَى دَمْعِي وَقَلْبِي الْمُعَنَّفُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَيُحْيِي جُفُونِي الْوَجْدُ وَهْوَ الْمُكَلَّفُ[1]

ويستجيد هذا البيت :

أَخْرِجْ حَدِيثَكَ مِنْ سَمْعِي فَمَا دَخَلاَ ‏ ‏ ‏ ‏ لاَ تَرْمِ بِالْقَوْلِ سَهْمًا رُبَّمَا قَتَلاَ

وفى التعليق على هذا المطلع :

زَارَ الصَّبَاحُ فَكَيْفَ حَالُكَ يَادُجَى ‏ ‏ ‏ ‏ قُمْ فَاسْتَدِمَّ بِفَرْعِهِ أَوْ فَالنَّجَا

يقول : « انظر إلى حسن هذا الابتداء ، كيف جمع مع اجتناب الحشو بين رقة النسيب ، وطرب التشبيب ، وتناسب القسمين ، وغرابة المعنى ! »[2] .

ويرى مطلع ابن نباتة :

مَا بِتُّ فِيكَ بِدَمْعِ عَيْنِي أَشْرَقُ ‏ ‏ ‏ ‏ إِلاَّ وَأَنْتَ مِنَ الْغَزَالَةِ أَشْرَقُ

أجود من مطلع المتنبي :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

٧ — وله مع هذا نظرات دقيقة فى النقد ، من ذلك إنكاره أن يستهل ابن نباتة الخطيب خطبته فى وفاة النبي بقوله : « الحمد لله المنتقم ممن خالفه ، المهلك من آسفه »[3] ، وإن لم يكن أول من أنكر هذا الاستهلال . ومن ذلك

(١) ص ٤ ، (٢) ص ٦ ، (٣) ص ٢٠ .

أيضاً استكراه الجناس إذ يقول : « أما الجناس فانه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فان كلا منهما يؤدى إلى العقادة ، والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة »(١) .

ويقول فيمن يؤثرون الجناس :

« ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعانى تنزلت منزلة الأطلال البالية »(٢) .

وهو يرى — كما رأى ابن جنى من قبله بأجيال — أن المولّدين يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ ، ويؤكد أن لكل زمان بديعاً ، وأنه « ما ربيع الآخر من ربيع الأول ببعيد »(٣) .

واهتمامه بتدوين ما أثر عن أهل زمانه يؤيد هذا الرأى ، فهو يوجز حين يستشهد بكلام القدماء ، ويطنب حين يستشهد بكلام المحدَثين .

٨ — أما نثر الحموى فهو مملوء بالصنعة والزخرف ، وفيه إشارات كثيرة إلى مصطلحات النحو والفقه والعروض ، ويكفى هذا الشاهد فى وصف البحر حين ركبه من الشام إلى مصر سنة ٨٠٢ .

« وأبثك ما لاقيت من أهوال البحر ، وأحدث عنه ولا حرج ، فكم وقع المملوك من أعاريضه فى زحاف تقطع منه القلب لما دخل إلى دوائر تلك اللجج وشاهدت منه سلطانا جائراً يأخذ كل سفينة غصباً ، ونظرت إلى الجوارى

(١) ص ٢٥ . (٢) ص ٢٦ ، وانظر كلامه عن التفويف ص ١٤٠ . (٣) ص ٥ .

الحسان ، وقد رمت أُزر قلوعها وهى بين يديه لقلة رجالها تسبى ، فتحققت أن رأى من جاء يسعى فى الفلك غير صائب ، واستصوبت هنا رأى من جاء يمشى وهو راكب ، وزاد الظمأ بالملوك وقد اتخذ فى البحر سبيله ، وقد قلت من شدة الظمأ : ياترى قبل الحفرة أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة !

وَهَلْ أُبَاكِرُ بَحْرَ النِّيلِ مُنْشَرِحًا ... وَأَشْرَبُ الْحُلْوَ مِنْ أَكْوَابِ مَلَّاحِ ؟

بحر تلاطمت علينا أمواجه حتى متنا من الخوف ، وحملنا على نعش الغراب ، وقامت واوات دوائره مقام مع فنصبنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب ، وقارن العبد فيه سوداء استرقت مواليها وهى جارية ، وغشيهم منها فى اليمّ ماغشيهم ، فهل أتاك حديث الغاشية ، واقعها الريح فحملت بنا ، ودخلها الماء فجاءها المخاض ، وانشق قلبها لفقد رجالها ، وجرى ما جرى على ذلك القلب ففاض ، وتوشحت بالسواد فى هذا المأتم ، وسارت على البحر وهى مثل ، وكم سمع فيها للمغاربة على ذلك التوشيح زجل ، . . . . إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود ، وترقصنا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود ، وتتشامم وهى كما قيل : أنف فى السماء وأُست فى الماء ، وكم تطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل وهى الصعدة الصماء ، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين ، وتتصابى إذا هبت الصبا وهى ابنة مائة وثمانين ، وتوقف أحوال القوم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وتدعى براءة الذمة ، وكم أغرقت لهم من أموال . هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج ، وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاديفها على مقلة

البحر اختلاج، وكم أسبلت على وجنة البحر طرة قلعها فبالغ الريح فى تشويشها وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها وهى خاوية على عروشها . . . الخ »[١] .

وتلك كتابة كثيرة الافتنان، ولكنها قليلة المحصول .

٩ — قلت : إن خزانة الأدب تمتاز بجمعها لطرائف كثيرة من أدب القرن الثامن، فلنذكر من شواهد ذلك ما أشار إليه المؤلف من معانى ابن نباتة التى أخذها الصلاح الصفدى . قال ابن نباتة :

وَمُولَعٍ بِفِخَاخٍ يَمُدُّهَا وَشِبَاكِ
قَالَتْ لِيَ الْعَيْنُ مَاذَا يَصِيدُ قُلْتُ كَرَاكِ

أخذه الصفدى فقال :

أَفَارَ عَلَى سَرْحِ الْكَرَى عِنْدَمَا رَمَى الْكَرَاكِى غَزَالٌ لِلْبُدُورِ يُحَاكِى
فَقُلْتُ ارْجِعِى يَاعَيْنُ عَنْ وِرْدِ حُسْنِهِ أَلَمْ تَنْظُرِيهِ كَيْفَ صَادَ كَرَاكِ

وقال ابن نباتة :

اسْعَدْ بِهَا يَا قَمَرِى بُرْزَةً سَعِيدَةَ الطَّالِعِ وَالْغَارِبِ
صَرَعْتَ طَيْراً وَسَكَنْتَ الْحَشَا فَمَا تَعَدَّيْتَ عَنِ الْوَاجِبِ

أخذه الصفدى فقال :

قُلْتُ لَهُ وَالطَّيْرُ مِنْ فَوْقِهِ يَصْرَعُهُ بِالْبُنْدُقِ الصَّائِبِ
سَكَنْتَ فِى قَلْبِى فَحَرَّكْتَهُ فَقَالَ لَمْ أَخْرُجْ عَنِ الْوَاجِبِ

---

(١) ص ٢٣، ٢٤ .

وقال ابن نباتة :

وَبِمُهْجَتِي رَشَا يَمِيس قَوَامُهُ   فَكَأَنَّهُ نَشْوانُ مِنْ شَفَتَيْهِ
شُغِفَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ وَرَآهُ قَدْ   نَعَسَتْ لَوَاحِظُهُ فَدَبَّ عَلَيْهِ

أخذه الصفدى فقال :

وَأَهْيَفَ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَى   تَمِيلُ حَمَامَاتُ الْأَرَاكِ إِلَيْهِ
لَهُ عَارِضٌ لَمَّا رَأَى الطَّرْفَ نَاعِسًا   أَتَى خَدَّهُ سِرًّا فَدَبَّ عَلَيْهِ

وقال ابن نباتة :

بِرُوحِى عَاطِر الْأَنْفَاسِ أَلْمَى   مَلِئُ الْحُسْنِ حَالِى الْوَجْنَتَيْنِ
لَهُ خَالَانِ فِي دِينَارِ خَدٍّ   تُبَاعُ لَهُ الْقُلُوبُ بِحَبَّتَيْنِ

أخذه الصفدى فقال :

بِرُوحِي خَدُّهُ الْمُحْمَرُّ أَضْحَتْ   عَلَيْهِ شَامَةٌ شَرْطُ الْمَحَبَّهْ
كَأَنَّ الْحُسْنَ يَعْشَقُهُ قَدِيمًا   فَنَقَّطَهُ بِدِينَارٍ وَحَبَّهْ

ولما وقف ابن نباتة على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ! الشيخ صلاح الدين سرق ـ كما يقال ـ من الحبتين حبة !

ولهذا الحديث بقية يجدها القارئ فى ص ٣٤٨ و ٣٥١ من خزانة الأدب ، وهو فى الأصل منقول عن كُتَيِّب لابن نباتة اسمه : (خبز الشعير) .

ودرس كتاب الحموى يعطى صوراً كثيرة من أدب القرن الثامن ،

والمؤلف يدوّن أخبار ذلك العهد فى حماسة قوية تمثل إعجابه بأدب الصنعة فى تلك الأيام .

ويزيد فى قيمة ما فى هذا الكتاب من فنون الاستطراد أنه يتحدث عن علماء وشعراء وكتاب لم يبق من آثارهم إلا القليل .

١٠ — وفى هذه الخزانة ألفاظ تستحق الدرس . من ذلك لفظة « انفعل » فى الصفحة الخامسة إذ يقول المؤلف :

« وأما قصة إسحق بن إبراهيم الموصلى فى هذا الباب فانى أنفعل وأخجل عند سماعها » ، ولفظة : « استهليتها » فى ص ٢٣ ، والصواب « استهللتها » وليست غلطة مطبعية ، بل هى من غلط المؤلف . بدليل أنها لاتزال مستعملة فى الأزهر إذ يقول الأشياخ فى دروس البيان : « اشتقينا » فى مكان « اشتققنا » واللغة العامية تؤيد هذا الغلط ، فالناس يقولون مثلا : « استقلينا هذه الكمية » ويندر أن يفكوا إدغام المثلين .

وكلمة « لا لا » فى ص ٣٠ إذ يقول المؤلف : ومثله قول الشيخ شمس الدين المزين فى غلام مليح ، وله « لا لا » مليح :

وَمَلِيحٍ لَالَاهُ يَحْكِيهِ حُسْنًا ... فَهُوَ كَالْبَدْرِ فِى الدُّجَى يَتَلَالَا
قُلْتُ قَصْدِى مِنَ الْأَنَامِ مَلِيحٌ ... هٰكَذَا هٰكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

وكلمة « سافل » يكثر ورودها فى الخزانة بمعنى ضعيف كقوله : « يشير إلى تقريظ كتبه لبعض أهل الأدب على مصنّف سافل » ، وهى تقابل كلمة :

inferieur الفرنسية . وكانت فى ذلك الحين كلمة خفيفة . وهى اليوم من صور السباب .

❀

١١ — إلى هنا عرف القارئ أشياء عن ابن حجة ، وعن كتابه : (خزانة الأدب) فلنأخذ فى نقد بديعيته فى مدح الرسول ، وهى تقع فى اثنين وأربعين ومائة بيت ، وهو عدد ما اهتمّ بعرضه من ضروب البديع ، وهذه المناسبة العددية بين أبيات القصيدة وبين الفنون البديعية ترينا أن المؤلف لم يهتم بالمدح النبوى اهتمامه بالبديع ، وإن كان لايزال يتذكر أن قصيدته مدحة نبوية فقد رأيناه يقول : إنها ببركة ممدوحها نور هذه المطالع .

وإعجاب الحموى بقصيدته لا يمنعنا من القول بخلوها من النفحات الشعرية فليست إلا منظومة تذكر بأمثالها من منظومات « المتون » . وأهميتها ترجع إلى الناحية التعليمية ، ولنسارع فنختبر النسيب فى هذه البديعية .

لِى فى ٱبْتِدَا مَدْحِكُمْ يَاعُرْبَ ذِى سَلَمِ ... بَرَاعَةٌ تَسْتَهِلُّ ٱلدَّمْعَ فِى ٱلْعَلَمِ
بِٱللّٰهِ سِرْ بِى فَسِرْبِى طَلَّقُوا وَطَنِى ... وَرَكَّبُوا فِى ضُلُوعِى مُطْلَقَ ٱلسَّقَمِ
وَرُمْتُ تَلْفِيقَ صَبْرِى كَىْ أَرَى قَدَمِى ... يَسْعَى مَعِى فَسَعَى لٰكِنْ أَرَاقَ دَمِى
وَذَيَّلَ ٱلْهَمَّ هَمْلُ ٱلدَّمْعِ لِى فَجَرَى ... كَلَاحِقِ ٱلْغَيْثِ حَيْثُ ٱلْأَرْضُ فِى ضَرَمِ
يَا سَعْدُ مَا تَمَّ لِى سَعْدٌ يُطَرِّفُنِى ... بِقُرْبِهِمْ وَقَلِيــــلُ ٱلْحَظِّ لَمْ يُلَمِ
هَلْ مَنْ يَفِى وَيَقِى إِنْ صَحَّفُوا عَذَلِى ... وَحَرَّفُوا وَأَتَوْا بِٱلْكَلْمِ فِى ٱلْكَلِمِ
قَدْ فَاضَ دَمْعِى وَفَاظَ ٱلْقَلْبُ إِذْ سَمِعَا ... لَفْظِىَّ عَذْلٍ مَلَا ٱلْأَسْمَاعَ بِٱلْأَلَمِ

أَبا مُعَاذٍ أَخَا الْخَنْسَاءِ كُنْتَ لَهُمْ ... يَا مَعْنَوِيُّ فَهَدُّونِي بِجَوْرِهِمِ

يكفى هذا للاستشهاد ، فنسيب القصيدة كله من هذا القبيل ، والمهمّ أن ندل القارئ على قيمة هذا النسيب ، فهل رأى فيه معنى جيدا ، أو لفظا طريفاً ؟ وهل يمكن الربط بين المعانى فى أمثال هذه الأبيات ؟ إن الشاعر نفسه لم يشرح معانيها فى كتابه ، لأنه لم يرد بها التشبيب ، وإنما وقف عند ماقصد إليه من ضروب البديع ، وهو نفسه حين فاضل بين أبياته وأبيات الموصلى والحلى لم يتحدث عن معانى النسيب ، وإنما تحدث عن تأدية الفنون البديعية . والصنعة تظهر بصورة أوضح فى مثل هذين البيتين فى مخاطبة العذول :

يَا عَاذِلِي أَنْتَ مَحْبُوبٌ لَدَيَّ فَلَا ... تُوارِبِ الْعَقْلَ مِنِّي وَاسْتَفِدْ حِكَمِي

جَمْعُ الْكَلَامِ إِذَا لَمْ تُغْنِ حِكْمَتُهُ ... وَجُودُهُ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ كَالْعَدَمِ

فالبيت الأول تكلفه الشاعر ليشير إلى المواربة ، والبيت الثانى حكمة مفتعلة أشار بها إلى الكلام الجامع . وأظهر من هذين فى التعمل قوله فى التذييل والتفويف :

وَاللهِ مَا طَالَ تَذْيِيلُ اللقاءِ بِهِمْ ... يَا عَاذِلِي وَكَفَى بِاللهِ فِي الْقَسَمِ

خَشِّنْ أَلِنْ إِحْزَنِ افْرَحْ امْنَعِ اعْطِ أَنِلْ ... فَوِّفْ أَجِدْ وَشِّ رَقِّقْ شُدَّ حُبَّ لُمِ

ولا موجب للوم الشاعر على هذا الكلام الثقيل ، فقد أنصف من نفسه حين قال فى شرح البيت الثانى :

« التفويف تأملته ، فوجدته نوعا لم يفد غير إرشاد ناظمه إلى طريق العقادة ، والشاعر إذا كان معنويا وتجشم مشاقه تقصر يده عن التطاول إلى

اختراع معنى من المعانى الغريبة وتجفوه حسان الألفاظ ، ولم يعطف عليه برقة ، وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً » .

ومعنى هذا أنه لم يقصد بنظمه غير التمثيل للنوع البديعى ، أما هو فلا يراه من ألوان البيان ، ولكن هذا الشرح وما فيه من تكلف التخيل جاء أثقل من التفويف !

ومما يؤكد أن الصنعة هى المقصودة من هذه المنظومات أن الحموى عاب قول الحلى :

لاَ لَقَبَتْنِي المَعَالِي بِابْنِ بَجْدَتِهَا　　　يَوْمَ الْفَخَارِ وَلاَ بَرَّ التُّقَى قَسَمِي

وقال : « فيه نقص ، لأنه غير صالح للتجريد ، ولم يأت ناظمه بجواب القسم إلا فى بيت الاستعارة الذى ترتب بعده ، وهو :

إِنْ لَمْ أَحُثَّ مَطَايَا الْعَزْمِ مُثْقَلَةً　　　مِنَ الْقَوَافِي تَؤُمُّ الْمَجْدَ عَنْ أَمَمِ

وأصحاب البديعيات شرطوا أن يكون كل بيت شاهدا على نوعه بمجرده ، وإذا كان البيت له تعلق بما بعده أو بما قبله لا يصلح أن يكون شاهداً على ذلك النوع »(١) .

وهو بهذا التعقب يدلنا على أن أصحاب البديعيات كانت لهم تقاليد ، منها أن يكون كل بيت شاهداً على نوعه بمجرده ، ولا ندرى كيف لا يصلح البيت أن يكون شاهداً على النوع المقصود إذا كان له تعلق بما بعده أو بما قبله ، إن ذلك لمظهر جديد من تكلف أصحاب البديعيات .

---

(١) ص ١٨٥ .

١٢ — فاذا تجاوزنا النسيب إلى المديح رأيناه يتخلص فيقول :

وَمَنْ غَدَا قِسْمُهُ التَّشْبِيب فِي غَزَلٍ حُسْنُ التَّخَلُّصِ بِالْمُخْتَارِ مِنْ قِسَمِي
مُحَمَّدُ ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ الْأَمِينُ أَبُو الْـــبَتُولِ خَــيْرُ نَبِيٍّ فِي أُطَّرَادِهِمِ
عَيْنُ الْكَمَالِ كَمَالُ الْعَيْنِ رُؤْيَتُهُ يَاعَكْسَ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
أَبْدَى الْبَدِيعَ لَهُ الْوَصْفُ الْبَدِيعَ وَفِي نَظْمِ الْبَدِيعِ حَلاَ تَرْدِيدُهُ بِفَمِي
كَرَّرْتُ مَدْحِي حَلاَ فِي الزَّايِدِ الْكَرَمِ ابْـ
ـنِ الزَّايِدِ الْكَرَمِ ابْنِ الزَّايِدِ الْكَرَمِ

وهذه القطعة تكفى لبيان ما فى هذا المديح من تكلف ، وهو مديح غير مقصود لذاته ، وإنما أريد به الوصول إلى عرض فنون البديع ، فالبيت الأول فى التخلص ، والثانى فى الاطراد ، والثالث فى العكس ، والرابع فى الترديد والخامس فى التكرار ، فالناظم يلتزم كلمة خاصة فى كل بيت ، ويلتزم بجانب ذلك التمثيل ، وهذا وذاك من موجبات التكلف والافتعال ، والقصيدة كلها على هذا النمط فلا موجب للاسهاب .



الفصل الثانى عشر

مدائح ابن نباتة المصرى

موجز ترجمة ابن نباتة — غلبة البديع على شعره — تحليل الهمزية — تحليل الرائيــة — تحليل العينيــة — تحليل اللامية — نقد الميمية — خلاصة القول فى مدائح ابن نباتة .

١ — ابن نباتة المصرى جمال الدين محمد بن محمد : شاعر مكثر من شعراء القرن الثامن ، ولد بالقاهرة فى زقاق القناديل فى ربيع الأوّل سنة ٦٨٦ ، وتوفى يوم الثلاثاء من صفر سنة ٧٦٨ بالبيمارستان المنصورى ، ودفن خارج باب النصر بتربة الصوفية . وليتنبه القارئ إلى كلمة (تربة الصوفية) فهى من الدلائل على غلبة التصوف فى ذلك الزمان .

٢ — وأهمّ ما ترك ابن نباتة فى المدائح النبوية خمس قصائد ، الأولى همزية مطلعها :

شُجُونٌ نَحْوَهَا الْعُشَّاقُ فاءوا ... وصَبٌّ مَا لَهُ فى الصَّبْرِ رَاءُ

والثانية رائية ومطلعها :

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلاَ نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ ... وَلَمْعَةُ بَرْقٍ بِالْغَضَا تَتَسَعَّرُ

والثالثة عينية ، ومطلعها :

يَا دَارَ جِيرَتِنَا بِسَفْحِ الْأَجْرَعِ ذَكَرَتْكِ أَفْوَاهُ الغُيُوثِ الْهُمَّعِ

والرابعة لامية ، ومطلعها :

مَا الطَّرْفُ بَعْدَكُمُ بِالنَّوْمِ مَكْحُولُ هٰذَا وَكَمْ بَيْنَنَا مِنْ رَبْعِكُمْ مِيلُ

والخامسة ميمية ، ومطلعها :

أَوْجِزْ مَدِيحَكَ فَالْمَقَامُ عَظِيمٌ مِنْ دُونِهِ الْمَنْثُورُ وَالْمَنْظُومُ

٣ — وهذه المدائح كسائر شعر ابن نباتة تغلب عليها فنون البديع ، وكانت هذه الفنون غلبت على الشعر كله فى تلك الأيام ، فلا ينس القارئ أن هذا كان منتهى البلاغة عند شعراء القرن الثامن ، وليتذكر أن موقفنا من هذه الفنون ليس موقف اللائم ، ولكنه موقف المؤرخ ، وما نستهجنه اليوم من هذه الفنون كان الظفر بنكتة منه غاية مايصبو إليه كبار الشعراء فى ذلك الحين .

٤ — تقع الهمزية فى تسعة وستين بيتاً ، منها ستة عشر فى النسيب ، والنسيب فى هذه القصيدة تافه ، والشاعر يفرح بالنكتة اللفظية كأن يقول :

وَلَاحٍ مَا لَهُ هَاءٌ وَمِيمٌ لَهُ مِنْ صَبْوَتِى مِيمٌ وَهَاءُ

ويسره أن يغرب فى التشبيه ، فيقول :

كَأَنَّ الْحُبَّ دَائِرَةٌ بِقَلْبِى فَحَيْثُ الِانْتِهَاءُ الِابْتِدَاءُ

ومدح النبي فى هذه القصيدة تافه أيضاً ، فهو يتحدث عن نار المجوس كما تحدث سواه فيقول :

وَفِى نَارِ الْمَجُوسِ لَنَا دَلِيلٌ   لِأَنْفُسِهِمْ بِهَا وَلَهَا انْطِفَاءُ

ويتوهم أن ناسا ينكرون ذلك فيقول :

فَقُلْ لِلْمُلْحِدِينَ تَنَقَّلُوهَا   جَحِيمًا إِنَّنَا مِنْكُمْ بَرَاءُ
وَإِنَّ أَبِى وَوَالِدَهُ وَعِرْضِى   لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وفى هذا مايشعر بأنه كان يعارض همزية حسان بن ثابت .

ويذكر أن نور النبي أصل لنور الشمس :

وَأَيْنَ الشَّمْسُ مِنْهُ سَنًا وَلَوْلَا   سَنَاهُ لَمَا أَلَمَّ بِهَا سَنَاءُ

وأنه يحارب بالدعاء وبالرأى وبالجيش :

سِهَامُ دُعًا لَهُ وَسِهَامُ رَأْيٍ   لَهَا فِى كُلِّ مَعْرَكَةٍ مَضَاءُ
دَرَى ذُوالْجَيْشِ مَاصَنَعَتْ ظُبَاهُ   وَمَا يُدْرِيهِ مَا صَنَعَ الدُّعَاءُ

ويذكر أن الناس كانوا يحجون البيت بسره قبل أن يولد بأزمان فيقول :

وَلَوْلَاهُ لَمَا حَجَّتْ وَعَجَّتْ   وُفُودُ الْبَيْتِ ضَاقَ بِهَا الْفَضَاءُ
فَإِنْ يُتْلَى لَهُ فِى الْحَجِّ حَمْدٌ   فَقِدْمًا قَدْ تَلَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ

ومن اللعب بالألفاظ هذان البيتان :

وَنَفْسٌ ذَنْبُهَا كَالنِّيلِ مَدًّا ... وَمَا لِوُعُودِ تَوْبَتِهَا وَفَاءُ
مُسَوِّفَةٌ مَتَى وَعَدَتْ بِخَيْرٍ ... تَقُلْ سِينٌ وَوَاوٌ ثُمَّ فَاءُ

٥ — وتقع الرائية فى تسعين بيتاً ، منها سبعة وثلاثون فى النسيب ، وهى خير ما قال فى المدائح النبوية . وربما كانت خير ما فى ديوانه من الشعر الجيد ، وتمتاز هذه القصيدة بوضوح المعانى وقوة السبك ، وفيها كذلك إشارة لبعض لفتات القدماء ، ولا بد أن يكون معاصرو ابن نباتة تلقوها بكثير من القبول ، لأنها بعث لروعة الشعر القديم ، ولننظر كيف يقول :

صَحَا القَلْبُ لَوْلاَ نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ ... وَلَمْعَةُ بَرْقٍ بِالْغَضَا تَتَسَعَّرُ
وَذِكْرُ جَبِينِ البَابِلِيَّةِ إِذْ بَدَا ... هِلاَلُ الدُّجَى وَالشَّىْءُ بِالشَّىْءِ يُذْكَرُ
سَقَى اللهُ أَكْنَافَ الغَضَا سَائِلَ الحَيَا ... وَإِنْ كُنْتُ أَسْقَى أَدْمُعًا تَتَحَدَّرُ
وَعَيْشًا نَضَا عَنْهُ الزَّمَانُ بَيَاضَهُ ... وَخَلَّفَهُ فى الرَّأْسِ يَزْهُو وَيُزْهِرُ
تَغَيَّرَ ذَاكَ اللَّوْنُ مَعْ مَنْ أُحِبُّهُ ... وَمَنْ ذَا الَّذِى يَا عَزُّ لاَ يَتَغَيَّرُ
وَكَانَ الصِّبَا لَيْلاً وَكُنْتُ كَحَالِمٍ ... فَيَا أَسَفِى وَالشَّيْبُ كَالصُّبْحِ يُسْفِرُ
يُعَلِّلُنِى تَحْتَ العِمَامَةِ كَتْمُهُ ... فَيَعْتَادُ قَلْبِى حَسْرَةٌ حِينَ أَحْسِرُ
وَيُنْكِرُنِى لَيْلِى وَمَا خِلْتُ أَنَّهُ ... إِذَا وَضَعَ المَرْءُ العِمَامَةَ يُنْكَرُ

والقارئ يجد فى هذا الشعر العذب كلمات (الغضا) و (البابلية) ويجد (ومن ذا الذى ياعزّ لا يتغير) ، ويجد (صحا القلب) ، ويجد (العمامة) ، وكل أولئك إشارات إلى معان تحدث عنها الشعراء الأقدمون .

وكذلك تطرد العذوبة فى قوله بعد أبيات :

وَغَيْدَاءَ أَمَّا جَفْنُهَا فَمُؤَنَّثٌ كَلِيلٌ وَأَمَّا لَحْظُهَا فَمُذَكَّرُ
يَرُوقُكَ جَمْعُ الحُسْنِ فى لَحَظَاتِهَا عَلَى أَنَّهُ بِالْجَفْنِ جَمْعٌ مُكَسَّرُ
مِنَ الْغِيدِ تَحْتَفُّ الظِّبَا بِحِجَابِهَا وَلٰكِنَّهَا كَالْبَدْرِ فى المَاءِ يَظْهَرُ
يَشِفُّ وَرَاءَ الْمَشْرَفِيَّةِ خَدُّهَا كَمَا شَفَّ مِنْ دُونِ الزُّجَاجَةِ مُسْكِرُ
وَلاَ عَيْبَ فِيهَا غَيْرُ سِحْرِ جُفُونِهَا وَأَحْبِبْ بِهَا سَحَّارَةً حِينَ تَسْحَرُ
إِذَا جُرِّدَتْ مِنْ بُرْدِهَا فَهْىَ عَبْلَةٌ وَإِنْ جَرَّدَتْ أَلْحَاظَهَا فَهْىَ عَنْتَرُ

ومع حلاوة هذا الشعر فانا لا نفهم جيداً كيف يؤنث الجفن ويذكر اللحظ ، ولعله يريد فتور الجفن ، وفتك اللحظ . والجمع المكسر فى البيت الثانى فيه إشارة لطيفة . وقوله :

يَشِفُّ وَرَاءَ الْمَشْرَفِيَّةِ خَدُّهَا كَمَا شَفَّ مِنْ دُونِ الزُّجَاجَةِ مُسْكِرُ

فيه معنى جميل ، و « المشرفية » هى اللثام ، ولم أرها عند غير ابن نباتة ، وهى كلمة مولدة . والبيت الأخير فيه تلاعب بالألفاظ ، ولكنه مع ذلك مقبول .

وابن نباتة مغرم بأمثال هذه الألاعيب اللفظية ، ونراه يقول فى هذه القصيدة ، وهو يصف الناقة التى حملته إلى أرض الحجاز حيث قبر الرسول :

إِذَا مَا حُرُوفُ الْعِيسِ خُطَّتْ بِقَفْرَةٍ غَدَتْ مَوْضِعَ الْعُنْوَانِ وَالْعِيسُ أَسْطُرُ
فَلِلّٰهِ حَرْفٌ لاَ تُرَامُ كَأَنَّهَا لِوَشْكِ السُّرَى حَرْفٌ لَدَى الْبِيدِ مُضْمَرُ

ومن أسماء الناقة : الحرف ، فرأى الشاعر أن يجعل العيس أسطراً ، وأن يجعل ناقته موضع العنوان ، أما الحرف المضمر فوصف جميل ، وإن لم يعرفه النحاة .

ثم يأخذ فى مدح النبي فيبدأ بمعنى ساذج : إذ يذكر أن النبي تمّ مجده قبل أن يخلق آدم ، وذلك قوله :

نَبِيٌّ أَتَمَّ اللهُ صُورَةَ نَخْرِهِ   وَآدَمُ فى نَخَّارِهِ يُتَصَوَّرُ

وفى هذا البيت جناس سخيف .

ويجعل من شرفه أن جبريل خادمه ، وأن عيسى بشر به ، فيقول :

تَحَزَّمَ جِبْرِيلُ لِخِدْمَةِ وَحْيِهِ   وَأَقْبَلَ عِيسٰى بِالْبِشَارَةِ يَجْهَرُ
فَمَنْ ذَا يُضَاهِيهِ وَجِبْرِيلُ خَادِمٌ   لِمَقْدَمِهِ الْعَالِى وَعِيسٰى مُبَشِّرُ

وعبارة « تحزم لخدمته » لا تزال حية فى لغة التخاطب .

ويتحدث عن تهاوى النجوم ونضوب بحيرة ساوة ليلة مولده ، كما تحدث غيره ، فيقول :

تَهَاوَى لِمَا أَتَاهُ النُّجُومُ كَأَنَّهَا   تُشَافِهُهُ بِالْخَدِّ الثَّرَى وَتُعَفِّرُ
وَيَنْضُبُ طَامٍ مِنْ بُحَيْرَةِ سَاوَةٍ   وَلِمْ لاَ وَقَدْ فَاضَتْ بِكَفَّيْهِ أَبْحُرُ

ويتمثل نوره يتنقل بين الأصلاب الكريمة ، ويرى قوة إبراهيم وثورته على الأصنام فيضاً من فضله ، وكذلك يجعله السرّ فى فدى الذبيحين وردّ جيوش الفيل ، وذلك قوله :

تَنَقَّلَ نُوراً بَيْنَ أَصْلاَبِ سَادَةٍ   فَلِلّٰهِ مِنْهُ فِى سَمَا الفَضْلِ نَيِّرُ

بِهِ أُيِّدَ الطُّهْرُ الْخَلِيلِيُّ فَانْتَحَتْ يَدَاهُ عَلَى الْأَصْنَامِ تَغْزُو وَتَكْسِرُ
وَمِنْ أَجْلِهِ جِيءَ الذَّبِيحَانِ بِالْفِدَى وَصِينَ دَمٌ بَيْنَ الدِّمَاءِ مُطَهَّرُ
وَرُدَّتْ جُيُوشُ الْفِيلِ عَنْ دَارِ قَوْمِهِ فَلِلَّهِ نَصْلٌ قَبْلَ مَا سُلَّ يَنْصُرُ

والقصيدة على طولها ليس فيها جديد ، فهى معان مكررة تعاورها المادحون من قبل ، وقد ختمت القصيدة بقطعة جزلة توسل فيها الشاعر بالرسول ، واستعداه على مايقاسى من الذل والاغتراب .

٦ — وتقع العينية فى ثمانية وثمانين بيتا ، منها ستة وعشرون فى النسيب. والنسيب فى هذه القصيدة ضعيف ، والشاعر يمضى فيه على ما ألف من الاشارات ، كأن يقول :

بَانَتْ سُعَادُ فَلَيْتَ يَوْمَ رَحِيلِهَا فُسِحَ اللِّقَا فَلَثَمْتُ كَعْبَ مُوَدِّعِي

يشير إلى (سعاد) فى قصيدة كعب بن زهير ، والمدح فى هذه القصيدة ضعيف أيضاً ، وهو فيه يقتبس بعض التعابير القديمة ، كقوله :

مَاذَا عَلَى الْمَدْحِ الطَّهُورِ يُثِيرُ مِنْ كَأْسِ الثَّنَا بَعْدَ الْكِتَابِ الْمُتْرَعِ
بَعْدَ الْحَوَامِيمِ الَّتِي بِثَنَائِهَا هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ

والشطر الأخير من قصيدة ابن سينا فى النفس .

والشاعر مفتون بهذه القصيدة ، ويرى نفسه خليفة حسان فيقول :

إِنْ كُنْتُ حَسَّانًا بِمَدْحِكَ نَائِبًا فَسَنَاكَ أَرْشَدَهُ وَقَالَ لِيَ اتْبَعِ

وفي القصيدة قطعة طويلة بكى فيها الشاعر صباه ، وتألم من غفلته بعد الشيب عن المتاب .

٧ — أما اللامية فتقع فى تسعة وسبعين بيتاً ، منها خمسة وعشرون فى النسيب ، وهى قصيدة نظمها الشاعر معارضة لقصيدة بانت سعاد ، وقد اقتبس من لامية كعب شطرات كثيرة ، كقوله :

مَا يُمْسِكُ الْهُدْبُ دَمْعِي حِينَ أَذْكُرُكُمْ
إِلاَّ كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ

وهو مقتبس من قول كعب :

وَلاَ تَمَسَّكُ بِالْعَهْدِ الَّذِى زَعَمَتْ   إِلاَّ كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ

وقوله :

بَانَتْ زَخَارِفُهَا بِالصَّبْرِ وَاعِدَةً   وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلاَّ الْأَبَاطِيلُ

وهو مقتبس من قول كعب :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً   وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلاَّ الْأَبَاطِيلُ

وهو نفسه قد أفصح عما يؤكد هذه المعارضة إذ قال :

يَاخَاتَمَ الرُّسْلِ لِى فى الْمُذْنِبِينَ غَدًا   عَلَى شَفَاعَتِكَ الْغَرَّاءِ تَعْوِيلُ
إِنْ كَانَ كَعْبٌ بِمَا قَدْ قَالَ ضَيْفَكَ فى   دَارِ النَّعِيمِ فَلِى فى الْبَابِ تَطْفِيلُ

وَأَيْنَ كَابْنِ زُهَيْرٍ لِى شَذَا كَلِمٍ   رَبِيعُهَا بِغَمَامِ الْقُرْبِ مَطْلُولُ
بَانَتْ مَعَاذِيرُ عَجْزِى عَنْ نَدَاكَ وَعَنْ   بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ

والنسيب فى هذه القصيدة لا يخلو من روعة ، كقوله فى خطاب الأحباب :

يَا بَاعِثِينَ سُهَاداً لِى وَفَيْضَ بُكًا   مَهْمَا بَعَثْتُمْ عَلَى الْعَيْنَيْنِ مَحْمُولُ
هَبْكُمْ مَنَعْتُمْ جُفُونِى مِنْ خَيَالِكُمُ   فَكَيْفَ يُمْنَعُ تَذْكَارٌ وَتَخْيِيلُ
فى ذِمَّةِ اللّٰهِ قَلْبٌ يَوْمَ بَيْنِكُمُ   مُوَزَّعٌ وَدَمٌ فى الْحُبِّ مَطْلُولُ
شُغِلْتُمُ بِصَبَاحِ الْأُنْسِ مُبْتَسِمًا   وَنَاظِرِى بِظَلَامِ اللَّيْلِ مَشْغُولُ
كَأَنَّمَا الْأُفْقُ مِحْرَابٌ عَكَفْتُ بِهِ   وَالنَّيِّرَاتُ بِأُفْقِيْهِ الْقَنَادِيلُ

وقوله : (مهما بعثتم على العينين محمول) من التعابير الحية فى القرى المصرية .

ومن الكلام المقبول قوله فى تفدية زمن الوصل :

يَفْدِى الزَّمَانَ الَّذِى فى عَامِهِ قِصَرٌ   هٰذَا الزَّمَانُ الَّذِى فى يَوْمِهِ طُولُ

أمّا قوله :

لَوْ كُنْتُ أَرْتَاعُ مِنْ عَذْلٍ لَرَوَّعَنِى   سَيْفُ الْمَشِيبِ بِرَأْسِى وَهْوَ مَسْلُولُ
أَمَا تَرَى الشَّيْبَ قَدْ دَلَّتْ كَوَاكِبُهُ   عَلَى الطَّرِيقِ لَوَ انَّ الصَّبَّ مَدْلُولُ
حَتَّامَ أَسْأَلُ عَنْ لَهْوٍ وَعَنْ لَعِبٍ   وَفى غَدٍ أَنَا عَنْ عُقْبَاهُ مَسْئُولُ

فهو مسايرة للبوصيرى فى قصيدته الميمية .

فاذا انتقلنا إلى المديح رأيناه يعود إلى معانيه الماضية فيذكر أن محمداً جُبل

معنى نبوّته قبل أن يجبل آدم ، وأن تاج علاه ارتفع قبل أن يرتفع ضوء البدر والنجم ، فيقول :

مُحَمَّدُ الْمُجْتَبَى مَعْنَى جِبِلَّتِهِ ... وَما لِآدَمَ طِينٌ بَعْدُ مَجْبُولُ
وَالْمُجْتَلَى تَاجُ عَلْيَاهُ الرَّفِيعُ وَمَا ... لِلْبَدْرِ تَاجٌ وَلاَ لِلنَّجْمِ إِكْلِيلُ

ولا يكتفى بهذه الدعوى ، بل يدّعى أنه لولا النبي لم تخلق الأرض ولا الأفق ولا الزمان ولا الناس ولا المناسك ، ولا كان فى الدنيا وحىٌ ولا تنزيل ، وأن أبرهة لم ينهزم إلا بسرّه ، وذلك حيث يقول :

لَوْلاَهُ مَا كَانَ أَرْضٌ لاَ وَلاَ أُفُقٌ ... وَلاَ زَمَانٌ وَلاَ خَلْقٌ وَلاَ جِيلُ
وَلاَ مَنَاسِكُ فِيهَا لِلْهُدَى شُهُبٌ ... وَلاَ دِيَارٌ بِهَا لِلْوَحْيِ تَنْزِيلُ
ذُو الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي مَا اسْطَاعَ أَبْرَهَةٌ ... يَغْزُو مَنَازِلَهَا كَلاَّ وَلاَ الْفِيلُ

ويعود إلى ما تحدث عنه فى الرائية من خدمة جبريل ، فيقول :

مَا زَالَ فى الْخَلْقِ ذَا جَاهٍ وَذَا خَدَمٍ ... لَـكِنَّ خَادِمَهُ الْمَشْهُور جِبْرِيلُ

وقد سرّه أن يكون أبرهة انهزم بسر النبي قبل مولد النبي فعاد إليه فى القصيدة نفسها مرة ثانية ، فقال :

حَامِي حِمَى الْبَيْتِ بِالرُّعْبِ الْمُقَدَّمِ مَا ... نَاوَاهُ أَبْرَهَةُ الْعَادِى وَلاَ الْفِيلُ

وتحدث كما تحدث قبله ناس عن فيض الماء من أصابع النبي ، وبركة ما مست راحته من الزاد ، وما خاطبته به الوحوش ، فقال :

فاضَ الزُّلالُ المُهَنَّى مِنْ أصابِعِهِ نِعْمَ الأصابِعُ مِنْ كَفَّيْهِ والنِّيلُ
وَبُورِكَ الزَّادُ إذْ مَسَّتْهُ رَاحَتُهُ فَحَبَّذَا مَشْرَبٌ مِنْهَا وَمَأْكُولُ
وَخَاطَبَتْهُ وحُوشُ البِيدِ مُقْبِلَةً فَالرِّجْلُ عَاسِلَةٌ وَاللَّفْظُ مَعْسُولُ

وفى هذه القصيدة قطعة فى مدح أصحاب الرسول ، نظر فيها الشاعر إلى معانى كعب ومعانى البوصيرى ، فليس فيها جديد . ومن أظهر الشواهد على ذلك أن البوصيرى يقول :

وَالكَاتِبُونَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ رِمَاحُهُمْ حَرْفَ شِرْكٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

فيجىء ابن نباتة فيقول :

الكَاتِبُونَ مِنَ الأَجْسَامِ مَا اعْتَبَرَتْ سُودٌ وَبِيضٌ فَمَنْقُوطٌ وَمَشْكُولُ

ومن الغرام بالاشارات الاصطلاحية قوله فى وصف الرسول :

مُجَاهِداً فى سَبِيلِ اللّهِ مُصْطَبِراً عَلَى الجِرَاحِ وَبَعْضُ الجرْحِ تَعْدِيلُ

يشير إلى بعض القواعد فى علم مصطلح الحديث .

٨ — أما الميمية فهى أقصر مدائحه وأضعفها ، ولم يبتدئها بالنسيب كما فعل فى أخواتها من قبل . ولم يأت فيها بمعنى طريف ، وإنما أعاد الحديث عن نار كسرى ، وذكرنا بألاعيبه اللفظية حين قال :

بِمَقَامِكَ المَرْفُوعِ يُخْفَضُ ذَنْبُنَا الـ ـمَنْصُوبُ إنَّ رَجَاءَنَا المَجْزُومُ

٩ — وخلاصة القول أن ابن نباتة كان من المولعين بالمدائح النبوية كأهل

عصره ، وله فى ذلك قصائد بعضها جيد وبعضها ضعيف . ويجب أن نتذكر أن ابن نباتة كان من المفتونين بالمجون ، وفى ديوانه مقطوعات كثيرة فيها دعارة وفسق ، وفيها تزيين للاثم والغواية ، وتلك اتجاهات نفسية توحى إلى من كان فى مثل رقة حسه أن يفزع إلى الندم والمتاب : وكذلك نجد فى مدائحه رقة المستغفر المنيب . ولا ينقض ذلك أن يكون شعره ضعيفا فى الاستغفار والانابة ، فان ذلك الضعف لا يرجع إلى قيمة الصدق فى توبته ، ولكنه يرجع إلى ضعف الشاعرية عند ابن نباتة ، فلن نرى شعره فى أصدق مواقفه أقوى من شعره فى استغفاره وإنابته . وعودته الى مدح الرسول من حين إلى حين تؤكد ميل نفسه إلى هذا الفن ، وتدل على رغبته فى الخلاص من آصار الذنوب .

ولا ننس النص على أن اهتمامه بمعارضة قصيدة كعب والاشارة إلى همزية حسان يدل على سيرورة تلك القصائد ، وقربها من أذهان الناس ، وعدّها من أصول المدائح النبوية .

ولننص أيضا على أن جامع ديوان ابن نباتة رتبه على حروف المعجم ورأى أن يجعل ما قيل فى مدح الرسول رأس الباب : فالهمزية هى أولى القصائد فى باب الهمزة ، والرائية أولى القصائد فى باب الراء ، وهكذا ، وفى ذلك مايدل على منزلة المدائح النبوية فى أنفس مصنفى الدواوين .

وأغرب ما لاحظناه أن ابن بناتة لم يشغل نفسه بمعارضة ميمية البوصيرى ، مع أنها كانت شغل الشعراء فى ذلك الحين ، فدل بذلك على أنه استقل عن الروح السائد فى عصره بعض الاستقلال

خاتمة الكتاب

قصة المولد النبوى

قصة المولد من مبتدعات الصوفية — الصيغة الفنية فى إنشاء الموالد — قيمتها الأدبية والغنائية — ما فى الموالد من الخرافات والأساطير — دعوة وزير الأوقاف إلى وضع صيغ جديدة تلائم العصر الحاضر — رأى الدكتور طه حسين — ما تجب مراعاته فى وضع قصة المولد النبوى

١ — هذه القصة نوع من المدائح النبوية ، وهى ليست قديمة العهد فى التاريخ الاسلامى ، وإن زعم بعض مؤلفى الموالد أن النبىّ أوصى فى حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد أن يموت . وأغلب الظن أن الاحتفال بالمولد نشأ فى بلاد فارس . وأقدم ما وصلت إليه فى تاريخ هذا النوع من الاحتفال ما قرأته فى نفح الطيب عن ابن دحية ، وقد مرّ بأربل سنة ٦٠٤ ورأى مظهر الدين كوكبرى معتنيا بعمل المولد النبوى فى شهر ربيع الأول من كلّ عام ، فصنف له كتابا سماه : «التنوير ، فى مولد السراج المنير» وختمه بقصيدة طويلة فأجازه مظهر الدين بألف دينار (١) .

---

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٩ ، ومن قبل ذلك احتفل الفاطميون فى مصر بالمولد النبوى

ومن المؤكد أنّ تأليف الموالد أقدم من ذلك فقد استعملت لفظة «مولد» بمعنى «تاريخ» منذ عهد بعيد، وللواقدى كتاب اسمه: «مولد الحسن والحسين».

٢ — لا جدال فى أن المسلمين اهتموا منذ عهد بعيد بتدوين أخبار الرسول، أما وضع القصص الخيالية عن مولده ونبوته وأزواجه وغزواته، فهو من عمل الصوفية وهم الذين اتخذوا قصة مولده أحبولة يتصيدون بها أهواء الناس. . . . والذى ينظر فى تقاليد الصوفية يراهم أدخلوا المولد فى صميم الحياة الدينية، أى جعلوه عنصراً أصيلا فى الحفلات الشعبية، فتقرأ القصة فى ربيع الأول وَفْقاً للتقاليد الرسمية، ثم تقرأ فى كل وقت حين تخلق المناسبات: كحفلات التهانى وحفلات الأعراس. وقد صار الاحتفال بالمولد من الأعياد الرسمية فى مصر بفضل الدعاية الصوفية.

ولم نستطع الوصول إلى معرفة أول من ألّف فى الموالد فليكتف القارئ الآن بأن يعرف أن من أقدم ما عرفنا من هذا النوع كتاب «العروس» وهو مولد ألّفه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧، ورسالة ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠، ورسالة الرعينى الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩

وفى دار الكتب المصرية نحو أربعين مولداً ألفت فى عصور مختلفة، ولو استقصينا لعرفنا أن هذا النوع من التأليف كثر جدًّا: فلكل طريقة مولد، بل لكل شيخ مولد، وهى جميعا تتشابه فى الغرض والأسلوب.

٣ — ولننصّ على أن أكثر الموالد نظم فى نثره نظماً غنائياً ليصلح للترتيل والتغنى والانشاد، ولم يَرُجْ بين الجمهور إلا الموالد التى روعى فيها نظام

الفواصل المسجوعة التى تجرى مجرى القصيد فى التزام القافية . ولنذكر لذلك شاهدين :

الشاهد الأول قول البرزنجى :

وَظَهَرَ عِنْدَ وِلاَدَتِهِ خَوَارِقُ وَغَرَائِبُ غَيْبِيَّهْ .

إِرْهَاصاً بِنُبُوَّتِهِ وَإِعْلاَمًا بِأَنَّهُ مُخْتَارُ اللهِ تَعَالَى وَمُجْتَبَاهُ .

فَزِيدَتِ السَّمَاءِ حِفْظًا وَرُدَّ عَنْهَا الْمَرَدَةُ وَذَوُو النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّهْ .

وَرُجِمَتْ رُجُومُ النَّيِّرَاتِ كُلَّ رَجِيمٍ فِى حَالِ مَرْقَاه .

وَتَدَلَّتْ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْجُمُ الزُّهْرِيَّهْ .

وَاسْتَنَارَتْ بِنُورِهَا وِهَادُ الْحَرَمِ وَرُبَاهْ .

وَخَرَجَ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ الْقَيْصَرِيَّهْ .

فَرَآهَا مَنْ بِبِطَاحِ مَكَّةَ دَارُهُ وَمَغْنَاهْ .

وَانْصَدَعَ إِيوَانُ كِسْرَى بِالْمَدَائِنِ الْكِسْرَوِيَّهْ .

الَّذِى رَفَعَ أَنُوشِرْوَانُ سَمْكَهُ وَسَوَّاهْ .

وَسَقَطَ أَرْبَعٌ وَعَشْرٌ مِنْ شُرُفَاتِهِ الْعُلْوِيَّهْ .

وَكُسِرَ سَرِيرُ الْمُلْكِ كِسْرَى لِهَوْلِ مَا أَصَابَهُ وَعَرَاهْ .

وَخَمَدَتِ النِّيرَانُ الْمَعْبُودَةُ بِالْمَمَالِكِ الْفَارِسِيَّهْ .

لِطُلُوعِ بَدْرِهِ الْمُنِيرِ وَإِشْرَاقِ مُحَيَّاهْ .

وَفَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ وَكَانَتْ بَيْنَ هَمَذَانَ وَقُمَّ مِنَ الْبِلاَدِ الْعَجَمِيَّهْ .

وَجَفَّتْ إِذْ كَفَّ وَاكِفُ مَوْجِهَا الثَّجَّاجِ يَنَابِيعُ هَاتِيكَ الْمِيَاهْ .

وَفاضَ وَادِى سَمَاوَةَ وَهِىَ مَفَازَةٌ فى فَلَاةٍ وَ بَرِّيَّهْ .

وَلَمْ يكُنْ بِهَا منْ قَبْلُ مَايَنْقعُ لِظَمْآنِ اللَّهَاهْ .

والشاهد الثانى قول المناوى (١) :

وَفى أوّل لَيْلَةٍ منْ لَيَالِى حَمْله صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُغْلِقَتْ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَفُتِّحَتْ أَبْوابُ الْجِنَانِ الرِّضْوَانِيَّهْ .

وَأَطَّلَعَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ وَتَجَلَّى بِرَحْمَتِهِ وَرِضَوانِهِ التَّجَلِّى الْعَامّ .

وَاهْتَزَّ الْعَرْشُ طَرَبًا وَمَالَ الكُرْسِىُّ عَجَبًا وَانْتَشَرَتِ الرَّايَاتُ الرَّبَّانِيَّهْ .

وَتَلَأْلَأَتِ الْكَائِنَاتُ بِالْأَنْوَارِ ، وَتَنَكَّسَتْ عَلَى رُءُوسِهَا الْأَصْنَامُ .

وَنَطَقَتْ دَوابُّ قُرَيْشٍ بِالْمَقَالَاتِ الْعَرَبِيَّهْ .

وَقالَتْ حُمِلَ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ فَهُوَ إِمَامُ الدُّنْيَا وَسِراجُ الْأَنَامِ .

وَفَرَّتْ وُحُوشُ الْمَشارِقِ إِلَى وُحُوشِ الْمَغَارِبِ بِالْبَشَائِرِ الْقَوْلِيَّهْ .

وَبَشَّرَتْ حِيتَانُ الْبَحْرِ بَعْضَهَا بَعْضًا بِظُهُورِ مِصْبَاحِ الظَّلَامِ .

وَنَادَى لِسَانُ حالِ الْكَائِنَاتِ جَاءَنَا الْيُسْرُ بَعْدَ الشَّدَائِدِ الْعُسْرِيَّهْ .

وَظَهَرَ إِمامُ الْعَدْلِ وَالرَّقِيبُ مِنَ الْحَوَاسِدِ نَامَ .

وَلَمْ تجِدْ أُمُّهُ فِى حَمْلِهِ وَحَمًا وَلاَ تَعَبًا وَلاَ كَرْبِيَّهْ .

---

(١) اشتهر مولد المناوى شهرة عظيمة ، وبلغ من روعته أن صنعت منه لوحات غنائية «اسطوانات» يسمعها الناس من المذياع ، وفى مجموعة أوديون اسطوانة للشيخ ابراهيم الفران فيها قطعة طريفة من مولد المناوى ، ومن المحتمل أن تكون هناك اسطوانات لغيره من قراء المولد النبوى .

وَلاَ ثِقلاً ، وَلاَ هُزلاً ، وَلاَ مَسَّ آلاَمْ .

وَكَانَ بَدْءُ حَمْلِه صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةِ جُمُعَةٍ مِنَ ٱللَّيَالِي الرَّجَبِيَّةِ .

وَٱنْتِهَاؤُهُ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ لَيْلَةَ ٱلِاثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ ٱلْأَيَّامِ .

وَكَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يُسَبِّحُ وَيُقَدِّسُ ذَاتَ رَبِّهِ الْوَحْدَانِيَّةْ .

فَكَانَتِ السَّيِّدَةُ تَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ وَتَقْدِيسَهُ وَهُوَ فِي بَطْنِهَا، فَسَبِّحُوا مَنْ لاَيَنَام .

٤ — ويضاف إلى هذه المنظومات النثرية منظومات شعرية ينشدها المنشدون بعد كل وصلة والوصلة تختم بدعاء مكرر كأن يقول المناوى :

ٱللَّهُمَّ عَطِّرْ قَبْرَهُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَالتَّحِيَّةْ .

وَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَالآثَام .

وتلك المنظومات الشعرية ساذجة فى ألفاظها ومعانيها فهى ليست من الأدب الفحل ، ولكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها فى البيئات الشعبية .

٥ — ومن التحامل أن ننكر قيمة هذه الموالد من الوجهة الأدبية فقد نقلت إلى الجماهير شيئاً من أخبار الغزوات ، وحدثتهم عن أشياء كثيرة من شمائل الرسول ، ثم صارت مع الزمن عنصراً من الحياة الغنائية ، وأصبحنا نفتح دفتر التليفون فنجد أسماء كثيرة لناس يحترفون إنشاد قصة المولد النبوى ، وهى حرفة شريفة لأن أهلها فى الأغلب ينتظر منهم أن يكونوا من الأتقياء الصالحين . ومع أن الغناء تحوّل فى الأيام الأخيرة إلى الأوساط العصرية فانه لايزال للشيخ على محمود ، والشيخ اسماعيل سكر ، والشيخ حسن جابر، سلطانٌ

عظيم فى الأوساط الشعبية . ومحطة الاذاعة الحكومية فى مصر تهتمّ بدعوة أمثال الشيخ على محمود والشيخة منيرة عبده لتلاوة الموالد النبوية ، فينشدون قصائد بعضها فى الحب ، وبعضها فى مدح الرسول ، والجمهور يتلقى ذلك بكثير من الارتياح .

والواقع أن أكثر المغنين المشهورين كانوا فى البداية من الذين ينشدون فى حلقات الذكر ويقرءون قصة المولد النبوى .

٦ — ولا بدّ من الاشارة إلى أن روح التشيع سرى إلى بعض من يقرءون قصة المولد النبوى بدون أن يتنبهوا إلى ذلك : فقد سمعت منهم قصائد فى التفجع لمصرع الحسين .

والتصوف والتشيع يرجعان عندالمسلمين إلى أصل واحد ولا يفصل بينهما إلا حاجز غير حصين من الرسوم والتقاليد .

٧ — والذى يراجع الموالد النبوية يجدها مملوءة بالخرافات والأضاليل ، وقد احتمل الناس لغوها زمنا طويلا ، لأنها لم تكن تُتْلَى إلا فى البيئات العامية التى تصدّق كلّ شىء ، ولكن اتفق أخيرا أن أذاع وزير الأوقاف السابق سعادة محمد نجيب الغرابلى باشا فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ كتابا فى الصحف بيّن فيه أن الصيغ التى وضعت للمولد النبوى صيغ قديمة كانت تتفق فى روحها وأسلوبها وألفاظها مع العصور التى وضعت فيها ولكنها لاتتفق مع العصور الحالية وأنها حُشِيَتْ بقصص ضعيفة السند لا تصوّر المعروف من مولد الرسول وحياته فى صورته الصحيحة . ثم دعا أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد يراعى فيها أولاً تحرّى الأخبار الصحيحة الثابتة عن مولد الرسول

وحياته ، وثانيا اتفاق الصيغة فى روحها وأسلوبها مع العصر الحاضر ، ثم وعد بتقديم مئة جنيه لمن يقدم أفضل صيغة للمولد النبوى .

وقد قوبل كتاب وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية ، ولكن الدكتور طه حسين كتب يناقشه فى جريدة الوادى فى العدد الذى صدر مساء الأربعاء أول أغسطس سنة ١٩٣٤ . ومع أن الدكتور طه حسين كتب مقاله وهو متأثر بالمعارضة الحزبية لذلك الوزير، فان مقاله على ما فيه من عنف يفسر حياة تلك الموالد فى الجماهير الشعبية ، وهو يراها تثير العاطفة ، وترضى الذوق ، ويرى من الأصلح أن لايحرم الناس من خيال لايخالف الدين ، ولا يفسد على الناس أمراً من أمور الايمان ، ثم قال : وأىّ بأس على المسلمين فى أن تحدث إليهم قصص بهذه الأحاديث الحلوة العذاب فتنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي كلها يريد أن يكفله ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون إلى حليمة السعدية ؟ وأىّ بأس على المسلمين فى أن يسمعوا أن الجن والانس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي وأن الشجر أورق لمولده ، وأن الروض ازدهى لمقدمه ، وأن السماء دنت من الأرض حين مسّ الأرض جسمه الكريم ؟ لم تصحَّ الأحاديث بشيء من هذا ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا ويرون فى التحدث به والاستماع إليه تمجيداً للنبي الكريم لا بأس به ولا جناح فيه . وأىّ بأس على المسلمين فى أن يسمعوا أن نفراً من الملائكة أقبلوا إلى النبي وهو طفل يلعب فأضجعوه ، وشقوا عن قلبه وغسلوه حتى طهروه ، ثم ردوه كما كان ، وأقاموه كأن لم يصبه مكروه ؟

لم يصح الحديث بهذا ، ولكن المسلمين يتحدثون به ، ويستمعون له منذأ كثر من أثنى عشر قرناً لم يفسد لذلك ذوقهم ولم يضعف إيمانهم . . . . . إن من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى فى القصص البرىء ، إن من فساد الذوق أن لا يباح للجماعات إلا الحق الذى لا حظّ للخيال فيه ، إن من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين .

ومعنى هذا الكلام أن مؤلفى الموالد خدموا الدين بما أذاعوا من الأساطير وهذا حق من جانب ، وخطأ من جانب .

هو حق لأن الخيال يزيد فى أنس الناس بالدين ، وأ كثر الديانات تأصلاً فى أنفس الجماهير هى الديانات التى تفيض بالخرافات والأساطير ، ولا تزال المذاهب المسيحية تقتسم أهواء الناس على هذا الأساس .

وهو خطأ لأنه ينشئ الناس إنشاء فاسداً ، ويضيع على الاسلام عدداً عظيما من أبنائه الذين يرضيهم أن يقوم دينهم على أساس العقل ، ويسوءهم أن يروا فى معتقداتهم صوراً من وثنية الهنود والفرس واليونان .

٨ — هـذا وقد سمعنا أن وزارة الأوقاف تلقت عشرات من القصص الجديدة التى تصور حياة الرسول بما يوافق ذوق العصر الحديث، ولسنا ندرى على أىّ نمط وضعت تلك القصص ولكنا نرجو أن تكون الموالد القديمة نموذجا للمولد الجديد من الوجهة الفنية ، فان المولد لم يوضع فى الأصل ليكون كتاب تاريخ ولكنه فى أصله لون من التمجيد لآثار الرسول ، وهو كذلك من صور الاستغاثة والتوسل عند الصوفية ، فمن الأنفع أن يراعى الوضع الغنائى فى

تأليفه ليصلح للغناء والترتيل ، فان العامة لا تفتنهم الحقائق المجردة ، وإنما يستهويهم الحق المُزخرَف ، وفى القرآن نفسه سُور مسجوعة ، والقنوت المأثور هو أيضا مسجوع ، ودعوات السلف الصالح كذلك مسجوعة ، وفى هـذا كله ما يشعر بأن أهل الرأى من قدماء المسلمين كانوا يراعون النظم الغنائى فى الدعوات والصلوات

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب « أثر المدائح النبوية » مصححاً بمعرفتى

أحمد سعد على

من علماء الأزهر ورئيس التصحيح

« القاهرة فى يوم الخميس ٣ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ / ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٥ م » .

ملاحظ المطبعة | مدير المطبعة

محمد أمين عمران | رستم مصطفى الحلبي